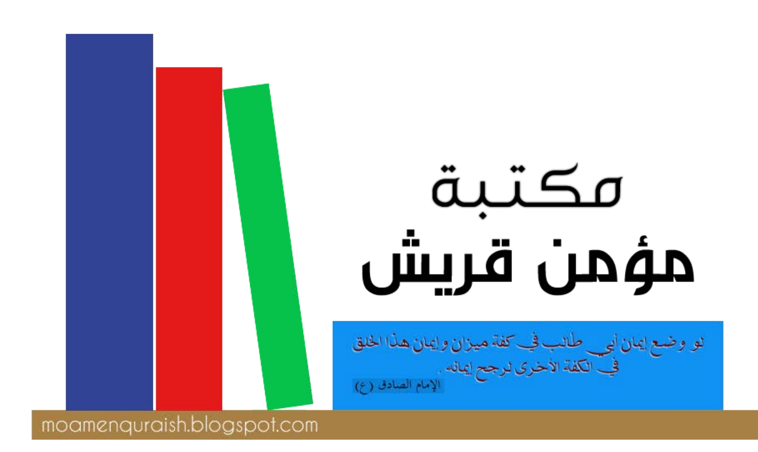
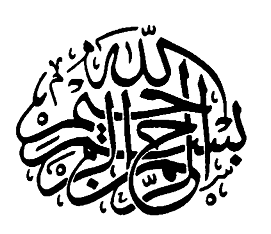
الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت (ع)



الإمام الخامنئي


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com



الكتـاب : الدروس العظيمة من سيرة الأئمة الأطهار (ع)
الكاتب : الامام الخامنئي
الناشـر : الدار الإسلامية
الطبعة : الثانية ـ بيروت ـ 2002 م

هذا الكتاب يتضمن مجموعة من المحاضرات والمقالات والأبحاث التي كان الامام الخامنئي قد ألقاها أو كتبها بيده المباركة، وقد جمعها وحدة الموضوع، وهو سيرة الأئمة الأطهار (ع) والدروس التي تستفاد من حياتهم المليئة بالجهاد والتضحية.

مــــركــــزبــــاء للدراســــات

بيروت ـ لبنان

هاتـف: 03/380119

فاكس: 01/553863

ص.ب.: 14/5680

e-mail: b_a_a_books@hotmail.com

الدروس العظيمة
من سيرة الأئمة الأطهار (ع)
1

الامـام الخامنئي

مـركـز بـــاء للدراسـات
بقية الله الاعظم(ع)

الامام الخامنئي:

ان سلسلة الحـوادث في تاريخ الأئمـة (ع) هي امـتـداد لخط الجهاد والمواجهة الذي استمر طيلة مئتين وخمسين سنة باشكال مـختلفـة. وكان الهدف منه، أولاً: تبيين الاسـلام الاصيل وتفسيـر القرآن واراءة الصورة الواضحة للمعرفة الاسـلامية. وثانياً: تبيين قضية الامامـة والحاكمية السياسية في المجتمع الاسلامي. وثالثاً: السعي لاجل تحقيقها في المجتمع وتحقيق هدف الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) وجميع الانبياء، أي إقامـة القسط والعدل وإزالة انداد الله من سـاحة الحكومة وايداع زمام إدارة الحياة بيد خلفاء الله وعباده الصالحين.

حديث الولاية ـ ج٢/ص٢٣٤

المحتويات

تعريف بالكتاب:

بين يديك ـ أخي القارىء ـ مجموعة من الابحاث والمقالات التي تدور حول سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام ، وتركز الحديث على عدد منهم، لاستخلاص المنهج السياسي العام من حياتهم.

وتنطلق هذه الدراسات، الموزعة على فصول هذا الكتاب، من مبدأ عصمة الأئمة عليهم السلام ، وكون سيرتهم تمثل منهج الارادة الربانية في إدارة الحياة. لهذا، فإن النتيجة الطبيعية لمثل هذه الدروس المستخلصة تحديد المسؤولية الملقاة على عاتقنا في علاقتنا وارتباطنا بالمجتمع الاسلامي على وجه الخصوص.

فقد ورث أئمتنا العظام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حفظ وصيانة الدين من التحريف والتأويل الخاطىء، وفي مسؤولية إقامة حكم الله على الأرض، والقضاء على عبادة الطاغوت بكل أشكاله.

ويا لها من مسؤولية عظيمة تتبعها تضحيات جسام، لا يقدر على حملها إلا من كان تابعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتباع الفصيل أثر أمه. فقد وقف أمامهم أعتى القوى الطاغوتية، التي وسمت صفحات التاريخ بدمائهم الزكية، التي ستشهد على عارهم إلى يوم القيامة.

وهكذا أضحى أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجة كبرى على العباد في حمل أمانة النبوة والرسالة، ومظهراً لتجسيد الاسلام كله، لمن رام سلوك منهجه، والتمسك بحبله.

أهمية هذه الدروس تكمن في أن الذي استنبطها لنا هو سليل هذه العترة

الطاهرة قلباً وقالباً، روحاً وجسماً، علماً وعملاً. وكانت حياته مثالاً لهذا النهج. فقد مضى مجاهداً منذ بداية وعيه ساعياً لاقامة حكم الاسلام، ووجد نفسه في مواجهة مباشرة مع طاغوت زمانه الذي كان قد تعرف على صفاته من أسلافه في النهج والعمل الذين وقفوا مقابل أئمة الهدى عليهم السلام.

وكان لهذه الحياة التي عاشها سيدنا الامام الخامنئي أكبر الأثر في تبلور المفاهيم المتعلقة بسيرة أهل البيت عليهم السلام وبنهجهم الرسالي. ويظهر هذا الامر للقارىء الكريم جلياً عندما يتصفح هذا الكتاب، حيث استطاع سماحته أن يوضح العديد من الاحداث والروايات التاريخية من خلال الشواهد الحية. ولعلنا نقترب أكثر حينها من معرفة الاجتهاد الاصيل الذي ينطلق من معرفة عميقة بالزمان والسنن الالهية الكونية والنهج العام والخط الكلي لاهل بيت النبوة عليهم السلام.

سوف يلاحظ كل من يقرأ الكتاب انه أمام فكر هادر عميق يغوص في أعماق الاحداث التاريخية ويستخرج منها أجلى الدروس وأوضحها وأكثرها فائدة لحياتنا اليوم. ويكون ذلك قاعدة لا مثيل لها لامتلاك الوعي السياسي في أعلى درجاته.

ونشير في نهاية المطاف إلى ان فصول الكتاب قد تم جمعها من مصادر عديدة. فالفصل الذي يدور حول سيرة الامام الصادق عليه السلام هو من كتاب صدر في الجمهورية الاسلامية من تعريب الدكتور محمد علي آذرشب. والفصل المتعلق بسيرة الإمام السجاد(ع) أخذ من مجلة پاسدار اسلام الفارسية وترجمه السيد عباس نورالدين. أما الفصول الأخرى فقد أخذت من برنامج كمبيوتري حوى معظم كلمات وكتابات سماحة الامام القائد واهتم بترجمتها الشيخ فريد توبه، وراجعها مركز بقية الله الاعظم، حيث أُدرجت بهذا الشكل ليكون مفيداً للقراء.

وعلى أمل أن تخرج الطبعات اللاحقة من هذا الكتاب وقد حوت كل ما كتبه أو قاله سماحة الامام القائد حول سيرة المعصومين الاطهار عليهم السلام، نقدم هذا الكتاب.

الناشر

1 دروس وعبر من حياة أمير المؤمنين عليه السلام

1

بسم الله الرحمن الرحيم

... ليس علي ابن أبي طالب بالشخصية التاريخية فحسب، إنما هو أمير المؤمنين، أي أنه بالنسبة لنا الأسوة والقدوة والنموذج. ونموذج للحكومة التي ينبغي على حكامها وقادتها أن يقتدوا بسلوكه ومنهجه. وعلى الإسلاميين أن يتخذوا سلوك ومنهج علي بن أبي طالب قدوة ونموذجاً لهم. واليوم حيث أنعم الله علينا بقيام الجمهورية الإسلامية والتي أثبتت جديتها في العالم وذلك بفضل جهود المسلمين والتضحيات الجسام التي بذلت، على الأشخاص الذين يمسكون زمام أمور الحكومة الآن والذين سوف يتولون ذلك في المستقبل أن يعملوا وأن يخططوا لأجل تحقيق هذا النموذج، فالقدوة في المجتمع هي لأجل صنع وإحياء الفرد المسلم. وهذا ما كنا نفتقده طوال زمان النظام الشاهنشاهي المشؤوم الذي لم يتح مجالاً لهذا العمل، بحيث نحيا حياة إسلامية ونبقى مسلمين، أما اليوم فعلينا أن نغتنم هذه الفرصة في ظل وجود نظام الجمهورية الإسلامية.

إن شخصية علي عليه السلام مؤهلة لأن تكون القدوة لصنع وإحياء الفرد المسلم وكذلك لنعلم كيف يحيا المسلم، بناء على هذا إذا أردنا أن نتحدث عن أمير المؤمنين لا ينبغي أن يكون للتيمن والتبرك بذكره فقط، بل للتعلم منه والاستفادة من مشعل نوره لحل المشكلات ولإزالة العوائق التي تمس الآن بالجمهورية الإسلامية حيث لن تواجه مشكلة في مواجهتها للقوى الاستكبارية في الشرق والغرب وعدم انسجامها مع الأطماع الإمبريالية والاشتراكية.

إن كل المراقبين والعارفين بالمسائل والأحداث السياسية في العالم يعرفون بأن الثورة تبتلى بمشاكل وتواجه صعوبات. هذا أمر طبيعي، لكنْ على كل الأحوال يجب علينا في مقابل هذه المشاكل أن نجد طريق الحل فعندها يصبح للمشاكل نهاية وللعقد حلول ميسرة. ولكي نهتدي إلى سبيل النجاة نرجع إلى حياة أمير المؤمنين التي سوف تفتح لنا باب الحل.

أتعرض هنا إلى ما يتعلق بجوانب شخصية أمير المؤمنين إلى شكل حكومته وقيادته، ثم علينا فيما بعد أن نطابق حياتنا ومنهجنا في العيش مع علي عليه السلام. والآن إذا أردنا أن نقف على المحطات البارزة واللامعة في حياة مولى المتقين وأن نتعرف على شخصيته وحكومته، أظن أنه علينا أن ندرس نقطتين أساسيتين وحساستين. وأتصور أن شخصية أمير المؤمنين عليه السلام بعنوان أنه الحاكم وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تدخل في صلب هذه النقاط، طبعاً لن نتعرض في هذا البحث إلى شخصية علي عليه السلام المعنوية والعرفانية، تلك الشخصية التي كانت دائماً مرتبطة بالفيض واللطف الدائم لله سبحانه. بل سنتحدث عن علي عليه السلام كحاكم إسلامي حكم الأمة الإسلامية لفترة من الزمن ولكي نتعرف على شخصية وأسلوب هذا الحاكم بشكل واقعي سأتحدث أولاً بشكل كلي ومجمل ومن بعدها أشرع بالتفصيل.

١ ـ **النقطة الأولى:** البارز في حياة أمير المؤمنين كحاكم هو التزامه وتعبده الكامل بما جاء به الإسلام وما ورد في شريعته، فأمير المؤمنين الذي تربّى في كنف الإسلام وفي الوقت الذي كان الرسول يتولى الحكومة ويتحمل الأذى والمصاعب في سبيل الإسلام، كان علي عليه السلام الشاب المقاتل المقدام الذي لم يجلس في بيته وينتظر وقوع الحوادث، بل كان حاضراً في كل المواجهات والتحديات. فلقد سخّر كل إمكاناته وكمالاته الإنسانية في خدمة الإسلام حيث شارك في كل الحروب والغزوات التي

جرت في زمن رسول الله ﷺ باستثناء حرب واحدة لم يشارك فيها بناءاً على طلب الرسول حيث طلب منه البقاء في المدينة. فقدم حياته للإسلام وكان حاضراً دائماً ليضحي بروحه دفاعاً عن الإسلام.

وفي ذلك اليوم الذي اجتمع فيه المسلمون على شخصٍ غير علي عليه السلام ليسلموه الأمرة والخلافة حيث اتبع جمع الناس مجموعة صغيرة انسلخت لتبايع غير علي عليه السلام ، وعلي الذي كان يرى ويعلم بأن الخلافة من حقه وهو اللائق بها، وكان يستطيع إن أراد أن يواجه أولئك ويقوم بدعوة الناس وتحريضهم، لكنه عليه السلام لم يقم بذلك وضحى لمصلحة الإسلام. وكذلك فَعَلَ أيضاً بعد وفاة الخليفة الثاني، حيث قال له أعضاء الشورى الستة إقبل بالعمل طبق سنة النبي وسيرة الشيخين حتى نبايعك، ولكنه عليه السلام رفض ذلك فهذا مخالف لما يؤمن به ويتعارض مع تكليفه والتزامه. وأدى هذا الرفض به إلى أن يتأخر باستلام الخلافة ١٢ عاماً أخرى، وطوال فترة حياته التي سبقت تسلمه الخلافة كان دائماً يجاهد ويتحرك في سبيل خدمة الإسلام والشريعة لذا فمن الطبيعي أن يعمل على تطبيق الأحكام الإسلامية حين تسلمه للخلافة وعلى تحكيم الثوابت الإسلامية وهذه هي الخصوصية الأولى للأمير عليه السلام ، وأنتم إذا أردتم أن تقارنوا بين علي وبين الأشخاص الذين وقفوا في وجهه، ستجدون فرقاً أساسياً فعلي عليه السلام لم يكن حاضر إلا ليتحرك ويعمل لأجل الإسلام الذي قد عرفه وآمن به.

٢ ـ **النقطة الثانية:** التي أتمنى أن تلتفتوا لها جيداً وقد كررتها مراراً، هي أننا اليوم بحاجة أكثر من أي يوم مضى لمعرفة المباني الإسلامية والقرآنية والدينية. فنحن علينا جميعاً اليوم أن نتعلم ونفهم الإسلام ماذا يريد وكيف يطرح فكره في كل الميادين والمجالات. إن المسألة الأساسية اليوم هي التعرف على الإسلام وإحدى الطرق التي نفهم من خلالها الإسلام ونستطيع أن ندرك ما يريده منا هي معرفة سيرة ومنهج القادة الإلهيين ومن

جملتهم أمير المؤمنين عليه السلام ، لذا نتحدث اليوم عن أمير المؤمنين لا لنبين مزايا هذه الشخصية التاريخية الإسلامية فقط، بل لأجل معرفة وبيان الإسلام، فإننا نعرف الإسلام من خلال علي عليه السلام . ننتقل الآن إلى النقطة الثانية في شخصية أمير المؤمنين والتي ترتبط بكونه حاكماً إسلامياً. فعلي الحاكم لم يكن مستعداً على الإطلاق أن يهادن ويصالح الأشخاص الذين لم يكونوا يتحركون في ضمن خطه ومسيرته. أي الذين لم يتحركوا في خط الإسلام وفي سبيل الله، وحياة علي تشير إلى ذلك، فعلي تلميذ النبي، لم يكن مستعداً للمسايرة كالنبي نفسه، الذي كان يتحرك في سبيل تحقيق الأهداف المقدسة. وحياة النبي كلها شاهدة على رفض المهادنة والأهواء والأنانيات، ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام مستعداً أن يهادن لكان استطاع أن يحد من نفوذ القادة والشخصيات المعادية له والبارزة في وسط الناس والتي تتمتع بقدر من الاحترام لديهم، وأن يخرس ألسنة الذين انتقدوه، ولو كان أيضاً مستعداً أن يخفف من مواجهته لأعداء الإسلام والحكومة الإسلامية فمن المؤكد لم تكن لتواجهه كل هذه المشاكل والمصاعب له. وهنا كان امتياز علي عليه السلام الحاكم، عن غيره من الحكام، فأولئك كانوا مستعدين أن يتحالفوا مع أي طرف ضد عدوهم فنرى معاوية وعمرو بن العاص المتنافسين والمتخالفين مع بعضهما، يقفان جنباً إلى جنب لمواجهة علي عليه السلام . وكذلك إذا نظرنا إلى طلحة والزبير من جهة وإلى معاوية من جهة أخرى. فلقد كانوا متعادين، لكنهم كانوا مستعدين أن يتحدوا وأن يقفوا جنباً إلى جنب لمحاربة علي بن أبي طالب عليه السلام بينما علي عليه السلام رفض أن يتحالف مع طلحة والزبير ضد معاوية. فبالنسبة لأمير المؤمنين هذا التحالف مخالف للنهج الإسلامي، معاوية عدو ومخالف وبنفس الدليل فطلحة والزبير أعداء لا يمكن مسايرتهم والتحالف معهم، هذه أيضاً من خصوصيات علي عليه السلام.

وعندما انتصرت ثورتنا الإسلامية كانت متحققة فيها تلك الميزتان. ..

2 قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«فما راعني إلاّ والناس كعرف الضبع إليّ، ينثالون عليّ من كل جانب حتى لقد وُطىء الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم؟» وفي مكان آخر يقول: **«والله لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء من ان لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز».**

إن علينا اليوم أن نأخذ الدروس والعبر من سيرة أولئك المعلمين للبشرية، الأئمة بالحقّ عليهم السلام، ننهل من كلماتهم الهادية والمضيئة دروس الحياة والإخلاص والتضحية كي يعم عدل الإسلام في هذا العالم.

ما أريد أن أتناوله هنا هو خطبة أمير المؤمنين التي ذكرتها في المقدمة والمسماة بالخطبة الشقشقية. لكن قبل ذلك أود أن أنقل حادثة، ولعلكم سمعتموها عن أمير المؤمنين عليه السلام. ففي إحدى الحروب التي خاضها عليه السلام وفي وقت هدنة قصيرة، جلس عليه السلام في خيمته مشغولاً بتجهيز نفسه للهجوم المقبل، دخل عليه ابن عباس فوجده منهمكاً بخصف نعله، فالنعل يجب أن يكون محكماً بشدة للتحرك بسهولة وسرعة في الحرب، وأمير المؤمنين عليه السلام كان قد انتهز هذه الفرصة كي يصلح نعله المقطّع، مع العلم بأنه كان حينها حاكماً للبلاد الإسلامية المترامية الأطراف والقائد العام للجيش الإسلامي الكبير. هذا الحاكم الذي كانت تحت ولايته إيران وأفغانستان والعراق ومصر واليمن، ما عدا الشام، هذا الإمام كان منشغلاً بخصف نعله! تأمل ابن عباس ملياً في المشهد الذي يحمل لشخصٍ

متيقظ القلب مثله الكثير من الدلالات والمعاني.

إلتفت الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ابن عباس ليسأله: **ما قيمة هذه النعل؟** وبالطبع لم يكن لها قيمة وهي جديدة فكيف وهي بالية، يصلحها من لا شأن له بهذه المصلحة (الأسكافية) ؟! أجاب ابن عباس: لا قيمة لها.

فعندها أجاب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«والله لهي أحبَ إليَ من إمرتكم إلاَ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً».

فما معنى هذا؟! إنه يعني بأنها إمرةٌ وولاية ذات هدف. هي حكومة الدين. فالإمام يقصد بأني لست مولعاً بالرئاسة ولا أريدها ولكن هذا القبول بمقام الخلافة والإمارة لا أتركه كوني بواسطته أرتقي بالمجتمع الإسلامي وأديره لأقيمَ فيه الحق وأدفع الباطل.. وهكذا كان..

فلنعد الآن إلى الخطبة الشقشقية التي يبين فيها الأمير عَلَيْهِ السَّلَامُ مجرى الأحداث المتعلقة بالخلافة منذ وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، إلى أن وصلت هذه الخلافة إليه عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فيقول:

«وما راعني إلا والناس.. حتى لقد وُطيء الحسنان..»

يعني كان إلحاح الناس واحتشادهم عليَّ، رغبة بي، إلى هذا الحدّ، وذلك كي يقبل بالخلافة. ويقبل أخيراً. ولكن لماذا؟

يوضح الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ هدفه الذي قبل لأجله حيث يقول:

«والله لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها..».

فالحكومة بحسب الرؤية الإسلامية ليست سوى عبادة في هدفها ومنطلقاتها. فأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل بالخلافة لعدة أمور:

أولاً: طلب الشعب وإصراره على ذلك. وهو عامل أساسي ومصيري في

استلام الخلافة.

ثانياً: قيام الحجة بوجود الناصر، فهو عليه السلام يرى دعماً ومساندة يستطيع بواسطتها أن يحقق أهدافه بينما لو لم يرَ ذلك لما قبل.

ثالثاً: ما أخذ الله على العلماء فأمير المؤمنين لكونه عالماً فهو مسؤول أمام الله سبحانه وتعالى أن لا يرضى بالظلم وأن ينصر المظلوم.

تلك هي المعايير التي جعلت أمير المؤمنين عليه السلام يقبل بتولي الخلافة، واليوم فإن من لا يؤمن بالله ولا يقبل بالإسلام كبرنامج للحياة وتكون أفكاره وآراؤه مستوردة من الأفكار القومية أو المادية الإلحادية أو ما يمكن تسميته بالإسلام الالتقاطي، مثل هكذا شخص ممن ليس لديه فكر إسلامي إلهي لن يكون قادراً على تشكيل حكومة إلهية، والتي إن لم توجد فلن يوجد مجتمع إسلامي أبداً. هنا أطلب منكم أن تتحلوا بالوعي واليقظة في النظر للأمور، فأنتم اليوم عندما تنظرون عن بعد إلى تاريخ صدر الإسلام تشاهدون بأم العين علي بن أبي طالب كرجل عظيم وصاحب حقّ، بينما معاوية يظهر كشخص وضيع.. أما في تلك الأيام التي جرت فيها الحرب بين أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية فقد كان هناك أشخاص من صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ممن لا يزال يقاتل مع معاوية، ولعل بعضهم كان من المؤمنين، من كان يظن بأنه يقوم بعمل جيد وصالح بحيث كان يقول: معاوية خال المؤمنين! ففي ذلك الوقت كان الوعي والدقة أمراً مطلوباً بشدة، فمن كان يملك الوعي؟

عمار بن ياسر نموذج من أولئك الذين تمتعوا بالوعي. فقد جمع بعض الذين اشتبهت عليهم الأمور فقال لهم: «أقسم بالله أني رأيت هذه الراية، نفسها التي يقف تحتها اليوم معاوية ضد علي عليه السلام، في معركة بدر حيث كانت يومها مع أبي سفيان» لذلك فإن الوعي والدقة هما ما يلزمنا دائماً..

3

بسم الله الرحمن الرحيم

... إنّ روح تاريخنا إنما هي في ذكر سيرة أئمتنا، فلو لم يكن في تاريخ التشيع هذه الشخصيات العظيمة كأمير المؤمنين والحسنين والزهراء عليهم السلام، لما بقي أثرٌ للتشيّع يذكر في أيامنا هذه، بل ولا أثرٌ للإسلام نفسه، اللهم إلاّ في طيّات بعض الكتب.. هذا الإسلام، إنما حُفظ لنا بذكر علي، وبجهاد هؤلاء العظام وشهادتهم عليهم السلام.

وكما تعلمون فإن مشاعر الناس وأحاسيسهم المنبعثة من حبهم لأهل بيت النبوة عليهم السلام تتفجر لتصل إلى ذروتها ذكرى أفراح أو أحزان آل محمد عليهم السلام، ويُصادف اليوم الذكرى الدامية لضرب الرأس الشريف لأمير المؤمنين، هذه الليلة الحزينة.. المظلمة في الكوفة، لن تتصوروا كيف كانت هذه المدينة في تلك الليلة. كل الناس كانوا أصحاب العزاء فقد رحل المواسي، والمؤنس، كان علي هو من يعزّيهم في الماضي، ذاك الذي كتب يوماً إلى أحد ولاته «.. **اقنع من نفسي بأن يقال امير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر**. كان الإمام شريك الناس في كل آلامهم وهمومهم، مذكّراً في وصيته «الله الله في الأيتام» كان عليه السلام السبّاق في رعاية الأيتام، فاليتيم أشدّ حاجة للعطف والحنان، محروم من تلك البسمة الأبوية العامرة بالمحبة، محروم من مداعبة أبيه له، فمن يملأ هذا الفراغ؟

علي عليه السلام، يسير ليلاً بين تلك المنازل التي كان يعرفها ويعرف أحوال

أهلها، حاملاً إليهم الطحين والأرز والزيت، ومساعداً لهم، بإشعال التنور أحياناً.. ملاطفاً الأيتام يجلسهم في حضنه، يلاعبهم كي لا يشعروا بالحزن والكآبة.

عظمة علي معروفة ومشهورة في الحرب وساعات الوغى، لكن الأهم والأعظم مواساته وخدمته للأيتام والمحرومين، في دموعه المليئة عطفاً وحناناً..

في تلك الليلة.. في ليلة العشرين من شهر رمضان، انتظره الأطفال.. الذين كان يجلسهم على ركبته ويمسح على رؤوسهم بكل لطف، يطعمهم بيده.. انتظروا ذلك الرجل... لكنه لم يأتِ.. في تلك الليلة عرفوا من هو.. ولعلكم سمعتم بما جرى عندما طلب الطبيب المعالج للأمير عليه السلام إحضار الحليب لعله يدفع أثر السم كيف أن عشرات الأطفال الأيتام أتوا من كل أنحاء الكوفة يحمل كلّ منهم كوباً فيه حليب واندفعوا نحو منزل الإمام يريدون ردّ الجميل وشكره على محبته ورعايته وحنانه... ولعلكم سمعتم أيضاً عن ذلك العجوز الأعمى الذي كان في تلك الليلة يأن من عذاب الوحدة وألم الجوع فسأله بعضهم.. فكيف كنت تصنع في الأيام السابقة؟ فذكر لهم بأن رجلاً كان يأتي إليه يواسيه ويطعمه بيده وأخبرهم بمواصفات ذاك الرجل.. الذي ما كان سوى علي عليه السلام .. هذا الإنسان المتعدد الأبعاد والذي كان حقاً كما وصفه الرسول الأكرم **«يا علي انت فاروق الحقّ والباطل»** فكان الملجأ والحامي لكل من يشعر بالضعف والحاجة والوحشة هذا الإنسان الذي كان يقع مغشياً عليه في محراب العبادة من خشية الله هو نفسه الحاكم الذي لم يتحمل وجود والٍ ظالم كمعاوية، وهو نفسه من وبّخ أحد الولاة وكان من أصحابه، لأنه أسرع في تلبية دعوة أحد الأشراف إلى الضيافة والولائم.

وهو الحافظ لبيت المال، بحيث أنه وفي الليلة الأولى لاستلامه الخلافة يطفىء المصباح كي لا يصرف من بيت مال المسلمين، وكي ينبه بعض

الصحابة المدّعين ويحذرهم من سوء أعمالهم.

هذا الإمام كان مظهراً للدفاع عن البشر وحقوق الإنسان واحترامه، وهذا هو الإسلام الذي يتجلى بالتوحيد بكل أبعاده الحية وإكرام الإنسان وعزته، وبالمساواة وروح الأخوّة بين جميع الناس.

ومن يخرج عن هذا النهج فلا يعدّ مسلماً حقاً وإن لم يخرج ظاهراً فإن قلبه لم يؤمن بعد بالله والقرآن إيماناً كاملاً.

ومن يكن أسيراً للآمال والأهواء والانجذاب نحو حياة الترف والوجاهة المليئة بالزبارج والزخارف ويطلب من المسؤولية والسلطة المال فقط ويرغب في المظاهر الفارغة (سيارة من طراز السنة..) وإظهار القوة والقدرة.. مثل هكذا شخص لا يمكن أن يدّعي بأنه خليفة لعلي عليه السلام، يجب علينا جميعاً أن نحفظ هذا المعيار دائماً كوننا ننادي بعلي ونبحث عن نهجه.

كان هذا كلامنا وخطابنا وقد سمعتوه منا منذ عشرين أو ثلاثين سنة، لم يتبدل ولم يتغير.. والآن يظهر جلياً أنه لم يكن ادعاءاً أو شعارات فارغة وما زلنا أمام امتحان واختبار، ونحن الذين حتى الأمس القريب كنا نقول لكم أظهروا ما تعتقدون به وتعلموا واعملوا بكل هذا في ساحة حياتكم الفردية، فاليوم أيضاً، نعيد نفس الكلام ونذكركم بنفس المطالب كي يصبح مجتمعنا مقتدياً بمثال علي بن أبي طالب عليه السلام. فهذا ذكر علي عليه السلام ومن عنده نبدأ ونتقدم فالإسلام إنما ينبع منه عليه السلام.

ذلك اليوم الذي كنا نعيش فيه تحت ظل الحكم الطاغوتي، لم تكن الأعمال ذات الطابع الفردي ذات تأثير أو أن تأثيرها في تغيير الأوضاع كان ضعيفاً، وقد كنّا حينها (أنا وكثير من العلماء المنسجمين بالمنهج والفكر) على هذا الاعتقاد وهو أن لا نحدّث الناس ولا ندعوهم بدون وعي إلى

الأخـلاق بل إلى الأخـلاق التي تدفع النـاس إلى حـمل السـيف لمقـاتلة أسـرة بهلوي. فـالأخـلاق هـي ذلك الشـيء الذي يدفـع الناس للجـهـاد والمواجـهـة وتحفيزهـم للقيام ولاقتلاع غدة الفسـاد. وهذا الوضع يشبه الجسم، حيث إذا بقـي جـهـازه الهـضـمي مـريضـاً فـإن كل مـا يتناوله من غـذاء أو أدوية لا ينفع ولا يجـدي فـلا بد من العمل الجـراحي مـهـمـا رافـقـه من ألـم ونزيف ومعـاناة. فإن النهـاية سيعـقبهـا الصحة والعـافيـة والسـلامة، ومـا لم يقم الإنسـان بهذه العملية فصحيح بأنه لن يتـألم من العمليـة ولكنه في الحقيقة سـوف يتـجـه نحـو الـضـعـف الكلي والموت، بهـذا المنطق كنا نعـمل ونتكلم والآن هـذا التوجـه نفسـه مـا زلنا ندعـو إليه.. فـقـد أُجـريت العـمليـة وزال وجعهـا وحـان وقـت تنـاول الغـذاء المفيد والأدوية المقوية لجسم مـجتمعنا، في ذاك الوقـت كنا نطلب منكم الجـهـاد والمواجـهـة الثـورية، واليـوم بعـد أن هزمتم الطاغوت الحـاكم، صـارت سـاحـة جـهـادكم هي السـاحـة الأخـلاقـيـة والاهـتـمام بتـقوية العـبـادات والفـرائض والاطلاع على المعـارف الإسـلامـيـة، مـجـتـمعنـا اليـوم بحـاجـة مـاسـة للجـانب الأخـلاقـي (وهـذا لا يعني إهمـال الشـأن السـيـاسي) بل أن العـمل السـيـاسي يبـقـى واجـبـاً، ولكن عليكم عـدم الاكتـفـاء بهـذا وعـدم الغـفلة عن الاهـتـمـام بـالأخـلاق والعـبـادة وتعلم القـرآن والمعارف الإسـلامية، وإحياء مثل هذه الليالي (من شهر رمضـان) بـأدعية أبي حمزة الثمالي ودعاء الافتتاح..

إذن فـاليوم هو يوم الاهتـمـام والتوجـه لمثل هذه الأمور، في مجتمعنـا الآن مشـاكل كثـيرة في سلوك الناس، إحداها أن الآباء والأمهـات لا يلتفتـون إلى مسألة إعطاء القيمة والتشجيع لأبنائهم الشباب والفتيان..

ونقـول لهـؤلاء الأهـل دعـوا أولادكم، ليـتـعلمـوا المعـارف الإسـلامـيـة وليشـاركوا فـي الأنشطـة الإسلاميـة، فـالمئـات مـن الشبـاب وخـاصـة مـن الفـتـيـات كـتبوا إلـي يشكون من أن أهـاليهم لا يـسـمـحـون لهم بـالذهـاب إلى صـلاة الجـمـعـة! مـع أن هـذه الصـلاة هــي مناسـبـة لتـلاحم ووحـدة هذه

الأمة وليس عبثاً تأكيد الإمام المتكرر على ضرورة المشاركة فيها بحيث أن المؤمنين الصادقين كانوا يأتون إليها ويفرشون سجّادات الصلاة على الثلج في الشوارع شتاءً، وعلى الإسفلت الحار صيفاً، ولا يتركون هذه الصلاة بأي حال.

إذن دعوا شبابكم ليأتوا ويتعلموا، وإن رغبوا مثلاً بالانضمام إلى قوات الحرس الثوري، دعوهم واسمحوا لهم ليلتحقوا بالحرس ويكونوا في خدمة الإسلام..

هذا واجب الأهل. ولكن ما هو واجب الأبناء؟ أن عليهم احترام آبائهم وأمهاتهم، ولأهمية هذه المسألة نلاحظ كيف أن كثيراً من التفاصيل في المسائل الأخلاقية لم تُذكر في القرآن، أما مسألة احترام الأهل فقد ذكرت مراراً وهذا يدل على مدى أهميتها.. لذا نوصي الشباب: أن احترموا أهاليكم وإن رأيتم أن مستوى فهمكم للأمور أعلى من مستواهم فلا تغتروا بذلك، لأن هذا الفهم والوعي الذي لديكم الآن لم يكن ليحصل لولا التحولات التي أوجدتها الثورة، وكونوا على ثقة بأن أولادكم أنتم سوف يصيرون أيضاً أفضل منكم وأكثر وعياً ولن تكونوا حينها في مستوى فهمهم وسوف ترون اللامبالاة والفتور تجاهكم.

فيجب أن يكون هناك التفاهم والانسجام سائداً بين الأهل والأبناء. فالأبناء يعاملون أهلهم بالحسنى، والأهل بدورهم يفسحون المجال أمام أبنائهم للتكامل والنضج، وأود أن ألفت النظر في هذا المجال أن خاطفي الأولاد من أهلهم اليوم كثر، وطبعاً لا أعني الخطف والسرقة للأطفال الصغار، وإنما أعني أولئك الذين يسلبون عقول وقلوب شبابكم.

واليوم أيضاً نرى في مجتمعنا بعض الوقاحات التي زادت، حتى بلغ الأمر ببعضهم أن ينالوا من مقام إمام هذه الأمة وقلب العالم الإسلامي

النابض وأعظم ثوري في هذا العصر، رغم ادعائهم الثورية.. أولئك هم سارقو عقول وقلوب شبابكم فاحذروهم وراقبوهم. أريد أن أسأل من هو ذاك الذي كان يقاتل في كردستان؟ هو نفسه الذي كان يتكلم اللهجة الطهرانية أو الأصفهانية أو المشهدية ثم يرمي القنابل والقذائف الصاروخية على قوات الحرس، من أين أتى هذا الشاب؟ من بيتي ومن بيوتكم!! ومن الذي جعله ينفر من الإسلام؟ من الذي أبعده عن الإسلام وإيران والاستقلال والثورة والجمهورية الإسلامية؟ دقّقوا وابحثوا كي تعرفوا من. وإن لم تعرفوا فالإمام قد عرّفه لنا... هو عبارة عن تلك المجموعات من المنافقين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «مجاهدي خلق» فكونوا على حذر منهم وراقبوهم كي تبعدوا أولادكم عنهم وهذا لا يكون بإخفاء الأولاد وإبعادهم عن الساحة، أو بمنعهم عن المطالعة وقراءة الكتب. فهذه الأساليب غير ناجحة.. بل اسعوا لتعرّفوا أبناءكم وبناتكم ولترشدوهم إلى النهج الحقيقي والصحيح للفكر الإسلامي والقرآني، إلى التيار المتعمق والمتخصص بذلك الفكر، أصحاب الفهم العميق بالقرآن والإسلام هم أولئك الذين أمضوا أعمارهم في البحث والتدقيق والدراسة، هم الذين يستطيعون أن يمنعوا سارقي العقول من أن يعبثوا بأفكار أبنائكم ويحررونهم منهم، فهؤلاء المدعون لا يطرحون سوى «إسلاماً» التقاطياً مقطع أربعين قطعة وكالأكلة المخبوصة، مؤلف من أفكار ملتقطة من كل مدرسة في هذا العالم أو تيار في الدنيا.

ولهذا ترون أن هذه المجموعات الفاسدة والمنحرفة أشد عداوةً للتيار العلمائي ولا تواجه فئة بالقدر الذي تواجه فيه فئة العلماء. واليوم في إيران فإن بعض العملاء والخونة والجناة يقولون إنهم يريدون اقتلاع العلماء من الجذور، وأكثر من هذا فإن بعض الشباب الذين قاموا لمواجهة أمريكا والشاه، أيضاً فإنهم صاروا يتفوهون بنفس هذا المنطق، فما السبب الذي جعل هؤلاء يشنون الحملات على

العلماء ويوهنون مقام «العالم»؟ السبب هو أن العالم العارف بالهداية ونشر الأصالة الإسلامية يستطيع بسرعة أن يفضح هؤلاء ويكف أيديهم وتأثيرهم فيقول لذلك الشاب، ويؤكد له أن ما تسمونه «توحيد» مثلاً وتعتقدون أنه صحيح يشبه كل شيء إلاّ التوحيد! وإن ما ابتدعتموه من فلسفة وأفكار لا شأن لها بالإسلام. لذلك كله فإن هؤلاء العملاء يشوّهون صورة العالِم في أعين الناس.

وهنا أشير إلى مسألة بخصوص العلماء ويعرفها الذين سمعوا خطاباتي وعرفوا أفكاري منذ سنوات عديدة، بأنني كنت من أوائل المنتقدين لبعض العلماء وأساليبهم الخاطئة وللمتظاهرين بذلك، وقد رفعت صوت النقد لهم في قلب الحوزة العلمية في مشهد أمام مئات الطلبة والفضلاء والمدرسين، في درس التفسير ذكرت هذا كي أؤكد بأني لا أريد أن أدعم وأروّج بشكل مطلق لكل من وضع على رأسه العمامة، لكني أشعر بخطر كبير، هذا الخطر نفسه الذي ذكره الإمام وقلب الأمة الناطق الذي لا يرد عليه أحد. وقد أكّد مراراً كثيرة على هذا المطلب، وأنتم تعلمون أن هذه الثورة قد اشتعلت شراراتها الأولى على يد العلماء الذين هم محل ثقة الشعب، وانتشرت من مركز الحوزات العلمية إلى سائر أنحاء إيران. وهؤلاء العلماء هم الذين حفظوا فكر الثورة وحماسة الناس وثوريتهم ونهوضهم. إن فراشات شمعة هذه الثورة هي نفسها الخطب النارية التي أرشدت الشباب وحركّتهم وانطلقت بهذه المسيرة فكانت محرّك الثورة، كان هؤلاء العلماء يعبئون الجماهير ويشعلون حماسهم بآيات القرآن وخطب نهج البلاغة وبيانات الإمام وكما تعلمون فإنه وبعد انتصار الثورة قد استلم بعض العلماء مسؤوليات ومهام حكومية بأمر من الإمام، وانطلقوا ليأخذوا المواقف الصلبة في مواجهة أمريكا وروسيا والتيارات الرجعية الوافدة إلينا من الخارج. ولو لم يؤد هؤلاء العلماء المجاهدون تكليفهم في هذه المواقع لما رأينا اليوم كيفية النظر إلى مسألة رهائن السفارة الأمريكية مثلاً بهذا النحو، وكذا مسألة

التعاطي مع أمريكا. لو لم يتصدَ العلماء لرأيتم اليوم المستشارين الأمريكيين يتجولون في الشوارع عندكم بحرية، هم وقتلة إخوانكم المظلومين، الذين ما زالوا إلى الآن يتآمرون.

فعليه، من قاوم منذ البداية هو العالِم، ومن صمد قبل الجميع هو العالم. ولا أتعرض هنا لأحد ولكن أذكر أين كانت مواقع الآخرين في هذه المواجهة. ما أقصده أن العلماء في هذا المجال كان لهم الموقع الحساس والمصيري، الأعداء أنفسهم يعرفون هذا. لذلك يريدون القضاء على العلماء. هل تعرفون من أطلق على حكومة الجمهورية الإسلامية اسم حكومة الملالي (الأخوندية) ؟! عملاء الـ .C.I.A هم من قام بذلك، من خلال المحطات الإعلامية في أوروبا وأمريكا. فهؤلاء هم من وضع هذه التسمية المختلقة، وبعدها رأينا هذا الكلام نفسه يتكرر على ألسنة عناصر المجموعات في الداخل التي تسمي نفسها «الشعب» وأحياناً «الشعب الإسلامي»، فانظروا وانتبهوا إلى طريقة ارتباط هذه الظواهر ببعضها. فعلينا أن نملك الوعي وعلينا هداية شبابنا كي يتجهوا لطلب العلم ومعرفة الدين ونهج القرآن الصحيح ومطالعة الكتب. كل الدعايات والحملات الإعلامية التي بدأت بعد شهرين من انتصار الثورة واستهدفت الشخصيات العلمائية والتجمعات المرتبطة بالعلماء، كانت لهذه الأسباب التي ذكرتها، فلو كان الحزب الجمهوري معادياً للعلماء، ولم يكن العلماء عاملين فيه، لما تم محاولة تشويه صورته والتهجم عليه بهذا الشكل.

أمام هذا الواقع، يجب على الآباء والأبناء والأمهات والبنات أن يعرفوا كيف يواجهون وكيف يتحدون أمام هذه الأحداث الجارية في حياتهم. في الماضي كان الخلاف سائداً بين هذين الجيلين، اليوم عليهم أن يتفقوا ويقفوا صفاً واحداً لمواجهة العدو بسلاح القرآن والإسلام. فعندما تضيعون الإسلام مثلاً (طبعاً هذه الأمة لن تفقد الإسلام على الإطلاق) عندها لن تكونوا

قادرين على مقاومة أمريكا وقوتها. بل أن العدو يبدأ عندها بالنفوذ والغزو شيئاً فشيئاً. ولا يقول للأمة: أنا أريد ظلمك وأن أكون ديكتاتورياً عليك، فاستعدي بل أن ظلمه يتدرج بهدوء. أنقل لكم، لأخذ العبرة، مقطعاً من تاريخ صدر الإسلام فبعد زمن خلافة أمير المؤمنين وخاصة بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام أصبحت مدينة الكوفة دائماً مركزاً للاضطرابات والفوضى بالنسبة للحكم الأموي، الذي عجز عن مواجهة الأمر (مثلما عجز نظام الشاه أمام مدينة قم، مدينة الدم والثورة)، فكان بنو أمية كلما عينوا والياً لهم على الكوفة تمرد عليه الناس فيجد نفسه مضطراً أن يعود للخليفة الأموي خالي الوفاض، كي يقول له لا أستطيع أن أنفذ سياستكم وأنا مضطر أن أتوافق مع زعماء الشيعة كي تهدأ الأحوال، أمام هذا الواقع انبرى الحجاج بن يوسف سفاح بني أمية المشهور وطلب من الخليفة عبد الملك بن مروان أن يوليه الكوفة، متعهداً له أن يحل المشاكل ويجعل الكوفة خالية آمنة من التوتر، فولاه الخليفة كما أراد، وكتب له كتاباً بذلك فطلب الحجاج منه أن يخفي هذا الكتاب ولا يطلع عليه أحداً حتى يصل للكوفة ويرسله بذلك. فبقيت هذه المسألة سرية ولم ينتشر الخبر.. رحّل الحجاج إلى الكوفة مع عشرين فارساً مسلحاً من المحاربين الأشداء.

دخلوا الكوفة خلسة قبل أذان الفجر، وتوجهوا إلى المسجد حيث كان الناس يتهيئون لصلاة الصبح وأكثرهم مشغول بالدعاء وقراءة القرآن. نشر الحجاج رجاله على أبواب المسجد ومداخله وطلب منهم أن يبقوا على استعداد دون أن يثيروا أي حركة.

أمّا الحجاج فقد وضع عمامة حمراء على رأسه وتلثم، ثم دخل المسجد بدون أن يعرفه أحد، واعتلى المنبر بهدوء وجلس بدون أن يتكلم شيئاً وانتظر حتى احتشد المسجد بالمصلين الذين انتبهوا فجأة إلى وجود هذا الرجل الملثم الذي لم يعرفوه، (ولو كان ظاهراً لعرفوه كونه سبق أن حكم الكوفة)،

فتوجهت الأنظار إليه بدهشة واستغراب وغلامه واقف عند أسفل المنبر، وصاروا يتساءلون عن سر هذا الجالس الملثم الذي تدل علامات عينيه على القسوة والغضب، وكيف أنه يضع سيفه دون غمدٍ على ركبتيه، ولم يكن إمام الجماعة قد وصل بعد.. ولما رأى الحجاج أن الوقت صار مناسباً فالأنظار كلها متوجّهة إليه باهتمام، رفع عمامته وأسدل اللثام عن وجهه وأنشد الشعر المشهور معرّفاً بنفسه:

أنا ابن جلى وطلاّع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

فعرفه الناس في المسجد وبدأ الرعب يدب في نفوسهم والأنفاس تتقطع.. أمر الحجاج عندها غلامه أن يقرأ على الملأ كتاب التنصيب للحجاج كوالٍ على الكوفة من قبل الخليفة.. بدايةً، الناس لم تأخذ هذه الرسالة على محمل الجدّ فعاد الغلام ليصعد إلى الدرجة الأعلى من المنبر ويعيد القراءة مثبتاً التعيين ومعرفاً الناس على القرار... هكذا تسلل الحجاج بهدوء وتسلل هذا الديكتاتور شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى ما أراد.

واليوم على الأمة الإسلامية أن تنتبه وتفتح عينيها جيداً حتى لا تتكرر هذه الحوادث التاريخية مرة أخرى. الديكتاتورية تأتي بالتدريج، وفي ذلك الزمان لو قاوم أهل الكوفة رجال الحجاج العشرين لمنعوا فيما بعد قتل آلاف الناس الأبرياء وزج الآلاف من الشيعة وذريّة أمير المؤمنين في سجون الحجاج.

الآن ما هو الشيء الذي نقوم به لمنع عودة التسلط الأمريكي في بلادنا؟!

هل لدينا مناعة أو لقاح ضد هذا الميكروب كي لا يعود إلينا؟

ألم تشاهدوا ما جرى في الثورة الفرنسية الكبرى، فبعد إنتصارها وتخلص الشعب من «سجن الباستيل» الذي كان رمز الظلم والاستبداد،

وتحرر المعتقلون السياسيون وأعدم الملك والملكة الظالمين ومصاصي الدماء وأصبحت الحكومة بيد الشعب الفرنسي. ولكن لم تمضِ عدة سنوات حتى عادت الديكتاتورية مجدداً، ولكن بواسطة «نابليون بونابرت» الذي كان جنرالاً عسكرياً فحكم بالحكم العسكري القاسي بعد أن كانت فرنسا مهد الحرية، وبعد هزيمة «نابليون» عادت مرة أخرى حكومة متسلطة، فحكم أبناء لويس السادس عشر (الملك المخلوع والمقتول) لأربعين سنة.. هذا التاريخ أمامنا، إحذروا ولو قليلاً أن يحدث ذلك معكم أيضاً؟ كونوا متيقظين، فما الذي يمنع ويضمن أن لا يتكرر هذا الأمر معنا؟ هناك عدة أشياء تستطيع أن تحفظنا. أهمها أن لا تضعوا في حسابكم إلاّ المقاييس والمعايير الإسلامية.

إن أردتم أن تمنعوا عودة الظلم والتسلط إلى هذا البلد عليكم دوماً أن تراعوا وتحفظوا المعايير والضوابط الإسلامية، هذا أولاً.

ثم عليكم أن تنهضوا وتتجهوا لفهم الإسلام ومعرفته وكذلك لمواجهة أعداء الثورة في جميع مجالات أعمالكم جماعة أو أفراداً، ثم التفطن والوعي العميق لكل ما يجري حولكم.

2

دروس من عاشوراء

عوام وخواص الحق والباطل

نص خطاب سماحة السيد القائد آية الله العظمى الخامنئي في جمع من قادة فيلق «محمد رسول الله» صلى الله عليه وآله وسلم عام ١٩٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم سدّد ألسنتنا بالصواب والحكمة.

من المسائل البارزة في الثقافة الإسلامية والتي لها أمثلة جليّة وكثيرة في عصر صدر الإسلام ـ وعلى مدار التاريخ، وإن بدرجة أقل ـ ثقافة الجهاد. والجهاد لا ينحصر في ساحة الحرب فقط، بل إن كل أمر يمتزج بالجهد والسعي ويكون في مواجهة العدو فهو جهاد. وقد يدّعي البعض فيقول إنه بسعيه في عمل ما والتعب فيه قد أضحى من المجاهدين. لكن ذلك ليس صحيحاً، فالجهاد شرطه أن يكون في مواجهة العدو. وهكذا، في ساحة الحرب المسلحة يكون الجهاد حربياً، وفي الميدان السياسي يكون جهاداً سياسياً، وفي الساحة الثقافية يسمى جهاداً ثقافياً، وإن كان في الميدان الإعماري فهو جهاد إعماري.. وإلى ما هنالك من ميادين أخرى عديدة، لكن العمل لا يعدّ جهاداً إلاّ بشرطين، أولهما السعي والجهد فيه، وثانيهما أن يكون في مواجهة العدو.

انتصار الثورة بواسطة الجهاد في الميادين المختلفة

كما أشرنا، فإن الجهاد لطالما كان من الأمور البارزة في الثقافة الإسلامية وأمثلته عديدة أيضاً في الميادين المختلفة، كذلك هو اليوم فمنذ ذلك الحين الذي دعا فيه الإمام ـ رضوان الله تعالى عليه ـ وأصحابه إلى مواجهة النظام البهلوي المنحوس في سنة ١٣٤١هـ. ش. بدأ هذا الجهاد. ومع بدء تلك المواجهة ظهرت أهميته إلى أن وصل إلى مرحلة النصر، والذي كان انتصار الثورة. ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم لا يزال الجهاد في هذا البلد مستمراً.

ضرورة استمرار الجهاد

لأن لنا عدواً، وأعداؤنا أقوياء بالحساب المادي ويحاصروننا من كل جانب، ولأنهم جادّون في عدائهم لنا، دون هوادة، ويريدون توجيه الضربات لنا من كل جانب. فعلى كل فرد في إيران الإسلام أن يسعى لمواجهة هذا العدو الذي يصوّب سهامه المسمومة من كل الجهات إلى جسم هذه الثورة، وهذا الوطن الإسلامي. وعلى كل فرد أن يكون مجاهداً في سبيل الله. وبحمد الله، فالكل بمختلف مستوياتهم كانوا يجاهدون، وهم يقومون بذلك الآن وسيستمرون. والجهاد الفكري هو أحد مصاديق هذا الجهاد حتماً. ففي مقابل العدو الذي من الممكن أن يستغفلنا وأن يحرف فكرنا ويوقعنا في المزالق والاشتباهات، على كل واحد أن يسعى في تثقيف الناس والحدّ من وقوع الانحراف أو سوء التفاهم بين فئات الشعب. ولأن ذلك كله يكون في مواجهة العدو فهو جهاد، ولعل هذا الجهاد يعتبر جهاداً مهماً في أيامنا هذه.

وبعد أيها الأعزاء، فبلدنا اليوم هو قاعدة الجهاد ومن هذه الجهة فنحن مطمئنون. المسؤولون في هذا البلد جيدون والحمد لله. وعلى رأس هذا البلد الآن شخصيات مؤمنة، مجاهدة، مثقفة ومخلصة، وعليكم أن تقبلوهم بالحسنى. إحدى هذه الشخصيات على سبيل المثال، رئيس جمهوريتنا الشيخ هاشمي رفسنجاني، فهو شخصية مجاهدة مناضلة أمضى عمره في الجهاد ولا زال حتى الآن يجاهد ليلاً نهاراً، وكذلك المسؤولون الآخرون في الفروع المختلفة، مجلس الشورى، السلطة القضائية، القوات المسلحة، أفراد شعب هذا الوطن، وطن الجهاد في سبيل الله. من هذه الناحية، فإن أهم وأثقل ما أحمله من مسؤولية هو أن أنظر لأرى أين تخبو شعلة الجهاد هذه فأجعلها تتوقد أكثر، وأين يقع عمل خاطئ فأقف مانعاً له. إن هذه الأمور هي المسؤولية الأساسية لهذا العبد القليل!

الاعتبار من التاريخ

إعلموا أنني غير قلق من وضع الجهاد في الوقت الحاضر في وطننا، لكن هناك أمر مهم يأمرنا القرآن الكريم أن نفكر فيه، وهو النظر في الماضي لأخذ الدروس والعبر.

وفي هذا المجال من الممكن أن يتشدق البعض بالقول إن الماضي لا يمكنه أن يكون درساً مفيداً لليوم، وأنا قد سمعت هذا الكلام، هؤلاء يريدون بالأساليب الفلسفية وبخيالاتهم أن يفعلوا ذلك، ولكنهم لن يتمكنوا. وأياً يكن، فعمل أولئك لا يهمنا. فالقرآن الكتاب الصادق المصدق يدعونا للاعتبار من التاريخ، ومعنى ذلك أن نعرف ما حدث لنحدد ما ينبغي أن نقلق من حدوثه مرة أخرى، وهذا هو المقصود من القلق الذي ذكرته. علينا

أن نقلق لما يمكن أن يحدث في المستقبل. لكن لِمَ القلق الآن ومن أي حدث؟

إنه ما جرى في صدر الإسلام.

عبر عاشوراء

لقد قلت مرة أن المجال مفتوح أمام الأمة الإسلامية لتفكر. لماذا، وبعد خمسين سنة على وفاة الرسول ﷺ، وصل الأمر بالوطن الإسلامي إلى الحد الذي يجتمع فيه المسلمون أنفسهم، وزراء وأمراء وقادة وعلماء وقضاة وقراء حتى الغرباء والأوباش في الكوفة وكربلاء، يجتمعون ويريقون دم فلذة كبد الرسول ﷺ بهذه الطريقة المفجعة؟

على الإنسان أن يفكر عميقاً ليعرف لِمَ وقع ذلك وبهذا الشكل.

لقد تحدثت قبل سنتين تقريباً عن هذا الموضوع تحت عنوان عبر عاشوراء. وطبعاً فإن دروس عاشوراء متعددة وكثيرة، منها درس الشجاعة مثلاً ودروس أخرى، لكن الأهم في دروس عاشوراء هو العِبَر منها. لقد قلت هذا من قبل؛ فالأمر وصل في ذلك الوقت إلى درجة تساق فيها حرم الرسول ﷺ أمام أعين الناس في الأزقة والأسواق، وفوق ذلك كله، يُتهمون بأنهم خوارج. وليس معنى الخارجي هو التارك لوطنه كما يستفاد من هذه الكلمة اليوم. فالمقصود من الخارجي في ذلك الزمان هو المصنف من فئة الخوارج. ففي الفكر الإسلامي كل من يخرج ويقوم على إمام عادل فعليه لعنة الله والرسول والمؤمنين. وهذا هو معنى الخارجي، لذلك كان جميع المسلمين في ذلك اليوم مستائين من الخارجين الذين أهدر الإسلام دمهم لخروجهم على الإمام العادل. الإسلام الذي

يعطي أهمية كبيرة لدماء الناس قد جعل دم الخارج على الإمام العادل مهدوراً.

وهكذا جاؤوا بابن النبي، ابن فاطمة الزهراء وأمير المؤمنين عليهما السلام، تحت عنوان الخروج على الإمام عليه السلام العادل، الذي كان عندهم وهو يزيد بن معاوية، وفعلوا ما فعلوا.

الغفلة في أمة الرسول

نتساءل الآن لماذا صدق الناس أجهزة الحكومة الظالمة والتي كانت تقول كل ما تشاؤه؟ لماذا بقي الناس ساكتين؟ إن هذا ما يجعلنا نقلق، فالقضية تكمن هنا. ما هو الأمر الذي يوصل إلى هذا الوضع؟ ما الذي يجعل الأمة الإسلامية والتي كانت على درجة كبيرة من المعرفة والدقة بجزئيات الأحكام الإسلامية والآيات القرآنية تغفل وتتساهل في هذه القضية الواضحة جداً بحيث تجلب هذه الفاجعة؟ فعلاً إن هذا الأمر، يقلق الإنسان. فهل نحن أثبت وأشد منعة من مجتمع زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين؟ ماذا نفعل حتى لا نقع في مثل هذا الأمر؟ لقد تحدث الكثيرون في شأن هذه التساؤلات لكن ليس بالشكل الوافي، لذا سأتكلم عنها بشيء من الاختصار، وبالطبع فالكلام يبقى قاصراً أمام هذه القضية. وأنا أترك لكم التفكير والتدقيق فيها أكثر. والمفكرون من أهل التحقيق والمطالعة عليهم أن يتابعوا هذه القضية من خلال بحثهم وتدقيقهم، والأشخاص الذين يعملون في العمل الميداني عليهم أن يتابعوا هذه القضية من خلال الحدّ من العوامل التي جلبت هذه المصيبة المفجعة.

وإذا لم نتصدّ جميعاً، للحد من تكرار تلك العوامل، فمن الممكن بعد خمسين سنة أو خمس سنوات، أو عشر سنوات أخرى أن نرى مجتمعنا الإسلامي قد وصل إلى نفس ذلك الوضع! لا تستغربوا. لكن إذا كان لدينا عين ثاقبة ترى الأعماق، وحارس أمين يدلنا على الطريق ومفكرون يوجهون العمل، وإرادات محكمة تدعم هذه الحركة، حينها سيكون لدينا ساتر محكم وحصن منيع يحول دون نفوذ أيٍّ كان. وإلاّ، فإذا تراخينا ستتكرر القضية ذاتها وستذهب بذلك دماء الشهداء هدراً.

لقد وصل الأمر في ذلك العصر إلى أن يجلس حفيد أولئك الأشخاص - الذين لاقوا حتفهم في معركة بدر على يد أمير المؤمنين عليه السلام وحمزة سيد الشهداء وسائر القادة المسلمين - في مكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويضع أمامه رأس فلذة كبد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يضربه على فمه وأسنانه بعصا من خيزران ويقول:

ليت أشياخي ببدر شهدوا　　　جزع الخزرج من وقع الأسل

وهذا ما يريدنا القرآن أن نعتبر منه. وذلك حيث يقول **﴿قل سيروا في الأرض﴾** أنظروا إلى ما حدث واحذروا. وسوف أتحدث باختصار حول هذا المفهوم ليندرج هذا المعنى في ثقافة بلدنا المعاصرة. وإن شاء الله يتضح أكثر على يد أهل الفكر والرأي.

خواص وعوام الناس في المجتمع

لو نظرتم أيها الأعزاء إلى المجتمع البشري للاحظتم أن الناس في كل مجتمع أو مدينة أو بلد ينقسمون إلى فئتين. فئة تمثّل الشريحة التي تتصرف بعد تفكير وفهم وإرادة فتعرف طريقها وتسير عليه. سواء أكانت صالحة أم لا. وهذه هي فئة الخواص.

وأخرى تمثّل الشريحة التي لا تتحرك لمعرفة الطريق التي ينبغي اتباعها. فلا ينطلق أفرادها في أعمالهم من التفكير والتحليل والإدراك، ولكن حركتهم تكون وفق ما يجري على الساحة، كيفما كان. وهؤلاء هم فئة العوام. إذاً، فالمجتمع يتألف من فئتين: خواص وعوام.

والآن التفتوا إلى نقطة سأقولها فيما يتعلق بتحديد من هم الخواص والعوام حتى لا يحصل اشتباه في تحديد من هم الخواص.

هل أن الخواص من طبقة واحدة؟ كلا. نحن في محيطنا نطلق كلمة خواص على الأشخاص المتعلمين وأمثالهم. لكن من الممكن أن يكون أحد الأشخاص من الخواص وهو غير متعلم. وذلك لأنه يقوم بأعماله عن معرفة وإدراك وعزم حتى ولو لم يذهب إلى المدرسة، ولم يحصّل شهادة جامعية، أو لم يكن من رجال الدين. لكنه يقوم بأعماله من منطلق الوعي والفهم. وهكذا فالمعيار في تحديد الخواص هو هذا الأمر، وأذكر لكم شاهداً على ما أقول. قبل انتصار الثورة الإسلامية أُبعدت إلى مدينة إيرانشهر، وهناك كان يقطن مجموعة من الأشخاص بالقرب منا. هؤلاء الأشخاص كانوا من العوام بحسب الظاهر، فهم لم يكونوا متعلمين أو من أهل الثقافة والفكر، وكان من بينهم سائق شاحنة. رَوَوْا لي في إحدى اللقاءات أن إمام مدينتهم سألهم لماذا يصلون على النبي مرة واحدة حينما

يذكر اسمه المبارك بينما هم يكررونها ثلاثاً لدى سماع اسم الإمام الخميني؟ فأجابه سائق الشاحنة بأنهم ربما لن يحتاجوا إلى تكرارها بعد انتصار الثورة الإسلامية واتساع رقعة الإسلام، لكن في الوقت الحالي فهذه الصلوات هي جهاد ومواجهة للحكومة الطاغوتية.. لم يعِ إمام مدينتهم عمق هذا الفعل وكان بذلك من العوام بينما سائق الشاحنة كان بفهمه ووعيه هذا من الخواص. هذا مثال ضربته لكم لتوضيح المعيار في تصنيف الأشخاص. فالخواص لا يتميّزون بلباس خاص، وقد يكون واحدهم رجلاً أو امرأة، متعلماً أو غير متعلم، غنياً أو فقيراً، عاملاً في جهاز الدولة أو معارضاً للدولة الطاغوتية، حيث أن نفس فئة الخواص تقسم أيضاً إلى خواص صالحين وخواص سيئين، وسيأتي الكلام عن ذلك لاحقاً.

الخواص هم الذين يحددون مواقفهم والطريق الذي ينبغي أن يسلكوه قبل القيام بالفعل وهم يختارون الطريق التي ينبغي أن يسيروا عليها عن تفكير وتحليل وعزم، وفي مقابلهم تماماً يكون العوام، فهؤلاء يتحركون كيفما تحركت الرياح في أي جهة كانت. هم لا ينطلقون في أفعالهم من وعي وتفكير وتحليل.

فإذا سمعوا الناس يقولون فليحيا فلان، قالوا معهم فليحيا. وإذا سمعوهم يقولون فليمت فلان، قالوا معهم «فليمت فلان». ففي وقت من الأوقات، يقولون لمسلم بن عقيل أقدم إلى الكوفة يا ابن عم الإمام الحسين، وحينما يأتي يعلنون عن إرادتهم للقيام والثورة ويجلسون حوله ويستمعون إليه ويبايعونه حتى يبلغ عددهم ثمانية عشر ألف رجل. لكن بعد خمس أو ست ساعات وبعد أن يأتي رؤساء القبائل إليهم وينكرون فعلهم ويخوفونهم ويحذرونهم مما يفعلون وممن يبايعون وممن يحاربون

يتراجعون دفعة واحدة عائدين إلى بيوتهم، تاركين مسلماً وحيداً، ولا يكتفون بذلك بل ينخرطون في جيش ابن زياد، ويحاصرون بيت طوعة ويقبضون على مسلم. هؤلاء الذين بايعوا مسلماً هم أنفسهم عادوا ليحاربوه. هؤلاء هم العوام. لا يتحركون من منطلق الوعي أو التفكير وهم لا يشخّصون الأمور بل يتحركون كما يتحرك غيرهم. وهكذا، ففي كل مجتمع خواص وعوام. والكلام يأتي حول الخواص.

خواص جبهة الحق وخواص جبهة الباطل

ينقسم الخواص بالطبع إلى قسمين. خواص جبهة الحق وخواص جبهة الباطل.

ويمثل القسم الأول مجموع الأشخاص المثقفين الواعين، العاملين في طريق الحق. فهم ممن عرف الحق وعرف أهله فتحركوا وانطلقوا لأجله. إنهم أهل التشخيص.

وفي المقابل تقف مجموعة أعداء الحق والرافضين له. فإذا عدنا إلى تاريخ صدر الإسلام لوجدنا مجموعة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام وبني هاشم، ويقف في المقابل مجموعة من أصحاب معاوية، فهؤلاء أيضاً هم من الخواص. إنهم واعون مدركون لما يقومون به. وهكذا فالخواص على نحوين في المجتمع. لكن ما الذي تتوقعون أن يصدر عن خواص أهل الباطل؟ لا يُتوقع من أولئك إلاّ الوقوف في مواجهة الحق ووضع البرامج والخطط للقضاء عليه. وعليكم الآن أن تنظروا لتحددوا في أي جبهة تقفون .. فالذي نتحدث عنه هو منهجية التفكير، أي يجب عليكم ألاّ

تشتبهوا بين التاريخ والقصة. فالتاريخ هو شرح لأحوالنا، لكن في ساحة أخرى.

ذلك الذي يكون أفضل لوصف الكاملين   الكلام الذي يأتي من غير المحبين

فالتاريخ يعني أن ننظر اليوم جميعاً في أحداثه لنعرف أين نحن في قصصه ثم ندقق أكثر في أفعال من كانوا في الجبهة التي اخترناها ونرى ما آلت إليه أحوالهم ونعتبر منهم، فلا نقع في نفس الأخطاء. وهذا ما يحصل تماماً في صفوف تعلم التكتيك مثلاً. حيث تشخّصون جبهة عدو مفترض وجبهة أخرى لكم وبعد تنفيذ تكتيككم تبدأون بالبحث عن الأخطاء التي حصلت وتحديد أسبابها، فهل الخطأ الحاصل كان بسبب القادة أم التكتيك المتبع، وعليه ينبغي إعادة برمجته، أم أن عامل الإشارة هو الذي أخطأ أو مدير المدفعية أو ربما المقاتلون على الجبهة، وبذلك يتحدد سبب الخطأ فيتم تلافيه في المرة الأخرى. وهكذا بالنسبة إلى التاريخ. الآن وبعد أن اتضح لكم الأمر عليكم أن تحددوا مواقفكم اليوم من الحادثة التي ذكرناها في تاريخ صدر الإسلام.

نعلم أن العوام ليس لديهم وعي أو قرار. لكن بما أنهم مرتبطون بحظوظهم فقد يصادف أن يعيش مجموع منهم في عهد حاكم مثل أمير المؤمنين عليه السلام أو مثل إمامنا الراحل، ففي هذه الحالة سيأخذ هذا الحاكم أولئك إلى الجنة وببركة هدايته سيهديهم ويقودهم إلى النعيم وإن شاء الله يصلون إليها. لكن إذا صادف وعاشوا في زمن حكام، هم مصداق للآية التي تقول «وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار» «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار» حينها سيقودهم حاكمهم إلى النار.

لذا يجب أن تنتبهوا أن لا تكونوا من العوام. وليس معنى أن لا تكونوا من العوام هو أن تذهبوا لتحصيل الدراسات العليا. فعدم تحصيل الدراسات العليا لا يعني أنكم من العوام. فكم من أشخاصٍ قد حصّلوا معارف عليا وهم من العوام وكم من أشخاص حصلوا العلوم الدينية وهم أيضاً من العوام، وكم من الأغنياء والفقراء عوام أيضاً. أن نكون عواماً هو أمر بأيدينا ولذلك يجب أن نكون منتبهين لئلا نكون من العوام. مما يحتم أن نقوم بكل عمل من أعمالنا عن بصيرة. العوام هم الذين لا يقومون بأعمالهم عن بصيرة ولذا نرى أن القرآن عندما تحدث عن الرسول ﷺ قال: ﴿ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (يوسف: ١٠٨).

إذن لنرى منذ البداية إن كنا من العوام أم لا، وإذا كنا منهم علينا أن نسارع لإخراج أنفسنا من هذه الطائفة فنبدأ بالبحث والتفكير لنقتفي أثر الخواص، وعندما نصبح منهم، علينا هذه المرة أن ندقق هل نحن من خواص الحق أم من خواص الباطل.

حب الدنيا آفة خواص جبهة الحق

إن الخواص في مجتمعنا هم من خواص طريق الحق، ولا شك في هذا. فهم يدعون إلى القرآن والسنّة واتباع أهل البيت وإلى طريق الله والقيم الإسلامية، وواقع الجمهورية الإسلامية اليوم هو هكذا. فخواص طريق الباطل حسابهم على حدة ولا ندخل الآن في بحثهم بل نأتي إلى خواص أهل الحق. فإن جميع المشاكل تنبع من أن خواص أهل الحق يتركون طريق الله تحت وطأة أشغالهم أو أموالهم أو تعلقهم بأولادهم وعوائلهم وأقربائهم والأصدقاء، فإن كان عدد هؤلاء كبيراً في المجتمع فواويلاه!! وحينها

سيذهب أمثال الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء ويذبحون، ويستلم أمثال يزيد الحكم بل يستمرون في ذلك ألف شهر كما حكم بنو أمية البلاد الإسلامية التي أسسها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وتستبدل جرّاء ذلك الإمامة بالسلطنة.

المجتمع الإسلامي هو مجتمع الإمامة أي المجتمع الذي يحكمه الإمام، ذلك الرجل المقتدر الذي يتبعه الناس عن إيمان ويقين، بينما السلطان أو الملك هو ذلك الشخص الظالم القاهر الذي يحكم الناس بالقوة ولذلك فالناس لا يحبونه ولا يتقبلونه. وهذا ما فعله بنو أمية، فهم قد بدلوا نظام الإمامة إلى نظام الملكية وحكموا الوطن الإسلامي مدة ٩٠ سنة (١٠٠٠شهر) بهذا النظام. وكثرة عدد هذه الفئة التي تكلمت عنها في البداية جعلت الثورات التي قام بها البعض تضيع دون فائدة وبالتالي لم تحقق أهدافها، بل كان نتيجة ذلك أن جاء بنو العباس وحكموا العالم الإسلامي ستة قرون بعنوان أنهم خلفاء يمارسون دور النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل بتعبير أفضل كانوا ملوك شرب الخمر والفساد والفحشاء، المتعالين المتكبرين، مثلهم مثل بقية سلاطين العالم، ورغم كل ذلك كانوا يذهبون إلى المسجد ويؤمون الناس للصلاة والناس بدورهم أيضاً كانوا يأتمون بهم اضطراراً وبسبب الاعتقاد الخاطىء. طبعاً لم يكن هناك اضطرار بالمعنى الذي يُفهم من هذه الكلمة، بل إن معتقد الناس كان قد أصبح خراباً. وعندما يصير حال خواص أهل الحق بهذا الشكل بحيث يهتمون بدنياهم ويخافون من فقدان أرواحهم وأموالهم ومناصبهم أو يخافون من الإقصاء والعزلة يصيرون بالتالي حاضرين للقبول بحاكمية الباطل. إذن ينقسم خواص أهل الحق إلى فئتين، الأولى هي التي يستسلم أفرادها للدنيا والمقام والأموال والشهرة والراحة، لكل

تلك الأشياء الجميلة في الحياة والتي يعبر عنها في القرآن الكريم بمتاع الدنيا. المتاع الجيد الذي خلقه الله لأجلنا لا المتاع السيء. لكن في المقابل إذا تعلقتم بهذا المتاع لا سمح الله تصلون إلى درجة تستثقلون فيها أداء التكليف وتستصعبون ذلك ولا تعودون قادرين على أن تتركوا وتتخلوا عن كل هذه الملذات، وبذلك تكونون من الفئة الأولى. أما إذا استفدتم من هذا المتاع بحيث أنكم عندما تمتحنون في أداء التكليف تستطيعون أن تتخلوا عنه مباشرة وتؤدون تكليفكم. ففي مثل هذه الحال تكونون من الفئة الثانية. ولأن خواص أهل الحق ينقسمون إلى هاتين الفئتين علينا أن ندقق ونفكر دائماً في هذه المسائل حتى نحافظ على المجتمع والثورة والنظام، فهاتان الفئتان موجودتان في كل مجتمع، وعندما تكون الفئة التي تستطيع ترك متاع الدنيا وتؤدي تكليفها كثيرة في المجتمع، حينها لن يبتلى المجتمع الإسلامي بما حدث في عهد الإمام الحسين عليه السلام، وكونوا واثقين من ذلك تماماً. وعلى العكس فإذا كان خواص أهل الحق من الذين أودعوا قلوبهم الدنيا رغم معرفتهم للحق وجبهته، أو كان عدد الفئة الأخرى من خواص أهل الحق قليلاً، حينها سيحدث ما جرى في عهد الإمام الحسين عليه السلام مرة أخرى وسيخسر أولئك الذين تعلقوا بالدنيا أنفسهم.

وما هي هذه الدنيا؟ إنها المال، إنها المنزل، إنها الشهوة والمقام والاسم والشهرة والحرص على الحياة، وإذا ما ترك الأشخاص الحريصون على أرواحهم طريق الله فإنهم لن يستطيعوا قول الحق عندما يجب عليهم ذلك. فهم يرون حياتهم في خطر، أو أنهم يسكتون لأجل الحفاظ على مناصبهم ولا يقفون في وجه الباطل ولا يدافعون عن الحق، فهم غير مستعدين لأن يعرّضوا حياتهم للخطر. وحينما تصير الأمور بهذا الشكل فإن أول ما

يحدث هو سقوط الإمام الحسين عليه السلام شهيداً. وآخر ما يحدث هو تسلّم بني أمية الحكم على كافة تراب الوطن الإسلامي، ومن بعدهم بنو العباس، وبعد بني العباس أيضاً سلسلة من السلاطين في عالم الإسلام إلى يومنا هذا. فانظروا إلى دنيا الإسلام وإلى الدول الإسلامية المختلفة ما يحل بها اليوم.

فإذا انتهينا من هذه النقطة، نحاول الآن الاقتراب قليلاً من عاشوراء لنحلل هذه الحادثة المليئة بالعبر.

السعي نحو الامتياز

بدأ عهد انحراف خواص جبهة الحق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبع أو ثماني سنوات، ولن أتعرض الآن إلى مسألة الخلافة لأنها منفصلة عما نبحثه، فكل المصائب بدأت بعد وفاة النبي بسبع أو ثماني سنوات، وأولها كان بإشاعة مقولة يلزم بموجبها أن يصبح الأشخاص الذين جاهدوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان لهم دور في حياته، من ذوي الامتيازات، وأن لا يكونوا سواسية مع بقية الناس، بل كان ينبغي أن يمتلكوا امتيازات، وقد أعطيت لهم، مالية من بيت المال. وبهذا النحو كانت كل حركات الانحراف تبدأ من نقطة صغيرة، وتتحول كل خطوة تقدم تجاهها بعد ذلك إلى سبب في تسارع حدوث بقية الخطوات. وهذا ما جرى بالفعل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ وصل الأمر في عهد عثمان الخليفة الثالث أن أصبح الذين لعبوا دوراً مهماً في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الأثرياء الكبار جداً، رغم أنهم كانوا من أصحاب المقامات الذائعة الصيت أمثال طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وغيرهم. فكل واحد من أولئك كان له تاريخ مليء بالمواقف البطولية في بدر وحنين وأحد وغيرها.

غير أنهم أضحوا فيما بعد من أثرياء الدرجة الأولى، وأحد هؤلاء حينما أراد أولاده أن يتقاسموا الذهب الذي ورثوه عنه، والذي كان على شكل مكعبات، احتاجوا للفأس ليكسروا بها، كما نحتاج نحن الفأس لتكسير الحطب، الذهب الذي يقاس بالمثقال احتاجوا هم إلى الفأس حتى يكسروه. فكم كان كثيراً!؟

وهذه الأمور التي أنقلها، نقلها المؤرخون. فليس من الصحيح أن يقال أن هذا الكلام غير دقيق كونه قد ذُكر في كتب الشيعة. لا بل الكل قد نقله ورواه. ولقد وصل مقدار دراهم أولئك ودنانيرهم إلى حدّ الأسطورة! وعندما أتى عهد أمير المؤمنين عليه السلام كان الوضع لا يزال على ما هو عليه، ولأجل ذلك وقعت الحرب والصدامات بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين تلك المجموعة التي كان كل همها المنصب والرئاسة. فبعد مضي ٢٥ سنة على وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان الكثير من الأخطاء والمصائب قد حدث. فإن أمير المؤمنين الذي هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لولا إبعاده عن قيادة المجتمع طوال هذه الفترة (٢٥ سنة) لم يكن ليواجه أي مشكلة في إصلاح الأمور إلاّ أنه واجه ذلك الوضع الصعب الذي ذكرته حينما تسلّم الخلافة.

فالمجتمع الإسلامي كان حاله (يأخذون مال الله دولاً وعباد الله خولاً ودين الله دخلاً بينهم). فكل القيم كانت مطوقة بحب الدنيا والانكباب عليها. هذا المجتمع جلب المشاكل والآلام لأمير المؤمنين عليه السلام عندما أراد حملهم على الجهاد في سبيل الله. أما خواص هذا المجتمع الذي مثّل جبهة الحق، فهؤلاء رغم أنهم عرفوا الحق، كان حال أكثرهم يرجح الدنيا على الآخرة. هذا الوضع السيء الذي وصل إليه المجتمع أجبر أمير المؤمنين عليه السلام أن يخوض ثلاث معارك. فأمضى طيلة فترة حكمه والتي

كانت أربع سنوات وتسعة أشهر منهمكاً فيها، إلى أن قتله في النهاية أخبث خلق الله فسقط في المحراب شهيداً، ودمه هذا الذي سال لا يقل عظمة وقيمة أبداً عن عظمة وقيمة دماء الإمام الحسين عليه السلام التي أريقت في كربلاء. إنكم تقرأون في زيارة وارث «السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره» أي أن الله هو الذي سيثأر لدم الإمام الحسين عليه السلام ولدم أبيه أمير المؤمنين عليه السلام حيث لم يذكر هذا التعبير لأي شخص سفك دمه. وبالانتقال إلى عهد الإمام الحسن عليه السلام نرى أنه قد أصبح وحيداً بعد ستة أشهر من توليه للخلافة، وعليه رأى الإمام الحسن عليه السلام أن ذهابه مع قلة قليلة لمحاربة معاوية وسقوطه شهيداً في المعركة ليس له تلك الأهمية والمؤثرية في هذا المجتمع المنحط أخلاقياً، ولا حتى فيما بين الخواص، إذ أنهم لن يستفيدوا من تلك الدماء الطاهرة لمتابعة المسيرة.

فمعاوية بإعلامه وأمواله ومكره كان قادراً على أن يُفقد هذه الدماء مؤثريتها. والناس بعد سنة على خلافة الإمام الحسن عليه السلام كانوا يقولون له لا ينبغي لك أن تقف في وجه معاوية وتقاومه. في ظل هذا الوضع رأى الإمام أن دمه سيذهب هدراً من دون فائدة. فقاوم كل هذه المتاعب والمصائب ولم يدفع بنفسه إلى ساحة الشهادة. مع أنه في بعض الأحيان تكون الشهادة بالنسبة إلى الإنسان أسهل بكثير من البقاء حياً. والأشخاص الذين هم أولو الألباب والحكمة والدقة، يدركون ذلك تماماً. أحياناً البقاء على قيد الحياة والعيش في محيط متعب ومجهد يكون أصعب بمراتب من القتل والاستشهاد والوصول إلى لقاء الله. وهذا الأصعب هو الذي اختاره الإمام الحسن عليه السلام.

لقد كان خواص الحق في ذلك الزمان مستسلمين وغير مستعدين للتحرك، لكن عندما استلم يزيد الحكم اختلف الأمر بالنسبة للإمام الحسين عليه السلام. فيزيد، لكثرة فساده وفحشه العلني، كان يمكن الاستفادة من محاربته حتى لو أدى ذلك إلى القتل. والدم لن يذهب حينها هدراً. ولأجل ذلك قام الإمام الحسين عليه السلام.

الظروف السياسية والاجتماعية في عهد يزيد

هكذا كان حال عهد يزيد، بحيث لم يكن هناك إلا خيار واحد وهو الثورة. بخلاف عهد الإمام الحسن عليه السلام، حيث كان لديه خياران: الشهادة أو البقاء حياً. والأخير كان أصوب، وآثاره الإيجابية كما صعوباته كانتا أكبر من آثار الشهادة ومصاعبها. لذا اختار الإمام الحسن عليه السلام الخيار الأصعب، بينما في عهد الإمام الحسين عليه السلام لم يكن لديه خيار آخر وأفضل. فخيار البقاء حياً وعدم الثورة لم يكن لهما أي معنى آنذاك، بل كان يجب عليه القيام والثورة سواء وصل إلى الحكومة أم أدى ذلك إلى قتله كما حصل. كان يجب عليه أن يشير إلى الطريق، ويضع الراية التي تحدد الطريق. في ذلك الوقت الذي كان فيه الوضع بهذا الشكل كان ينبغي التحرك بهذه الصورة أيضاً. ولهذا نرى أن الإمام الحسين عليه السلام قام وثار. ولكن عندما قام وأعلن الثورة بقي الكثير من الخواص جانباً دون أن ينصروه رغم عظمته ومقامه في المجتمع الإسلامي، فانظروا إلى أي مستوى أصبح المجتمع في حالة من الخراب، وذلك بواسطة الخواص، الذين لأجل الدنيا قاموا بترجيح راحتهم على المجتمع الإسلامي ومستقبله في القرون القادمة، مع أن الإمام الحسين عليه السلام كان

عظيماً ومعروفاً بينهم. وأنا كنت أفكر في مجريات ثورة الإمام الحسين عليه السلام وفي نفس خروجه ليلاً من المدينة، حيث في تلك الليلة التي خرج فيها الإمام الحسين عليه السلام كان عبدالله بن الزبير قد خرج مغادراً أيضاً، وكلاهما في الواقع كان لديه نفس الوضع، لكن أين حال الإمام الحسين عليه السلام من حال عبد الله بن الزبير؟ فكلام الإمام الحسين عليه السلام ومواجهته وخطابه كانت بنحوٍ لم يسمح لحاكم المدينة في ذلك الوقت ـ الوليد بن عتبة ـ أن يتجرأ على الإساءة اليه عليه السلام ومروان تلفظ بكلمة واحدة، فوبخه الإمام عليه السلام مما دفعه أن يجلس مكانه في حين أن هذين الشخصين نفسيهما ذهبا ليحاصرا منزل عبد الله بن الزبير فأرسل أخاه إليهم وطلب إعفاءه من المجيء إلى دار الخلافة. فقالوا له سنفعل بك ما نفعل وأهانوه وحذروه بأنه إن لم يأتِ فسوف يقتل، ولنفعلن بك كذا وكذا، عندها التمس (عبد الله بن الزبير) منهم العفو وقال لهم اسمحوا لي أن أرسل أخي معكم وآتي أنا غداً. فقالوا له حسناً وأمهلوه سواد تلك الليلة.

فانظروا كم هو الفرق بين عبد الله بن الزبير وبين الإمام الحسين عليه السلام مع أن عبد الله بن الزبير كان شخصية مهمة، عالية القدر. فالإمام الحسين عليه السلام لا يستطيع أحد أن يتجرأ عليه ويخاطبه بالطريقة التي خوطب بها ابن الزبير وذلك لعظمة وقوة شخصيته ولقدرته المعنوية. وخلال الطريق عندما جاء إلى مكة كان كل من يلتقي به عليه السلام ويحادثه يستخدم في كلامه عبارات مثل «جعلت فداك» بأبي أنت وأمي وخالي وعمي». فشخصية الإمام الحسين عليه السلام كان لها في المجتمع الإسلامي مثل هذه المرتبة من العلو والرفعة، وعبد الله بن معطي جاء عند الإمام الحسين في مكة وقال

لـه يا ابن رسول الله إن قتلت لنُستَرَقّنّ بعدك. هؤلاء الظالمون الموجودون في الحكومة سيتخذوننا أرقاء عندهم. أما اليوم فلا يستطيعون فعل ذلك لخوفهم منك، ولهيبتك ومكانتك. عظمة الإمام الحسين عليه السلام ومقامه في المجتمع كان بهذا المستوى.

دور الخواص في إراقة دم أبي عبد الله عليه السلام

الإمام الحسين بعظمته هذه كان يخضع أمامه ابن العباس وعبد الله بن جعفر وكذلك عبد الله بن الزبير مع أنه لم يكن يحب الإمام الحسين عليه السلام وكذلك بقية الخواص. فكل أولئك هم من خواص أهل الحق ولم يكونوا من أنصار بني أمية. منهم من الشيعة الذين قد بايعوا أمير المؤمنين عليه السلام ، لكن هؤلاء عندما أصبحوا في مواجهة ظلم الجهاز الحاكم ورأوا أن أرواحهم ستتعرض للخطر، كذلك سلامتهم وراحتهم ومناصبهم، انحرفوا عن الحق وحينها تبعهم العوام إلى الجهة التي توجهوا نحوها. أنظروا إلى أولئك الأشخاص الذين كتبوا من الكوفة ودعوا الإمام الحسين عليه السلام إليهم، ستجدون أن الذين أرسلوا الرسائل هم الخواص، من الطبقة التي تمثل الصفوة، والأشخاص اللامعين وستجدون كذلك أن عدد الرسائل كبير جداً، حيث وصلت من الكوفة المئات من الرسائل، وأكثر أولئك كانوا من الأعيان ومن أصحاب الأسماء المعروفة. لكن إذا نظرتم إلى مضامين تلك الرسائل تستطيعون أن تعرفوا هؤلاء الخواص - خواص الحق - من أي فئة كانوا. هؤلاء كانوا جاهزين أن يفدوا دنياهم بدينهم. ولأن أولئك كانوا كثر، وصلت النتيجة

في الكوفة إلى شهادة مسلم بن عقيل، ومن نفس الكوفة التي بايع منها ثمانية عشر ألف شخص مسلم بن عقيل تجمع عشرون ألفاً أو ثلاثون ألفاً أو أكثر، وفي الكوفة أيضاً، وتوجهوا إلى كربلاء لقتال الإمام الحسين عليه السلام ، فعندما يتحرك الخواص باتجاه معيّن يتبعهم العوام ويسيرون على خطاهم.

العوام يقتفون أثر الخواص

لا أعلم هل أن عظمة هذه الحقيقة التي تأخذ بعقول الأذكياء قد اتضحت لنا أم لا، فأنتم إذا نظرتم إلى الكوفة فإن ما جرى في الكوفة لا بد أنكم سمعتموه ـ ترون أن الذين كتبوا الرسائل أرسل الإمام عليه السلام إليهم مسلم بن عقيل وقال لهم هذا رسولي إليكم، وعندما يخبرني بأن الوضع أصبح مناسباً فسآتي إليكم بنفسي. حضر مسلم إلى الكوفة ونزل في بيوت أعيان الشيعة وكبارهم وقرأ لهم رسالة الإمام عليه السلام ، فجاء الناس جماعات جماعات وأظهروا الولاء والعزم. حينها كان والي الكوفة ـ النعمان بن البشير ـ وهو شخص ضعيف يردد بأنني لا أقاتل شخصاً طالما أنه لم يقاتلني، ولذا لم يعترض مسلم بن عقيل. الناس رأوا أن الساحة مفتوحة أمامهم ولا أحد يعترضهم، فذهبوا إلى مسلم بن عقيل وبايعوه، لكن اثنين أو ثلاثة من خواص الباطل الواقفين مع بني أمية كتبوا إلى يزيد: إذا كنت تريد أن تكون الكوفة مُلكاً لك فيجب أن ترسل إليها شخصاً قوياً قاهراً، فالنعمان ابن البشير لا يستطيع أن يقف في وجه مسلم بن عقيل ويواجهه. فطلب يزيد من عبيد الله بن زياد والي البصرة أن يتوجه إلى الكوفة ليحكمها مع حفظ منصبه الأول. فخرج عبيد الله بن زياد بشكل فردي من البصرة إلى الكوفة ملثّم الوجه ـ الآن في هذه

القضية يتضح دور الخواص. ووصلها ليلاً. أما أهل الكوفة الذين كانوا من بين فئات العوام غير القادرين على التحليل. فبمجرد أن رأوا شخصاً مع خيله وأغراضه فضلاً عن كونه ملثماً ظنوا أنه الإمام الحسين عليه السلام فذهبوا إليه وقالوا له بكل بساطة السلام عليك يا ابن رسول الله. هذه خاصية الشخص العامي حيث يتصرف بهذا الشكل، ولا ينتظر حتى يتحقق من هذا الشخص الذي أتى مع حصانه وأغراضه. ومن دون أن يتكلموا معه، فإن قال أحدهم هذا هو الإمام الحسين عليه السلام صار الجميع يقولون هذا هو الإمام الحسين عليه السلام وبناء على ذلك بدأوا بالسلام عليه وبإظهار الاحترام له. لكنه مع ذلك، لم يعتن بهم وتوجه نحو دار الخلافة وعرّف عن نفسه ودخل.

ومن هنا بدأت المواجهة مع مسلم بن عقيل حيث كان جوهر عمله هو أن يضع الموالين لمسلم بن عقيل تحت التعذيب والتهديد، فجلب ابن عروة إلى دار الخلافة بالغدر والمكر، ومن ثم قام بتعذيبه وجرحه، وعندما اجتمع الناس حول دار الخلافة حتى يطالبوا بإخراج هانىء بن عروة استطاع أن يفرقهم بالحيلة والمكر. وهنا يتبين دور خواص أهل الحق الذين قد عرفوا الحق دائماً وثاروا لأجله ولكنهم كانوا دائماً يرجّحون دنياهم، يتبين دورهم وكيف ساهموا في تفرقة الناس. فمسلم بن عقيل الذي بايعه عدد كبير من الناس حسبما أشار التاريخ، وذكر ذلك ابن الأثير في تاريخه. وباعتقادي اجتمع حول مسلم ثلاثون ألفاً وكان يكفيه وقوف ثلاثة أو أربعة آلاف رجل فقط معه في ذلك الزقاق الذي حوصر فيه حتى يغيّروا ما حصل في يوم التاسع من ذي الحجة. لكن العمل الذي قام به ابن زياد تمثّل بإرسال مجموعة من خواص أهل الحق بين الناس حتى يخيفوهم. ليخيفوا الأمهات والآباء. ويقولوا لهم مع أي

شخص تحاربون؟ ولم تقاتلون؟ إرجعوا هؤلاء سيقضون عليكم! هذا يزيد! وهذا ابن زياد! هؤلاء بنو أمية الذين تريدون أن تقاتلوهم يملكون المال كما يملكون السيف والسوط فما الذي يملكه مسلم بن عقيل والحسين عليه السلام؟!! وعلماً أنهم لا يملكون شيئاً، وبالرغم من ذلك أخافوا الناس وفرقوهم. وفي الليلة الأخيرة عندما حان وقت صلاة العشاء لم يكن أي شخص مع مسلم، وذهب ابن زياد إلى مسجد الكوفة ونادى في الناس أنه يجب أن يحضروا ليصلوا صلاة العشاء في المسجد بإمامته!.

يذكر التاريخ أن مسجد الكوفة غصّ بالجموع في تلك الليلة. لماذا وصل الأمر إلى هذا الوضع؟ أنا عندما أنظر إلى هذا الوضع أرى أن المشكلة كانت بسبب تقصير الخواص، فخواص جبهة أهل الحق مقصرون بل الجميع هم كذلك.

شريح القاضي وترجيح الدنيا على الدين

لقد قام بعض خواص الحق في نهاية حياتهم بأعمال سيئة أمثال شريح القاضي، فعلى الرغم من أنه لم يكن من مؤيدي بني أمية، وكان يعرف الحق مع من، بل كان على علم بمجرى الأوضاع، إلا أنه حينما اجتمع جنود وأفراد قبيلة هانىء بن عروة حول قصر عبيد الله بن زياد، الذي كان قد احتجز هانىء داخل السجن وقام بتعذيبه وجرحه، خاف وارتعب لأن جنود قبيلة هانىء وأفرادها حاضروا القصر وصاروا يقولون لبعضهم أن هانيء قد قتل. في هذه الأثناء طلب ابن زياد من شريح القاضي أن يذهب ليرى بنفسه أن هانىء ما زال حياً، ليقول لأهل قبيلته أن لا يقلقوا. وعندما ذهب شريح القاضي رأى أن هانيء فعلاً حيّ لكنه

مجروح من جراء التعذيب فخاطب هانيء شريحاً قائلاً له: أيها المسلمون ما هذا الوضع الذي حلّ بي؟ ما الذي حل بقومي؟! لِمَ لم يلحقوا بي؟ لِمَ لا يأتون لينقذوني مما أنا فيه؟ يذكر شريح بأنني كنت أريد أن أذهب لأنقل كلام هانيء إلى كل الأشخاص الذين كانوا قد اجتمعوا حول دار العمارة (قصر ابن زياد) ولكن للأسف فجاسوس عبيد الله كان قد وقف بالقرب من ذاك المكان فلم أتجرأ. لكن ما معنى «لم أتجرأ»، معناه هو ما نشير إليه، فترجيح الدنيا على الدين هو هذا!!

دور الخواص في تغير مصير التاريخ

لو قام شريح بهذا العمل الواحد لتبدّل التاريخ، أي لو أنه كان قد ذهب إلى الناس وقال لهم أن هانيء حي لكنه موجود داخل السجن، وأنّ عبيدالله بن زياد ينوي قتله. ولأن عبيدالله لم يكن قد امتلك القدرة فإن الناس الذين كانوا يتجمعون ويريدون إنقاذ هانيء. والذين بإنقاذه كانوا سيوجدون القدرة والروحية اللازمة. كان بإمكانهم أن يحيطوا بأطراف دار العمارة من كل صوب وأن يعتقلوا عبيد الله أو يقتلوه أو يبعدوه، فتصير الكوفة بيد الحسين عليه السلام، بل إن حادثة كربلاء أيضاً ما كانت لتحدث أصلاً، ولو أنها لم تقع لكان الإمام الحسين عليه السلام قد تسلم الحكومة، هذه الحكومة التي لو عاشت ستة أشهر فقط لجلبت للتاريخ بركات كثيرة، وكان بإمكانها أن تستمر وتدوم أكثر من ذلك. فالقيام بحركة واحدة في ذلك المكان المطلوب كانت ستنقذ التاريخ، بينما القيام بحركة غير مناسبة وناشئة من الخوف والضعف وطلب الدنيا والحرص على الحياة يؤدي أحياناً إلى إدخال التاريخ في كارثة وضلال. فلمَ لم يشهد شريح شهادة الحق حينما رأى هانيء بن

عروة بهذا الوضع؟! فدور الخواص كان ترجيحهم للدنيا على الدين. وإذا ما عدنا إلى داخل مدينة الكوفة، عندما أمر عبيد الله بن زياد رؤساء قبائل الكوفة قائلاً اذهبوا وفرقوا الناس من حول مسلم، وإن لم تذهبوا فالويل لكم. فلماذا وافقوه؟ أولئك الذين لم يكونوا من أتباع بني أمية ولم يأتوا من الشام، وبعضهم كان ممن كتب الرسائل إلى الإمام الحسين عليه السلام أمثال شعث بن الربيع، الذي كتب ودعا الإمام عليه السلام للقدوم، لكن تراه من بين الأشخاص الذين عندما قال لهم عبيد الله اذهبوا وفرقوا الناس من حوله، نراه أيضاً قد ذهب وفرق الناس من حول مسلم في كل ذلك بواسطة التخويف والتهديد والكذب وسائر هذه الأمور. فلماذا فعلوا هذا؟ ولو خاف أمثال شعث بن الربيع في اللحظة الحساسة من الله بدل أن يخافوا من ابن زياد لتغير التاريخ. لكنهم ذهبوا وفرقوا الناس. فلِمَ تفرّق هؤلاء الخواص المؤمنون بعد أن كانوا يلتفون حول مسلم؟ وأثر ذلك تفرق العوام عن مسلم أيضاً! صحيح أنه كان بين أولئك الخواص أشخاص واعون يمتلكون القوة، حتى أن بعضهم أتى لاحقاً واستشهد في كربلاء، لكنهم في ذلك الموقف أخطأوا في تفرقهم عن مسلم، وعلى كل حال فإن شهادتهم في كربلاء قد منحتهم كفارة عن اشتباههم ذلك ولن أبحث في أمرهم أو أذكر أسمائهم. أما أولئك الأشخاص فمن بينهم الذين لم يأتوا إلى كربلاء أيضاً، ولم يستطيعوا أن يحضروها، ولم يوفقوا لذلك، ولكنهم لاحقاً صاروا مجبورين على أن يكونوا في عداد التوابين، فأية فائدة ربحوها؟

الخسارة التي تنجم عن عدم اتخاذ الموقف اللازم

نسأل مجدداً أنه عندما قتل الإمام الحسين عليه السلام ، وفقد سبط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ووقعت الفاجعة، وتوجهت حركة التاريخ نحو المنحدر، فأية فائدة بقيت بعد ذلك؟ التاريخ يشير إلى مجموعة شهداء كربلاء وبالمقابل يذكر مجموعة التوابين كذلك. شهداء كربلاء قتلوا في أحد الأيام وكذلك التوابون قتلوا كلهم في يوم مماثل. لكن إن نظرتم إلى الأثر الذي خلفه التوابون في التاريخ ترونه لا يساوي واحداً بالألف من الأثر الذي خلفه شهداء كربلاء. والسبب يرجع إلى أنهم لم يرجعوا عن اشتباههم في الوقت المطلوب ولم يقوموا بالعمل في اللحظة المناسبة. تأخروا في التصميم وفي التشخيص. فيا أيهاالتوابون لم تركتم مسلم بن عقيل وحيداً؟ لقد عرفتم أنه ممثل الإمام وأنه كان قد جاء إليكم وأنتم بايعتموه كذلك وقبلتم به . وأنا الآن لا أوجه حديثي إلى العوام بل أقول هذا للخواص . فلِمَ تركتم مسلماً وحيداً في تلك الليلة فاضطر أن يلجأ عصر ذلك اليوم إلى بيت طوعة؟ فلو لم يترك الخواص مسلماً وحيداً وبقي معه مثلاً مئة رجل التفوا حوله وأخذوه إلى بيت أحدهم ودافعوا عنه! . ومسلم الوحيد، عندما أرادوا أن يعتقلوه لم يتمكنوا من ذلك إلا بعد عدة ساعات صدّ مسلم خلالها بمفرده عدة حملات . فلولا ناصره مئة رجل ضد أولئك الذين كانوا قد حملوا عليه، هل كانوا استطاعوا أن يأسروه؟

إذن الخواص هم المقصرون في الموقف حينما لم يذهبوا للالتفاف حول

مسلم، ولاحظوا أننا من حيثما انطلقنا من تحليلنا، نصل في النتيجة إلى مسؤولية الخواص عما جرى. إن تصميم الخواص في الوقت اللازم وتشخيصهم وإعراضهم عن الدنيا في الوقت اللازم وإقدامهم في سبيل الله كذلك هو الذي ينقذ التاريخ، ينقذ القيم ويحافظ عليها. ففي اللحظة المناسبة ينبغي القيام بالحركة المناسبة، أما إذا تركتم الفرصة تمر فلا فائدة من القيام والتحرك فيما بعد.

تغيير التاريخ بموقف الإمام عليه السلام المناسب

في عصر اليوم السابع عشر من بهمن في سنة ١٣٥٧هـ.ش. أعلنت الحكومة العسكرية منع التجول في طهران. عندها طلب الإمام الخميني من الناس النزول إلى الشوارع. ولو لم يصمم الإمام ويبقى على ذلك الموقف، لكان ما زال محمد رضا حتى يومنا هذا شاهاً وملكاً على هذه البلاد. ولكانوا جاؤوا أثناء وجود الناس في بيوتهم بسبب منع التجول، أولاً إلى الإمام عليه السلام وبعده إلى مدرسة الرفاه ومن ثم إلى بقية الأمكنة وقتلوا الجميع. وبعدها يقتلون خمسة عشر ألف شخصاً في طهران وتنتهي بذلك القضية. لكن الإمام اتخذ القرار اللازم في اللحظة المناسبة، ولو قام الخواص في تلك الأثناء «عهد الحسين عليه السلام» بما طلب منهم وحددوا ما ينبغي القيام به لأنقذوا التاريخ، وما كان ليقتل أمثال الحسين بن علي عليه السلام في معارك مشابهة لكربلاء. وعليه فإن الخواص ما لم يفهموا الموقف بشكل جيد وصحيح وفي الوقت المناسب، وما لم يتفقوا فيما بينهم فسوف تتكرر كربلاوات أخرى في التاريخ.

النصر لا يصبح بمتناول اليد دون عناء

لقد وعد الله تعالى الذي ينصره بالنصر، وعندما تتحرك مجموعة من الناس نحو هذا الوعد ستجد أمامها الشهادة والمتاعب والمصاعب، ولكنها ستجد أيضاً النصر ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾. فالله سبحانه وتعالى لا يقول إني أعطي النصرة حتى ولم يرق دم أي شخص، لا ليس هكذا، بل كما يقول في كتابه المحكم ﴿فيقتلون ويقتلون﴾ لكنهم مع ذلك ينالون النصر، فهذه سنّة إلهية.

أما في الوقت الذي نخاف فيه على دمنا، ونخاف فيه على أموالنا وعائلتنا وأحبائنا، ونخاف فيه على فقدان الراحة والتكسب، أو نريد منزلاً أزيدَ بغرفة من منزلنا السابق، فإننا بدافع الخوف على هذه الأشياء لن نتحرك وننهض. ومن الواضح حينها أنه لو أتى عشرات من أمثال الإمام الحسين عليه السلام ووقفوا في أول الطريق ليرشدونا، لسقطوا كلهم شهداء كما استشهد أمير المؤمنين والإمام الحسين عليهما السلام. وكل هذه الأمور مردها إلى الخواص! الخواص أيها الأعزاء! فانظروا أين أنتم من هذا الواقع! بالطبع أنتم من الخواص لكن كونوا منتبهين لما ذكرته. وتجدر الإشارة إلى أن ما ذكرته وفصّلته هو عبارة عن خلاصة هذا المطلب. وينبغي أن نوضح هذا المطلب من جهتين، الأولى وهي البعد التاريخي لهذا المطلب، ولو كان لدي الوقت لقمت بهذا البحث ولكن للأسف ليس لدي وقت يسمح بذلك. كما ينبغي البحث حول الحوادث المميزة في التاريخ، فنوضحها حتى نعلم أين كان ينبغي للخواص أن يتدخلوا ولم يفعلوا ذلك، ونعرف أسماءهم، ومن كانوا. الثانية هي العمل على تطبيق هذه الاستفادات والعبر في كل زمان وليس في زماننا فقط. ففي كل زمان ينبغي أن نعلم كيف يجب أن يتصرف الخواص وما

هـو التكليف الملقى على عـاتقـهـم. فـعندمـا ذكـرنـا أن على الخـواص ألاّ يكونوا أسـرى لـهذه الدنيـا، فـهذه مـجـرد عبـارة واحـدة. لكن كـيف لا يكونون كـذلـك، ومـا هـي الأمـثـلـة والمصـاديق؟ نـحن لم نـذكـر ذلك. وعلى كل حـال إعلموا يا أعزائي أن كل حـركـة تسـيـر في طريق الله لهـا مـعـارضـون ومخـالفون. فـهؤلاء الخـواص الذين تحـدثنـا عنهم إذا أراد شـخص منهم أن يقوم بعـمـل جـيد ومـفـيـد من المفـتـرض القـيـام به، فـمن الممكن أن يقف في وجهه أربعة من نفس الخواص ويستنكروا فعله.

هل أنت أيهـا السـيـد عـاطل عن الـعـمل أو مـجنون؟ أليس لديك زوجـة وأطفال؟

لِمَ تقـوم بهـذه الأعـمـال؟ كـمـا كـانوا يقـولون لنا أثنـاء مـواجـهـتنا للشـاه أنه يجب عليكم التوقف. لذا فمن لوازم جهـاد الخواص التصدي والوقوف في وجه هذه التهم والشتائم والإلقاءات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

3 عنصر الجهاد في حياة الأئمة عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأشكره، ففي هذا الجمع المبارك تتحقق إحدى الأمنيات القديمة المنسية وهي ذكر أهل البيت عليهم السلام .

إن غربة الأئمة عليهم السلام لم تقتصر على الفترة الزمنية التي عاشوها في حياتهم، ولكنها استمرت ولعصور متمادية من بعدهم، والسبب في ذلك يرجع إلى إهمال الجوانب المهمة بل والأساسية من حياتهم. من المؤكد أن هناك كتباً ومؤلفاتٍ كثيرة قد حَظِيت بمكانة رفيعة وقديرة وذلك لما حملته بين طياتها من روايات تصف حال الأئمة عليهم السلام ولما نقلته للأجيال المتعاقبة من أخبار تصف سيرتهم، ولكن عنصر المواجهة والجهاد المرير والذي يمثّل الخط الممتد للأئمة عليهم السلام طوال ٢٥٠ سنة من حياتهم كان قليل الذكر في هذه الروايات التي تضمّنت فقط عناوين أخرى كالجوانب العلمية أو المعنوية من سيرتهم.

يجب علينا أن ننظر إلى حياة الأئمة عليهم السلام كأسوة وقدوة نقتدي بها في حياتنا لا كمجرد ذكريات قيّمة وعظيمة حدثت في التاريخ. وهذا لا يتحقق إلا بالاهتمام والتركيز على المنهج والأسلوب السياسي من سيرة هؤلاء العظماء عليهم السلام .

أنا شخصياً عندي رغبة شديدة للاطلاع على هذا الجانب المهم من حياتهم. وأول مرة شعرت بأهمية هذه المسألة كان عام ١٣٥٠هـ.ش (١٩٧١م) وهي مراحل المحنة التي سبقت الثورة. ومع أنني قبل تلك الفترة كنت أنظر إلى الأئمة عليهم السلام بعنوان أنهم شخصيات مجاهدة ومكافحة لإعلاء كلمة التوحيد وإقامة الحكومة الإلهية. إلاّ أنّ النقطة المهمة التي

وصلت إليها في تلك الفترة هي أنه وعلى الرغم من الاختلاف الظاهري بين سيرهم عليهم السلام (حتى أن البعض ليشعر بالاختلاف الشاسع والتناقض فيها)، إلاّ أنها عبارة عن مسيرة واحدة وحياة واحدة استمرت ٢٥٠ سنة ابتداءً من سنة ١١هـ.ق. إلى ٢٦٠هـ. ق. أي انتهت بانتهاء عام الغيبة الصغرى للإمام الحجة عجل الله فرجه.

إذن فالأئمة عليهم السلام جميعهم عبارة عن شخصية واحدة لها هدف واحد، ولذلك فإننا وبدل أن ندرس حياة كل من الإمام الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام والسجّاد عليه السلام بصورة منفصلة عن الأخرى، أو حتى لا نقع في خطأ ما اعتقده الآخرون بوجود عنصر التناقض بين حياتهم عليهم السلام، فلندرس ذلك بصورة شمولية. فمن هذا المنظار تصبح كل حركات هذا الإنسان العظيم المعصوم تكون قابلة للفهم والإدراك.

إنّ أي إنسان يملك نوعاً من العقل والحكمة، ولا نقول يملك نوعاً من العصمة، تكون له خطط واختيارات موضوعية خاصة خلال حركته الطويلة المتابعة. وقد يجد هذا الإنسان أنه من الضروري أن يُسرِع في حركته مثلاً، وأحياناً أخرى يُبطىء فيها، وحتى من الممكن أن يتراجع تراجعاً حكيماً في مواضع أخرى. والإنسان العاقل والحكيم والعارف سيرى، بالنظر لهدف هذا الإنسان، في هذا التراجع، حركة نحو الأمام وتقدماً.

من هذا المنظار تعتبر حركة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والإمام المجتبى عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام والأئمة الثمانية المعصومين عليهم السلام من ولدهم حركة واحدة ومستمرة. فأنا ومن تلك السنة توصلت إلى هذه الحقيقة التي ذكرتها، وبهذه النظرة نظرت إلى حياتهم عليهم السلام وكلما تقدمت في مسيرتي هذه تأكدت عندي هذه النظرة والعقيدة.

وطبعاً لا يمكن أن نوسع الكلام في هذا الباب خلال هذا اللقاء القصير، ولكن يجب أن يُؤخذ بعين الاعتبار أن حياة هؤلاء المعصومين من عظماء آل

الرسول ﷺ هي حياة ذات طابع سياسي، ويجب أن يُخصص لهذا الجانب دراسة خاصة. وأنا اليوم سأتطرّق إلى هذا الجانب من خلال بحثنا هذا.

لقد تحدثت السنة الماضية عن النضال الكبير للإمام الرضا عليه السلام وأودّ اليوم أن أبيّن هذا الموضوع بالتفصيل. أولاً، ماذا نقصد عندما ننسب المواجهة السياسية أو النضال السياسي للأئمة عليهم السلام؟ إن المقصود من هذا الكلام أن جهاد الأئمة عليهم السلام لم يكن جهاداً علمياً من قبيل النزاعات التي تدور بين الكلاميين والتي نشاهدها عبر التاريخ، مثل النزاع بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. فلم يكن هدف الأئمة عليهم السلام من اجتماعاتهم العلمية وحلقات دروسهم والأحاديث نقل المعارف الإسلامية والأحكام فقط حتى يثبتوا مدرستهم الكلامية الفقهية، بل كان هدفهم يفوق هذا. وأيضاً لم تكن مواجهتهم مواجهة مسلحة كما كان في عهد زيد والذين جاؤوا من بعده، أو كما كان في عهد بني الحسن وبعض آل جعفر وغيرهم من الذين مرّوا في تاريخ الأئمة عليهم السلام. وأريد أن أشير إلى هذا موضوع الذي سأتطرّق إليه بصورة مفصلة فيما بعد وهو أن الأئمة عليهم السلام لم يستنكروا مواقف هؤلاء أو يحكموا على مثل هذه الحركات بالخطأ بصورة مطلقة، وحكمهم على البعض منها بالخطأ لم يكن بداعي كونها حركات مسلحة بل لأسباب أخرى مختلفة. فنجد مواقف الأئمة عليهم السلام أحياناً أخرى مؤيدة لهذه الحركات بل وحتى قد اشتركوا في بعضها بصورة غير مباشرة عن طريق المساعدات التي كانوا يقدمونها للثورة. ومن الجدير الالتفات إلى حديث الإمام الصادق عليه السلام الذي يقول **«لوددت ان الخارجي يخرج من آل محمد ﷺ وعليّ نفقة عياله»**. إلاّ أن الأئمة عليهم السلام لم يخوضوا مثل هذه الثورات المسلحة ولم يشتركوا فيها بشكل مباشر.

إن مواجهة الأئمة عليهم السلام كانت مواجهة ذات هدف سياسي . فما هو هذا الهدف إذن؟ الهدف هو عبارة عن تشكيل حكومة إسلامية، وبحسب تعبيرنا حكومة علوية. فكان سعي الأئمة عليهم السلام ومنذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحتى عام ٢٦٠هـ. هو إيجاد وتأسيس حكومة إلهية في المجتمع. ولا نستطيع أن نقول إن كلّ إمام كان بصدد تأسيس حكومة في زمانه وعصره، ولكن هدف كل إمام كان يتضمن تأسيس حكومة إسلامية مستقبلية وقد يكون المستقبل البعيد أو القريب. مثلاً كان هدف الإمام المجتبى عليه السلام تأسيس حكومة إسلامية لمستقبل قريب، فقوله عليه السلام : **«ما ندري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين»** في جوابه للسيب ابن نجيه ولآخرين عندما سألوه عن سبب سكوته هو خير دليل وإشارة إلى هذا المستقبل. وأما الإمام السجاد عليه السلام ، وحسب اعتقادي، كان يهدف لتأسيس الحكومة الإسلامية في المستقبل الآتي من بعده وفي هذا المجال لدينا شواهد سنذكرها فيما بعد. أما الإمام الباقر عليه السلام فقد سعى من أجل تأسيس حكومة إسلامية لمستقبل قريب منه، وفيما بعد الإمام الثامن عليه السلام كان كل إمام يهدف من تحركاته تأسيس الحكومة على المدى البعيد.

إذن هدف تأسيس الحكومة كان دائماً نصب أعين الأئمة عليهم السلام ، لكن الزمن المنشود لتأسيسها وقيامها يختلف من إمام إلى آخر. إن كل الأعمال التي كان يقوم بها الأئمة عليهم السلام، بغض النظر عن الأمور المعنوية والروحية التي تهدف إلى تكامل ورقي النفس الإنسانية وقربها إلى الله تعالى، كانت أعمالاً تهدف إلى تأسيس هذه الحكومة الإسلامية. فنشاطاتهم في نشر العلم والمناظرات التي كانوا يقومون بها ضد خصومهم في العلم والسياسة ومواقفهم إلى جانب جماعة ووقوفهم في وجه أخرى كلها تصب في هذا المجال ألا وهو تأسيس الحكومة الإسلامية.

إذن فنحن ندعي أن كل هذه الأمور كانت تأخذ منحى واحداً وتهدف إلى تأسيس الحكومة الإسلامية. وأقول ندعي لأنه، وكما قال السيد الطبسي، قد اختلف العلماء وسيختلفون في تفسيرهم لمواقف الأئمة عليهم السلام . وأنا شخصياً لا أصرّ على صحة اعتقادي واستنباطي للأمور ولكن أصرّ على أن هذه المواقف هي محطة يجب أن نتوقف عندها ونبدأ منها لنستطيع أن نراجع تاريخ حياة الأئمة عليهم السلام .

خلال السنين الأخيرة سعينا للوصول إلى إدراك مدى علاقة هذا الموضوع تأسيس الحكومة الإسلامية بالأئمة عليهم السلام ومدى ارتباطه بكل إمام عليه السلام منهم محاولين الاعتماد في ذلك على أدلة مسندة، إضافة إلى أن هناك أدلة تعتبر أدلة كلية وعامة. فمثلاً إن إمامة الأمة هي النبوة، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إماماً للأمة.. إلخ كما جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام .

إذن فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم نهض من أجل تأسيس حكومة حقة عادلة حيث بُنيَ النظام الإسلامي وتأسس آنذاك نتيجة نضال وجهاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . ومن بعدها جاهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً من أجل الحفاظ على هذا النظام واستمراره، ولا يُعقل بأن يغفل الإمام الذي يأتي من أجل متابعة مسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن مثل هذا الموضوع المهم. إذن فهذا دليل عام. وبالطبع البحث الواسع والالتفات إلى النواحي المختلفة لهذا الدليل يجعلنا نفهمه أكثر كذلك لدينا أدلة صادرة ونابعة من كلامهم عليهم السلام أو مستنبطة من حياتهم عليهم السلام العملية، إضافة إلى الظروف والأوضاع التي كانت حينها والتي تستطيع أن تبين لنا مواقف الأئمة، كأن نفهم ما تقصده هذه العبارات **«السلام على المعذب في قعر السجون وظلم المطامير ذي الساق المرضوض بحلق القيود»**.

حول هذا الاتجاه سنتكلم اليوم، كما أريد أن أطرح بعض الاستنتاجات وما أفهمه في خصوص هذا الموضوع خلال اجتماعنا هذا.

إن المطلع على تاريخ الحركة العباسية في الفترة الزمنية من ١٠٠هـ إلى ١٣٢هـ ش بداية الحكم العباسي لربما يشبّه الحركة الجهادية والسياسية للأئمة عليهم السلام بمثل الحركة التي قام بها بنو العباس، ولكننا نقول إن هذا التشبيه غير دقيق، لأنه ربما تشابه شكل الجهاد وخطته لكن توجد فوارق جوهرية بين الحركتين: مثلاً هدف ومنهج بني العباس يختلف جوهرياً عن هدف ومنهج الأئمة عليهم السلام ، وكذلك الاختلاف الجوهري يُلاحظ في الشخصيات المجاهدة. فنجد بني العباس تقارب دعوتهم وإعلامهم وأعمالهم دعوة وإعلام آل علي عليهم السلام ، فنجدهم يوحون في أعمالهم في بعض المناطق كالعراق والحجاز أنهم على خط آل علي عليهم السلام ، فمثلاً نسبوا سبب ارتدائهم الأسود الذي اتخذوه شعاراً في بداية دعوتهم في خراسان إلى الحزن على آل علي عليهم السلام وما جرى في كربلاء وعلى زيد ويحيى، حيث كانوا يقولون «هذا السواد حداد آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشهداء كربلاء وزيد ويحيى» وحيث كان يخيل للبعض وحتى لرؤسائهم بأنهم يعملون لآل على عليهم السلام ، إلاّ أن الواقع لم يكن كذلك. إذن هناك ثلاثة فروق رئيسية بين الحركتين وهي: اختلاف الهدف واختلاف الوسيلة واختلاف الأشخاص.

الآن سوف أتطرق إلى الشكل العام لجهاد ونضال الأئمة عليهم السلام ، ومن ثم أشير إلى أبرز الجوانب الجهادية في حياتهم عليهم السلام . إلاّ أن ذكر هذه الجوانب سأطوي الحديث عنها عند كلٍ من الإمام علي عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام ، لأنه جرت بحوث عديدة ووافية في هذا المجال ولا أعتقد بأن هناك أية شبهة تحيط هذا المجال في حياتهم.

سوف نبدأ حديثنا من زمن الإمام السجاد عليه السلام إلى عصر غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه هي الفترة التي تمتد من (٦١) هـ إلى (٢٦٠هـ)، يعني خلال مئتي سنة. هذه الفترة الزمنية تتضمن ثلاثة مراحل:

١ ـ **المرحلة الأولى:** من سنة ٦١هـ إلى سنة ١٣٥هـ (بداية حكم المنصور العباسي) مع بداية هذه الفترة الزمنية تبدأ الحركة الجهادية من نقطة ثم تأخذ عمقاً وشمولاً لتصل إلى أوجها في سنة ١٣٥هـ وهي السنة التي مات فيها السفاح واستلم الخلافة المنصور العباسي. حيث تغيّر الوضع وظهرت بعض المشاكل التي أدت إلى الحد من التطورات التي كانت آخذة في مسيرتها آنذاك. وقد شاهدنا مثل هذه الأمور والظروف خلال قيامنا وثورتنا وجهادنا.

٢ ـ **المرحلة الثانية:** تبدأ من سنة ١٣٥هـ إلى سنة ٢٠٣ هـ أو إلى ٢٠٢هـ أي سنة شهادة الإمام الرضا عليه السلام: ففي هذه المرحلة وصلت المواجهة الجهادية إلى مرحلة أعمق وأوسع مما كانت عليه في سنة ٦١هـ. ولكنها تبدأ بمشكلات جديدة وتتوسع حتى تصل إلى أوجها متقدمة خطوات تجاه مرحلة النصر، حتى سنة شهادة الإمام الرضا عليه السلام حيث عادت لتتوقف عندها.

٣ ـ **المرحلة الثالثة:** تبدأ من سنة ٢٠٤هـ إلى سنة ٢٦٠هـ. السنة التي استشهد فيها الإمام العسكري عليه السلام وبدأت الغيبة الصغرى: تبدأ المرحلة الثالثة بذهاب المأمون إلى بغداد سنة ٢٠٤ هـ، وفي بداية خلافته يبدأ فصل جديد في حياة الأئمة عليهم السلام، ويبدأ عصر المحنة للأئمة عليهم السلام. ومع أن التشيع كان في وضع أفضل مما كان عليه في السابق، فقد أخذت مشكلات الأئمة تتفاقم وتتّسع. وبرأيي إن هذه الفترة هي الفترة التي كان الجهاد والمواجهة فيها من أجل تأسيس حكومة إسلامية على المدى البعيد. يعني أن الأئمة عليهم السلام لم يكن جهادهم من أجل عصر ما قبل الغيبة وإنما إلى ما بعد الغيبة.

إن لكل مرحلة من هذه المراحل الثلاثة مميزاتها الخاصة وسأذكرها بصورة مختصرة:

١ ـ **المرحلة الأولى** هي مرحلة الإمام السجّاد عليه السلام والإمام

الباقر عليه السلام وقسم من عصر الإمام الصادق عليه السلام . فبداية هذه المرحلة كانت مؤلمة جداً حيث جرت حادثة كربلاء، التي لم تهز كيان الشيعة فقط وإنما هزّت الأمة الإسلامية بأجمعها. ومع أن القتل والأسر والتعذيب كان شائعاً آنذاك ولكن قتل أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأسر العائلة النبوية ووضع رؤوس آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الرماح والاستهانة بمن كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقبل ثناياه، كل هذا قد زلزل العالم الإسلامي وأدهشه. فلم يكن أحد يتوقع بأن الأمر سوف يصل إلى هذه المرحلة. ولا أدري مدى صحة الشعر المنسوب للسيدة زينب عليها السلام :

ما توهمت يا شقيق فؤادي كان هذا مقدّراً مكتوبا

فهذا البيت يشير بلا شك إلى أنّ هذا الحدث كان غير متوقع آنذاك. فلهذا أخذ الهول والفزع ينتاب الأمة الإسلامية حيث شاهدت ورأت ما لم تكن تتوقعه وتظنه من التنكيل والتعذيب.

لذا انتشر الخوف في كافة المناطق الإسلامية إلا الكوفة (وهذا بفضل التوابين والمختار وثورتهم). أما المدينة وحتى مكة المكرمة فعاشت حالة الخوف هذه بسبب حادثة كربلاء المفجعة وعلى الرغم من قيام ثورة عبد الله بن الزبير في مكة ظل الخوف يهدد هذه المدينة.

وأيضاً في الكوفة، وبالرغم من قيام ثورة التوابين في سنة ٦٤ و ٦٥هـ. (حيث كانت شهادة التوابين سنة ٦٥هـ) ما أوجدته من جو «جديد» في البلاد، فإن ذلك لم يدم طويلاً حتى عاد الخوف ثانية بعدما استشهد كل التوابين حتى آخر شخص منهم.

بعد ذلك قاتل أعداء النظام الأموي بعضهم البعض فهذا المختار حارب مصعب بن الزبير ولم يستطع عبد الله بن الزبير أن يتحمل المختار الموالي لأهل البيت عليهم السلام في الكوفة ولذلك قُتِل المختار على يد المصعب ومرّة أخرى عمّ الرعب والفزع وخابت الآمال عند الناس. وعندها جاء عبد الملك بن مروان وتسلّم سدة الحكم وبعد مدة قصيرة أصبح تمام العالم الإسلامي

تحت سيطرة بني أمية وبقي عبد الملك بن مروان متسلطاً وفارضاً سلطته لمدة ٢١ سنة. وهنا من الضروري الإشارة إلى واقعة (الحرة) التي جرت في سنة ٦٤هـ وهي السنة التي هجم فيها مسلم بن عقبة على المدينة مما أدى إلى زيادة الخوف والرعب في المدينة. واشتدت الغربة على أهل البيت عليهم السلام آنذاك والحادثة هي كما يلي:

في سنة ٦٢هـ عيّن يزيد أحد قواد الجيش الشباب حاكماً على المدينة، وكان شاباً فاقداً للتجربة، وقد دعا بعضاً من أهل المدينة لزيارة يزيد لعلّه يستطيع أن يحسّن علاقتهم به (يزيد). وهيأ يزيد جوائزاً تناهز الـ ٥٠ ألف و ١٠٠ ألف درهماً وأعطاها لهم. ولكن هؤلاء، وحيث كان من بينهم الصحابة، وأبناء الصحابة عندما شاهدوا جاه ومقام يزيد اشتد استياءهم وغضبهم وعندما رجعوا إلى المدينة أعلن ابن عبد الله بن حنظلة (غسيل الملائكة) فصل المدينة عن الحكومة المركزية آنذاك. فأرسل يزيد مسلم بن عقبة لمواجهة الوضع، فحصلت الكارثة العظيمة والتي تحدثت عنها كتب التاريخ وخصصت لها فصول تحكي الحوادث الدامية والكوارث المؤلمة التي حدثت آنذاك. هذه الحادثة أدت إلى زيادة الرعب والفزع بين الناس.

والعامل الثاني الذي زاد الرعب والفزع المنتشرين هو الانحطاط الفكري الذي كان يعمّ النّاس في العالم الإسلامي، وهذا كان نتيجة للابتعاد عن التعاليم الدينية خلال عشرين سنة. ولشدّة ضعف التعاليم الدينية والإيمان والابتعاد عن الحقائق وتفسير القرآن عن لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خلال العشرين سنة التي تلت عام ٤٠هـ ضعُف أساس الإيمان عند الناس وعمّ الخواء العقائدي في نفوسهم. فإذا وضع الإنسان حياة الناس في تلك الفترة تحت المجهر يجد ما ذكرناه واضحاً ويجده أيضاً من خلال قراءة التاريخ والروايات العديدة.

طبعاً كان للمجتمع آنذاك علماء وقرّاء ومحدثين وسنذكر ما يتعلق بهم

فيما بعد. ولكن عامة الناس كانوا يعانون من الاختلال العقائدي والضعف الإيماني. وقد وصل الوضع إلى أن بعض وجوه الخلافة قد ضعّفوا من منزلة النبوة. وقد ذكر في الكتب أن خالداً بن عبد الله القسري أحد علماء بني أمية كان يفضل الخلافة على النبوة حيث كان يقول: أن الخلافة أرفع من النبوة وكان يستدل بقوله: «أيهما أفضل خليفة الرجل في أهله أو رسوله إلى أصحابه؟ وهل خليفتكم بين أهلكم أقرب إليكم أو رسولكم إليهم؟ طبعاً إن خليفتكم أقرب إليكم من الرسول. إذن خليفة الله أرفع من الرسول» حيث كان يقول خليفة الله ولم يقل خليفة رسول الله. وأيضاً إذا لاحظنا شعر شعراء الفترة الأموية وبني العباس نجد أنه ومن عهد خلافة عبد الملك استُعملت كلمة خليفة الله حيث كُرِرَت في الأشعار آنذاك. بحيث قد ينسى الإنسان بأن هناك خليفة لرسول ﷺ. واستمر استعمال وذكر هذا اللفظ إلى زمان بني العباس وقد هجا الشاعر بشّار بن برد يعقوب بن داوود والمنصور بهذا التعبير

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا   خليفة الله بين الرق والعدد

فنلاحظ أنهم عندما يريدون هجاء الخليفة يقولون خليفة الله. وقد تكرر هذا اللفظ في أشعار عدد من الشعراء المعروفين مثل الجرير والفرزدق ونصيب، والمئات من عظماء شعراء ذاك الزمان. حيث كانوا يذكرون كلمة خليفة الله في مدائحهم للخلفاء آنذاك.

هذا نموذج من بعض العقائد التي كانت لدى الناس ومستوى إيمانهم. ولم يضعف أساس الإيمان في نفوسهم وحسب بل انهارت عندهم القيم الأخلاقية. ومن خلال مطالعتي لكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وجدت أنه وفي حدود سنة ٨٠ ـ ٩٠هـ وإلى ما بعد ٥٠ ـ ٦٠ سنة كان أعظم المطربين والعازفين والمترفين وعبيد الدنيا يتواجدون في مكة والمدينة، وكلما رغب الخليفة في الشام بسماع الغناء والعزف أو طلب مغنياً أو عازفاً يبعثون له بهم من مكة والمدينة حيث كان مركز الغناء والطرب. فأسوأ أنواع الشعر

وأكثره مجوناً كان في هاتين المدينتين اللتين كانتا مهبط الوحي ومسقط رأس الإسلام، واللتين تحولتا إلى مركز للفساد والمجون. ومن المفيد أن نعرف هذه الحقائق المؤلمة والمرة لأن التاريخ والكتب التاريخية المتوفرة بين أيدينا فاقدة لمثل هذه الأخبار والحقائق.

لقد كان في مكة شاعر معروف بعمر بن أبي ربيعة حيث كان يعتبر من شعراء الشعر الخلاعي الفارغ. حيث شهد التاريخ وشهدت المشاهد المقدسة كالطواف ورمي الجمرات وغيرها من المشاهد الأخرى عبثه ودناءته في الشعر حيث قال مرة:

بدا لي منها معصم حيث جمرت ... وكف خضيب زُينت ببنان

فوالله ما أدري وإن كنت داريا ... بسبع رمين الجمر أم بثمان

فالمعنى يبين تلك الأوضاع. وعندما مات عمر بن أبي ربيعة يُروى بأنه عم العزاء في المدينة وكان الناس يبكون في أزقة المدينة وشوارعها، وأينما ذهبت تجد مجموعة من الشباب يبكون تأسفاً عليه. ويقول الراوي رأيت جارية ماضية في طلب حاجة وهي في طريقها كانت تسكب الدموع من عينيها حتى وصلت إلى مجموعة من الشباب سألوها عن سبب بكائها وذرفها للدموع أجابت أبكي لأننا فقدنا عمربن أبي ربيعة. فقال أحد الشباب إهدأي ولا تحزني يُقال إن هناك شاعر آخر في مكة وهو الحارث بن خالد المخزومي يقول الشعر ويرويه مثل عمر بن أبي ربيعة وقرأ لها أحد أشعاره وعندما سمعت الجارية بهذا الخبر مسحت دموعها وقالت «الحمد لله الذي لم يخل حرمه»! فهذا كان الوضع الأخلاقي في المدينة، حيث تسمعون الكثير من هذه القصص. سهرات مكة والمدينة لم تقتصر على الطبقة الفاسدة في المجتمع بل كانت تعمّ كل الناس كالجائع والفقير والمسكين مثل «أشعب»، هذا الشاعر والمهرج المعروف وغيره من عامة الناس وساداتهم من قريش، وهذه الظاهرة عمّت أيضاً بني هاشم ولا أحب أن أذكر أسماءهم، إذن وجهاء قريش من الرجال والنساء غرقوا في الفحشاء الذي

عم المنطقة آنذاك.

يروى أن الحارث بن خالد كان يعشق عائشة بنت طلحة، ففي زمن إمارة الحارث كانت عائشة بنت طلحة في حالة طواف بيت الله الحرام وحان وقت الأذان فأمرت هذه المرأة أن لا يؤذن المؤذن إلا بعد انتهائها من الطواف، فأمر الحارث بتأخير وقت الأذان، فاعترض الناس وانتقدوا الحارث لتأخيره وقت الصلاة لأجل شخص واحد فقال مجيباً: «فوالله لو طال طوافها إلى صباح الغد لأمرت بتأخير الأذان حتى الصباح»، هكذا كان وضع الفساد الفكري والأخلاقي السائد بين الناس.

العامل الآخر هو الفساد السياسي. فما ذكرنا كان وضع كبار الشخصيات الذين تشبثوا بفضلات الحياة المادية لرجال الحكومة آنذاك. وأمثال هؤلاء محمد بن شهاب الزهري، فهذه الشخصية كانت تعتبر من العظماء ومن تلامذة الإمام السجاد عليه السلام فالإمام عليه السلام استطاع أن يفضح حقيقة هؤلاء من خلال رسالة كتبها لتكون حجة للتاريخ وتبين العلائق المادية التي كانوا يتمسكون بها.

وهناك الكثير من أمثال محمد بن شهاب حيث نقل العلامة المجلسي عن بن أبي الحديد ما يثير ويهزّ المشاعر. فقد نقل في البحار عن جابر أن الإمام السجاد عليه السلام قال: **«ما تدري كيف نتق بالناس، إن حدّثناهم بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضحكوا** (فإنهم لا يكتفون بالرفض وإنما يضحكون استهزاءً)، **وإن سكتنا لا يسعنا»**. ومن ثم يذكر ابن أبي الحديد أسماء عدد من الشخصيات ورجال ذلك الزمان من الذين كانوا من اتباع أهل البيت عليهم السلام ثم انحرفوا فيما بعد. وبعدها ينقل رواية عن الإمام السجاد عليه السلام: **«ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبوننا»**. هكذا كان الوضع في زمن الإمام السجاد عليه السلام. وفي ظل هذه الظروف بدأ الإمام عليه السلام بعمله وبتحقيق هدفه العظيم، وهو ذات الوقت الذي أشار فيه الإمام الصادق عليه السلام قائلاً «ارتدّ

الناس بعد الحسين عليه السلام إلا ثلاثة، وهم: أبو خالد الكابلي ويحيى ابن أم طويل وجبير بن مطعم».

في ظل ذاك الوضع وعلى هذه الأرض الصحراوية بدأ الإمام السجاد عليه السلام بعمله. فماذا يجب على الإمام السجاد عليه السلام فعله ليحقق هدفه؟ كانت تقع على عاتق الإمام السجاد ثلاثة مسؤوليات:

أولاً: يجب على الإمام عليه السلام أن يُعرِّف الناس على العلوم والمعارف الإسلامية التي لا يمكن بدونها أن نقيم حكومة إسلامية. فعندما نعمل على تعريف الناس على المعارف الدينية يصح أن نأمل بإقامة مثل تلك الحكومة.

ثانياً: أن مسألة الإمامة كانت قد ابتعدت عن أذهان الناس لذا كان من الضروري توضيحها لهم لتقبّلها أذهانهم. فماذا تعني الإمامة؟ وما هي شروط الإمامة؟ إن توضيح هذا الأمر ضروري لأن الناس آنذاك كانوا يرون في عبد الملك بن مروان إماماً، حيث كان زعيم المجتمع.

وسأذكر لاحقاً وفي بحث (الإمام) أن استنباطنا وفهمنا لمعنى الإمام خلال القرون الأخيرة يختلف تماماً عن معنى ومفهوم الإمام الذي كان سائداً في صدر الإسلام وكما هو سائد الآن في ظل الجمهورية الإسلامية في إيران. ففي ذلك الزمان (صدر الإسلام) كان كلا الموافقين والمخالفين للأئمة عليهم السلام يقولون في الإمام أنه قائد الأمة يعني حاكم الدين والدنيا، بينما لم يُفهم موقع الإمام كذلك خلال القرون الثلاثة الأخيرة، فقد كان حينها للمجتمع وللأمة فرد مسؤول عن جباية الأموال والحروب وتأمين الاستقرار وإدارة أمور الشعب ودوائر ومؤسسات الدولة وهو الذي يشكل الحكومة ويدعى بالحاكم، وأيضاً لها (أي للأمة) شخص آخر يحل ويفصل في أمور الناس الدينية ويصحح عقائد الشعب ويعلمهم دينهم وصلاتهم وغيرها من قبيل هذه الأمور وهو ما يسمى بالعالِم، وأصبح الإمام بمثابة العالم في المراحل القريبة. فالخليفة هو الذي يفصل بين الناس والإمام هو

الذي يصلح دينهم وأخلاقهم. هكذا كان فهم الإمامة خلال القرون الأخيرة. ولكن هذا المعنى كان يختلف عن معناه خلال فترة صدر الإسلام، فكان الإمام يعني قائد الأمة وزعيمها الديني والدنيوي، فبنو أمية ادعوا هذا المنصب وكذلك من بعدهم بنو العباس. حيث كانوا يدّعون أن الإمامة لهم.

إذن فالأمة وفي زمن الإمام السجاد عليه السلام كان لها إمام وهو عبد الملك بن مروان، لذلك كان على الإمام السجّاد عليه السلام آنذاك أن يُبيّن للناس معنى الإمامة وشروطها وجهتها، وما هي الأمور المفروض توفرها في الإمام وما هي الأمور التي بفقدانها لا يمكن أن يكون الشخص إماماً.

ثالثاً: الذي يجب أن يفعله الإمام عليه السلام هو أن يعلن نفسه إماماً للأمة. وقد انصب جهد الإمام وعمله على الأمر الأول لأن الظروف لم تكن تسمح لإعلان الإمام السجاد عليه السلام إمامته. كان يجب أن يُصلح دين الأمة ويجب أن تُهذَّب أخلاق الناس ويجب أن يُخلِّص الشعب من الفساد الذي كان سائداً آنذاك ويجب أن تُوجّه الأمة معنوياً ليرجع أساس الدين إلى الأمة والمجتمع. ولذا ترون أن أكثر الكلام المنقول عن الإمام السجاد عليه السلام في الزهد. وحتى في بداية كلامه وخطبه التي تتضمن معنى سياسياً نجده يبدأها بالكلام حول الزهد. حيث يقول عليه السلام **«إن علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين عنها في الآخرة... إلخ»**. وفي كلام آخر يصف الدنيا قائلاً **«أولا حر يدع هذه اللماظة لأهلها فليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة الا فلا تبيعوها بغيرها»**.

كلمات الإمام عليه السلام كلها كانت تحمل بين طياتها الزهد والمعارف الإسلامية وكان يطرح المعارف الإسلامية يبيّنها من خلال الدعاء، وذلك لأن الظروف الصعبة والاختناق الذي كان مسيطراً على الشعب لم يكن يسمح للإمام السجاد عليه السلام أن يتكلم ويطرح آراءه بصورة

صريحة وواضحة ـ فليست السلطة وحدها كانت مانعة له وإنما الناس أنفسهم كانوا يرفضون هذا. المجتمع كان قد أصبح مجتمعاً ضائعاً وكان من الواجب إصلاحه.

من عام ٦١هـ إلى ٩٥ هـ كانت حياة الإمام السجاد عليه السلام على ما ذكرنا، وكلما كان يمضي الوقت كان الوضع يتحسن، حتى قال الإمام الصادق عليه السلام، كما ذكرناه سابقاً، «**ارتدّ الناس بعد الحسين...**» إلى أن قال «**ثم أن الناس لحقوا وكثروا**».

وفي زمن الإمام الباقر كان الوضع قد تحسن عما كان عليه في زمن السجاد عليه السلام وهذا بفضل سعي الإمام السجاد خلال ٣٥ سنة.

كذلك نجد أن الإمام السجاد عليه السلام قد ذكر مسألة بناء الكوادر وتهيئتها خلال كلامه وأحاديثه. ففي الكتاب الشريف (تحف العقول) نُقل حديث طويل عن الإمام السجاد عليه السلام حول هذا الموضوع. أني آسف لأنني لم أستطع أن أبحث في بقية الكتب الأخرى حول الكلام الذي نقل عن الإمام عليه السلام وذلك لضيق الوقت، ولكني لا أعتقد أن هناك ذكر لغير هذا الحديث أو بمقدار طوله، نعم توجد كلمات قصار عنه أما أحاديث وخطب طويلة فلا أعتقد بوجودها، إلا التي نقلت في كتاب «تحف العقول».

إن مضمون الأحاديث وطريقة الخطاب (في هذا الكتاب) تبين ما كان يقصده ويفعله الإمام السجاد عليه السلام. وسنرى من خلال هذه الأحاديث الثلاثة التي سأذكرها أن الإمام السجاد عليه السلام عندما كان يخاطب عامة الناس كان يبدأ بعبارة: «**يا أيها الناس**» ومن خلال حديثه كان يشير إلى جُملة من العلوم والمعارف الإسلامية (فقد ذكر فيها موت الإنسان والسؤال في القبر وعن الرب والإمام) في هذا الخطاب نوع من الرفق والرقة وهو يناسب عوام الناس المراد تبليغهم آنذاك. هناك حديث آخر يبدأ بنوع آخر من الألفاظ ويُفهَم من مضمونه أن

الخواص هم المقصودون فيه حيث بدأه عليه السلام بـ **«كفانا الله وإياكم كيد الظالمين وبغي الحاسدين وبطش الجبارين لا يفتتكم الطواغيت»**، فلا يخاطب الحديث هنا عامة الناس وإنما فئة خاصة من الناس. وهناك نوع ثالث يبين أن المقصودين به هم خاصة الخواص من الناس وزبدتهم ويمكن أن يكون المخاطبين هم الأصحاب المطلعين على أسرار الإمامة وهدف مساعي الإمام عليه السلام آنذاك ومن زمرة المحافظين على أسرار الإمامة. حيث يبدأ الخطاب بهذه الألفاظ: **«إن علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة تركهم كل خليط وخليل ورفضهم كل صاحب لا يريد ما يريدون»**. ويمكن أن نحتمل ونقدر أن الإمام السجاد عليه السلام وخلال هذه المدة كان له نوعين أو ثلاثة أنواع من الأحاديث التي تتضمن قيماً وتعاليم إسلامية، ففي بعضها أشار إلى النظام الحاكم وطواغيت ذلك الزمان، وفي بعضها الآخر اكتفى بالإشارة إلى المسائل والمفاهيم الإسلامية. هكذا كانت حياة الإمام السجاد عليه السلام حيث استطاع، وخلال ٣٥ سنة، أن يخلّص ويُنجي الناس الجهلة من براثن شهواتهم من جانب، ومن تسلط النظام الحاكم المتجبر وشِباك علماء السوء وعملاء البلاط الحاكم من جانب آخر. واستطاع كذلك أن يوجد ثلة مؤمنة وصالحة تصلح لأن تكون قاعدة وأساساً للعمل في المستقبل. وطبعاً الجزئيات المتعلقة بحياة الإمام السجاد عليه السلام تحتاج إلى حديث يطول.

الآن يأتي دور الإمام الباقر عليه السلام ، حيث نجد في عهد الإمام الباقر عليه السلام الاستمرار على هذا الخط والمنهج، ولكن الوضع في زمن الإمام الباقر عليه السلام كان قد تحسّن، وهنا أيضاً كان التركيز على المعارف الإسلامية وعلومها.

أولاً، الناس في هذا العصر لم يعودوا متّصفين بعدم الاكتراث وعدم الولاء لأهل البيت عليهم السلام كما كانوا عليه. فعندما كان يدخل الإمام الباقر عليه السلام إلى المسجد كان الناس يجلسون حوله ويحيطون به

ليستفيدوا منه. ويروي الراوي قائلاً «رأيت الإمام الباقر عليه السلام في مسجد المدينة وحوله أهل خراسان وغيرهم» يعني يحيط به أناس من أقصى البلاد كخراسان ومناطق أخرى. وهذا يدل أن أمواج التبليغ كانت قد عمّت العالم بأجمعه، وأصبحت قلوب الناس ومن أقصى العالم تقترب من أهل البيت عليهم السلام . وفي رواية أخرى ذكر «احتوته أهل خراسان» يعني جلسوا حوله وأحاطوه، وكان الإمام الباقر عليه السلام يعلمهم مسائل الحلال والحرام حيث كان كبار العلماء يأتون إليه ويتلقون علومهم عنده. ومن بينهم عكرمة، الذي يعتبر شخصية معروفة ومن تلامذة ابن عباس. فعندما أتى إلى الإمام الباقر عليه السلام ليستمع إلى أحاديثه (ولربما كان يريد اختبار الإمام عليه السلام) أصابته رجفة وسقط في حضن الإمام عليه السلام وقال: «يا ابن رسول الله أصابني أمامك ما لم يصبني من قبل أمام أحد من الناس» فأجابه الإمام عليه السلام قائلاً: **«ويحك يا عبيد أهل الشام إنك بين يدي بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه»**. وأيضاً شخص آخر مثل أبي حنيفة، والذي كان يعتبر من عظماء فقهاء ذاك الزمان، كان يأتي ويتلقى علومه على يد الإمام الباقر عليه السلام . وغيره من بقية العلماء كانوا يتلقون علومهم على يده عليه السلام ، حتى وصلت شهرته العلمية إلى كل أرجاء العالم وعُرف بباقر العلوم.

تلاحظون أن الوضع الاجتماعي والعاطفي واحترام الناس للأئمة عليهم السلام قد تغيّر في عهد الإمام الباقر عليه السلام وبهذا نجد أن الحركة السياسية للإمام الباقر عليه السلام أصبحت أشدّ وضوحاً. وإننا لا نجد في خطاب الإمام السجاد عليه السلام لعبد الملك بن مروان ما يُشير صراحة وبشكل واضح إلى الاعتراض عليه فعندما كان عبدالملك بن مروان يكتب إلى الإمام السجاد عليه السلام عن موضوع معين كان الإمام عليه السلام يجيبه «طبعاً جواب ابن رسول الله دائماً قوي ومحكم» بطريقة لا تحتوي على العداء الصريح. أما الإمام الباقر عليه السلام فقد غيّر حركته لتغيّر الوضع آنذاك بحيث أصبح هشام بن عبد الملك يحس بالرعب والفزع من وجوده عليه السلام .

وكــان هشــام يــرى أنــه مــن الضــروري أن يضع الإمــام عليه السلام تحت المراقبة. وكـان ينـوي أن ينقـل الإمـام عليه السلام إلـى الشـام. طبـعاً، الإمـام السجــاد عليه السلام وفي عـهـد إمـامـتـه «بعـد المرحلة الأولى - التي بدأت من كـربـلاء» قُـيّـدَ بالأغـلال وحُـمِـلَ إلـى الشـام. لذا فـالوضع فـي زمن الإمـام الباقر عليه السلام قد تغير ونجد أن أسلوب الكلام أصبح أكثر حدّة. رأيت عدة روايات تصف مـبـاحـثـات الإمام البـاقـر مع أصحابه حـول مسـألة الخـلافة والإمامة ويلاحظ فـيها الأمل بالمستقبل. وإحدى هذه الروايات هي رواية في بحار الأنوار مضـمـونهـا «كان منزل أبي جعفـر عليه السلام مـزدحـمـاً بالناس. وجاء رجل مسن يستند بعصاه وسلّم مظهراً محبته وجلس إلى جانب الإمام الباقر عليه السلام وقال: «فوالله إني لأحبكم وأحب من يحبكم فوالله ما أحبكم وأحب من يحبكم لطمع في الدنيا. وأنني لأبغض عدوكم وأبرأ منه فوالله ما أبغـضـه وأبرأ منه. لوترٍ كـانت بيني وبينـه. والله إني لأحل حـلالكم وأحـرّم حـرامكم وانتظر أمـركم فهل ترجو لي جعلني الله فـداك؟» يعني هل تأمل أن يأتي يوم وأرى نصـركم. فـأنـا منتظر أمـركم يعني منتظر وصـول عـصـر حكومتكم وولايتكم؟

وتعبيـر «أمـر، وهـذا الأمـر أمـركم» إشـارة إلى الحكومـة فـالحكومـة آنذاك كـان يعبـر عنهـا بالأمـر سـواء في تعـابيـر الأئمة عليهم السلام وأصـحـابهم أو عند مخالفيهم. فمثـلاً في كلام هـارون إلى المأمون جاء «والله لو تنازعت معي في هذا الأمر تعبير هذا الأمر يعني الخلافة والإمامة.

أنتظر أمركم يعني أنتظر خـلافتكم. وهنا يسـأل هل تأملون أن أدرك ذاك اليوم؟ فـأجـابه أبو جـعـفـر عليه السلام اي اي.. حتى أقعده على جنبـه ثم قـال: **«أيهـا الشـيـخ إن عـلـي بن الحـسـين عليه السلام اتاه رجل فـسـأله عن مـثـل الذي سـألتني عنه».**

يعني سُئِل الإمـام علي بن الحسـين عليه السلام نفس هذا السـؤال ولكننا لا نجـده خـلال الـروايات التي نقلت عنه ونفـهم من هذا أن الإمـام عليه السلام لو

كان قد قالها في جمع من الناس فهذا يعني أنه قد سمعها الآخرون، وكان لا بد أن تصلنا. لذا فالاحتمال القوي هو قولها سراً. وهنا يقول الإمام الباقر عليه السلام علناً «**إن تمُت ترد على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى علي والحسن والحسين وعلى علي بن الحسين يثلج قلبك ويبرد فؤادك وتقرَ عينك وتستقبل الروح والريحان مع الكرام الكاتبين وأن تعش ترى ما يقرَ الله به عينك وتكون معنا في السنام الأعلى**».

إذاً، الإمام عليه السلام لا يُدْخِل اليأس على قلبه بل يقول: إذا مُتّ فسوف تُحشر مع الرسول صلى الله عليه وآله وأوليائه وإذا بقيت تكون معنا. فهذا المعنى في كلام الإمام الباقر عليه السلام يعطي للشيعة الأمل بالمستقبل. وفي رواية أخرى بيّن فيها زمان النهضة وهذا شيء عجيب جداً فعن أبي الحمزة الثمالي وبسند قوي ـ كما جاء في الكافي، قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «يا **ثابت إن الله تبارك وتعالى قد وقّت هذا الأمر في السبعين فلما أن قتل الحسين عليه السلام اشتد غضب الله تعالى على اهل الأرض فأخّره إلى اربعين ومائة وحدثناكم الحديث فكشفتم قناع الستر، ولم يجعل الله له بعد ذلك وقتاً عندنا، ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**».. بعدها يقول أبو حمزة: فحدثت بذاك أبا عبد الله عليه السلام فقال قد كان كذلك. وواقعاً لو لم تحدث تلك التحولات بعد سنة ١٣٥هـ ـ وقد ذكرت أهميتها ـ ففي ذلك الوقت أتى المنصور على رأس الحكم. فلو لم تأتِ حادثة بني العباس كأن التقديرات الإلهية كانت تكشف على أنه ستقام الحكومة الإلهية الإسلامية في سنة ١٤٠. وهناك بحث آخر وهو هل أن الأئمة كانوا فعلاً متوقعين حدوث هذا الأمر أما أنهم كانوا قد عرفوا أن القضاء الإلهي على خلاف ذلك؟ اللافت أن من خصوصيات زمان الإمام الباقر هي هذه الآمال والوعود.

وللتعرّف على حياة الإمام الباقر عليه السلام نحتاج إلى ساعات طويلة متمادية لتكوين صورة عن حياته عليه السلام. وأنا قد تطرّقت إلى هذا

الموضوع سابقاً وبصورة عامة. إن عنصر الجهاد السياسي في حياة الإمام الباقر عليه السلام أكثر وضوحاً ولا نقصد هنا الجهاد العنيف أو المسلح. فعندما جاء زيد بن علي أخو الإمام الباقر عليه السلام وسأل الإمام الإذن بالنهوض والقيام، أمره الإمام الباقر عليه السلام بعدم القيام فأطاعه زيد بن علي. والبعض اتهموا زيداً ووجّهوا له الإهانة لعدم إطاعته الإمام الباقر عليه السلام عندما قال له لا تنهض. فهذا اعتقاد وتصور خاطىء لأن زيد أطاع الإمام عليه السلام في عدم نهوضه. ولكنه في عهد الإمام الصادق عليه السلام استأذنه زيد ثانية في قيامه ونهضته، ولم يمنعه الإمام الصادق عليه السلام آنذاك، بل شجعه عليه. وبعد شهادة زيد تمنى الإمام قائلاً يا ليتني كنت من زمرة الذين قاموا ونهضوا مع زيد، لذا يجب أن لا يُلام زيد في هذه الحالة.

نعم الإمام الباقر عليه السلام لم يرضَ بالجهاد المسلح في عهده. ولكن عنصر الجهاد السياسي كان واضحاً في عهده. فعنصر الجهاد البارز في حياة الإمام الباقر عليه السلام لم نكن نراه في عهد الإمام السجّاد عليه السلام وعند انتهاء عهد الإمام السجاد نجد أن الإمام الباقر استمر في جهاده، وذلك في إقامة مجالس العزاء في منى. وحتى أنه أوصى أن يقام له العزاء، ولمدة عشرة سنوات في منى (تندبني النوادب بمنى عشر سنين) فهذا استمرار للنضال.

لماذا البكاء على الإمام الباقر في منى، وما هو الهدف منه؟ فمن خلال حياة الأئمة عليهم السلام نلاحظ التأكيد والحث على مسألة البكاء. ولقد ظهر هذا التأكيد في الروايات التي ذكرت فضل وأهمية البكاء على ما جرى في حادثة كربلاء.

ولدينا روايات صحيحة ومعتبرة في هذا المجال ولا أذكر أنه قد أكّد على البكاء في حادثة أخرى غيرها، إلا في زمن الإمام الرضا عليه السلام ، عندما عزم الإمام الرضا عليه السلام على الرحيل واقتربت منيته قام بجمع أهله

ليبكوا عليه فهذه الحركة لها دلالة ومعناً سياسياً يتعلق بالفترة التي سبقت سفره وشهادته عليه السلام . وفقط في زمن الإمام الباقر عليه السلام أمَرَ بالبكاء وحتى أنه وصّى به بعد شهادته، ووضع ٨٠٠ درهم من ماله لإنجاز هذه الوصية في «منى». «فمنى» تختلف عن منطقة عرفات والمشعر وحتى مكة. ففي مكة الناس متفرقون وكلّ واحد منهم مشغول بعمله وعرفات لا يكون المكوث فيها إلا من الصباح حتى وقت (بعد الظهر) وعندما يأتي الناس إلى عرفات يأتون بعجلة ويسرعون بالرحيل بعد الظهر أيضاً وذلك ليلتحقوا بأعمالهم. وأما المشعر فلا يدوم المكوث فيه إلا عدة ساعات، فهو ليس إلا ممراً في طريق منى. أما في منى فالمكوث يدوم فيه ثلاث ليالٍ متتالية. فقليل من الناس خلال هذه الليالي الثلاث من يذهب إلى مكة ويرجع ثانية. بل أكثر الناس يمكثون الأيام الثلاثة وبصورة مستمرة في منى، وخاصة في ذاك الزمان ومع بساطة الوسائل المتوفرة. حيث يجتمع الآلاف من الناس الذين يأتون من جميع أنحاء العالم ويمكثون ثلاث ليالٍ، وكل شخص يعلم أن هذا المكان هو الأنسب لإيصال أي نداء إلى العالم، وخاصة في تلك الأيام حيث تنعدم وسائل الإعلام كالراديو والتلفزيون والجرائد وغيرها من الوسائل الأخرى، فعندما يبكي جماعة على آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فمن المؤكد أن يسأل الجميع عن سبب البكاء. فلا أحد (عادة) يبكي على ميّت عادي وبعد مرور سنين طويلة. إذن فهل ظُلِمَ؟ أو قُتِلَ؟ ومَن الذي ظلمهُ؟ ولماذا ظُلِمَ؟ تُطرَح أسئلة كثيرة من هذا القبيل. إذن فهذه حركة جهادية دقيقة ومخطط لها.

ولقد لفتت نظري نقطة في الحياة السياسية للإمام الباقر عليه السلام هي أن الأدلة والحجج التي جاءت على لسان أهل البيت عليهم السلام في النصف الأول من القرن الهجري حول باب الخلافة هي نفسها التي كررها الإمام الباقر عليه السلام وهي إن العرب قد تفاخروا على العجم لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم وتفاخرت قريش على غيرها لأن النبي منها، وإذا كان هذا صحيحاً،

فأهل بيت النبي ﷺ أولى بالتفاخر من الآخرين. ولكن هؤلاء يضعون كل ذلك جانباً ويرون أنفسهم ورثة الحكومة. فإذا كان النبي هو أساس التفاخر في قريش على غيرها وتفاخر العرب على العجم، فالأولى أن نتفاخر نحن آل الرسول ﷺ على غيرنا.

فهذا الاستدلال ذُكرَ مراراً في الفترة الأولى من القرن الهجري من قبل أهل البيت عليهم السلام فنجد أن الإمام الباقر عليه السلام وبين عام ٩٥ إلى ١١٤هـ فترة إمامته يُبين هذه الكلمات، واحتجاج الإمام عليه السلام في ذلك العصر بشأن الخلافة شيء له دلالة كبيرة.

فعندما ينتهي عصر الإمام الباقر عليه السلام يبدأ عصر الإمام الصادق عليه السلام من عام ١١٤هـ إلى عام ١٤٨هـ والإمام الصادق عاصر مرحلتين في هذه الفترة. الأولى تمتد من عام ١١٤هـ إلى ١٣٢ أو ١٣٥هـ. يعني إلى سنة انتصار بني العباس واستلام المنصور للخلافة وكانت تعتبر هذه المرحلة مرحلة هدوء وسعة. وذلك بسبب النزاع الذي كان دائراً بين بني أمية وبني العباس، فوجد الإمام عليه السلام في تلك الفترة فرصة لنشر العلوم الإسلامية ولم يمرّ الإمام الباقر عليه السلام بمثل هذه الظروف لأنها كانت خاصة بعصر الإمام الصادق عليه السلام. ففي عهد الإمام الباقر عليه السلام كانت الفترة فترة غطرسة بني أمية، وكان حكم هشام بن عبد الملك الذي قيل فيه «كان هشام رجلهم» حيث كان أكبر شخصية بعد عبد الملك وكانت فترة حكمه في عهد الإمام الباقر عليه السلام ولم يكن في عهده اختلاف بين جهات أو قوى ليستطيع الاستفادة منها. فالحروب الداخلية والاختلافات السياسية كانت في عهد الإمام الصادق عليه السلام وفي المرحلة الأولى من عهده عليه السلام ولكن بالتدريج اتسعت دعوة بني العباس وفي نفس الوقت كانت الدعوة الشيعية في العالم الإسلامي قد وصلت إلى أوجها، وهذا مما لن نقف عنده الآن. وعندما بدأت مرحلة إمامة الإمام الصادق عليه السلام كانت

الصدامات والحروب منتشرة في العالم الإسلامي كأفريقيا وخراسان وفارس وبلاد ما وراء النهر ونقاط أخرى من العالم الإسلامي مما سبّب مشكلات كثيرة لبني أمية وهكذا استطاع الإمام الصادق عليه السلام في هذ المرحلة أن يستفيد من هذه الفرصة وقام بالتركيز على نفس النقاط الثلاث التي أشرنا إليها في حياة الإمام السجّاد عليه السلام . وهي مسألة نشر العلوم الإسلامية . ومسألة الإمامة وخاصة التأكيد على إمامة أهل البيت عليهم السلام . وعلى سبيل المثال: يروي عمر بن المقدام قائلاً «رأيت أبا عبد الله يوم عرفة بالموقف وهو ينادي بأعلى صوته» فكان يقول جملة ثم يلتفت إلى الطرف الآخر ويكررها ومن ثم إلى الطرف الآخر.. وهكذا إلى أربعة أطراف وكل مرة يكررها ثلاثاً والجملة هي «أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان هو الإمام».

التفتوا إلى نفس استعمال كلمة إمام، كان هذا لأجل إلفات الناس إلى حقيقة الإمامة ولإشاعة هذه الفكرة حتى يُصار إلى التساؤل: هل أن هؤلاء الحكام المتسلطين على الحكم لائقون بالإمامة أم لا؟

فينادي ثلاث مرّات لمن بين يديه ولمن خلفه وعن يساره اثنا عشر صوتاً: **«أيها الناس رسول الله كان هو الإمام ومن بعده علي بن أبي طالب وبعده الحسن وبعده الحسين ومن ثم علي بن الحسين ومحمد بن علي وبعدها هاه»** ويكرر هذه الكلمات اثنا عشر مرة.

يقول الراوي سألت ما معنى هاه. قال معناها في لغة (لهجة) بني فلان (أنا) كناية للإشارة عن نفسه عليه السلام يعني بعد محمد بن علي عليه السلام أنا الإمام.

ونشير إلى نموذج آخر، قال: قدم رجل من أهل الكوفة إلى خراسان فدعا الناس إلى ولاية جعفر بن محمد عليه السلام يعني إلى حكومته.

ونحن، حتى استطعنا أن ندعو لقيام «الجمهورية الإسلامية» خلال فترة جهادنا، فطوال سنوات الجهاد والكفاح لم نستطع أن نقول أكثر من رأي الإسلام في الحكومة وحدودها. يعني استطعنا أن نحدد القواعد الأولى التي حددها الإسلام للحكومة والشروط التي وضعها للحاكم. فهذا حدود ما استطعنا أن نبيّنه آنذاك. حيث لم يكن الوقت مناسباً أبداً للدعوة إلى الحكومة الإسلامية أو الإعلان عن شخص معين ليكون الولي. ففي سنة ١٣٥٧هـ.ش (١٩٧٩م) أو في سنة ١٣٥٦هـ.ش. وفي اجتماعاتنا الخاصة استطعنا أن ندعو إلى الحكومة الإسلامية وطبعاً من دون أن نذكر اسم قائدها.

بينما ترون أن رجلاً وفي زمن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يذهب إلى أقصى نقاط العالم ويدعو الناس لحكومة الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، ماذا يعني هذا؟ هل له معنى سوى حلول الزمان الموعود؟ فهذا هو عام ١٤٠هـ وهذا هو نفس الشيء الذي كان يتحرك لأجله الأئمة بشكل طبيعي وهو الذي أدى إلى أن يقوم هذا الرجل بما فعل. فالنهوض الطبيعي للأئمة عليهم السلام هو الذي أدى إلى هذا. كما أنه أعطى الأمل في تشكيل الحكومة الإسلامية في ذلك الزمان.

إذن، فقد كانت الدعوة للناس إلى حكومة وولاية الإمام جعفر بن محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ .. ونحن اليوم نفهم الولاية بمعناها الحقيقي والواقعي، ولكن سابقاً كانوا يفسّرون الولاية بالمحبة. وهذا يعني أنهم كانوا يدعون الناس إلى الولاية أي إلى محبة الإمام جعفر بن محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ فهل يصح هذا؟ فهذا ليس من شؤون الدعوة، فالمحبة لفرد ليست هي بالشيء الذي يُدعى إليه المجتمع إضافة إلى أنه إذا فسّرنا الولاية بالمحبة لا يكون لبقية الحديث معنى، حيث قال عَلَيْهِ السَّلَامُ **«ففرقة اطاعت واجابت وفرقة جحدت وانكرت»** ومن الذي ينكر ويردّ محبة أهل البيت في العالم الإسلامي **«وفرقة ورعت**

ووقفت، وإذا فسرت الولاية بالمحبة فلا تتناسب هنا مع مسألة التورع والتوقف. وهذه قرينة إلى أن الولاية لها معنى آخر غير المحبة بل هي الحكومة. وبقية الحديث يقول «فخرج من كلّ فرقة رجل فدخلوا على أبي عبد الله عليه السلام فكانوا يأتون إلى الإمام ويتكلمون معه حيث يردّ على واحد من الذين تورعوا وتوقفوا كما يلي «تورعت في هذا العمل فلماذا لم تتورع عند النهر الفلاني! في اليوم الفلاني حيث ارتكبت العمل المخالف الفلاني» فهذا الكلام يُبين بوضوح أن الشخص الذي ذهب إلى خراسان دعا الناس لولاية الإمام قد قام بهذا برضا الإمام ولعل الإمام عليه السلام هو الذي أرسله.

فهذا كله يتعلق بالمرحلة الأولى من حياة وعصر الإمام الصادق عليه السلام وتوجد حوادث أخرى من هذا القبيل في حياته عليه السلام . وعلى الأكثر تتعلق هذه الحوادث بالمرحلة الأولى من حياته عليه السلام حتى وصول المنصور إلى سدة الحكم والخلافة فتتبدل الأوضاع وتبدأ المشاكل والمصاعب في حياة الإمام الصادق عليه السلام . ولربما هذه الفترة من حياة الإمام الصادق عليه السلام تشبه الفترة التي مرت على الإمام الباقر عليه السلام حيث ساد جو القمع وممارسة الضغوطات على الإمام حتى أنه عليه السلام أُحضر ونُفي لعدة مرات إلى الحيرة وواسط والرميلة ومناطق أخرى. وكان الخليفة يخاطب الإمام الصادق عليه السلام بقساوة وغضب حيث قال له مرة «قتلني الله إن لم أقتلك» ومرة من المرات خاطب الخليفة والي المدينة قائلاً له «أنْ أحرِق على جعفر بن محمد داره». وحينما أُحرِق داره أظهر الإمام الغربة والوحدة التي ألّمت به آنذاك وذلك خلال حركاته وسكناته وهو يعبر النار المضرمة حيث قال «أنا ابن أعراق الثرى أنا ابن محمد المصطفى». وهذا مما أدى إلى زيادة سخط أعدائه أكثر.

إن معاملة المنصور للإمام الصادق عليه السلام كانت معاملة صعبة جداً

وقاسية للغاية ولطالما هدد المنصور الإمام عليه السلام. وهناك روايات تنقل أن الإمام عليه السلام كان يتذلل ويظهر الخضوع للمنصور. وبالتأكيد أن هذه الروايات لا أساس لها من الصحة. فأنا بحثت حول هذه الروايات ولم يكن لأي واحد منها أساس وسند صحيح ومعتبر. وغالباً ما تنتهي في سندها إلى ربيع الحاجب هذا المقطوع بفسقه، الذي كان من المقربين للمنصور. ومن العجب أن البعض نقل أن الربيع كان يعتبر من الشيعة المحبين لأهل البيت عليهم السلام فأين التشيع من ربيع؟!

إن الربيع كان يعتبر الخادم المطيع والمخلص لأوامر المنصور. ومنذ طفولته استطاع أن يجد طريقاً ومكاناً في الحكومة العباسية وخدم بني العباس حتى أصبح حاجب المنصور. وقدم له الخدمات الكثيرة حتى استطاع أن يتسلم الوزارة، ولو لم يكن الربيع موجوداً لخرجت الحكومة والخلافة من آل المنصور بعد موته ولربما كان قد استلمها أعمامه من بعده فعند احتضار المنصور لم يكن عنده سوى الربيع ولهذا كتب الوصية بنفسه عن المنصور زوراً وجعل الخلافة باسم المهدي بن المنصور.

والفضل بن ربيع الذي تسلم الوزارة في عهد هارون والأمين هو ابن هذا الشخص، فهذه العائلة عرفت بوفائها لبني العباس. ولم يكن لهم أي ولاء لأهل البيت عليهم السلام .. وما نُقل عن الربيع حول الإمام فهو كذب وبهتان. ولم يرد من كذبه هذا إلا أن يظهر الإمام عليه السلام للمسلمين آنذاك الإنسان المتذلل والخاضع أمام الخليفة حتى يعتبر الآخرون أن تكليفهم هو أيضاً مثل تكليف الإمام، أي التذلل والخضوع للخليفة.

وكما قلنا فقد كانت معاملة المنصور للإمام الصادق عليه السلام معاملة قاسية جداً حتى انتهت بشهادة الإمام عليه السلام وذلك في عام ١٤٨هـ. وبدأ عصر الإمام موسى الكاظم عليه السلام فكانت حياته مليئة بالأحداث المهمة والمثيرة واعتقد أن الجهاد والمواجهة قد بلغتا أوجهما في عهد هذا الإمام

عليه السلام . ومع الأسف لا يوجد بين أيدينا تقرير ونص واضح وصريح حول حياة هذا الإمام عليه السلام العظيم وقد بهرتني بعض الأمور التي ذكرت حول حياة الإمام الكاظم عليه السلام مثلاً جاء في بعض الروايات أن الإمام عليه السلام بقي ولفترة مخفياً عن أنظار الحكومة آنذاك وكان هارون وأزلامه يبحثون عنه ولم يستطيعوا أن يجدوه. وكان الخليفة يقبض على بعض الأفراد ويُعذبهم ليعترفوا ويخبروه عن مكان الإمام عليه السلام وهذا لأول مرة يحدث هذا الأمر في حياة الأئمة عليهم السلام ونقل ابن شهر أشوب في المناقب ما يفيد ما ذكرناه حيث قال «دخل موسى بن جعفر عليه السلام بعض قرى الشام متنكراً هارباً» ولم يُنقل عن أي من الأئمة هذا الوضع. وهذه الأحداث تعبير عن الشرارة والالتهاب الذي ميّز حياة الإمام. وسجن الإمام المؤبد هو خير دليل على الوضع الذي كان قائماً مع أنّ هارون كان يعامل الإمام الكاظم عليه السلام معاملة جيدة وحسنة وذلك خلال المرحلة الأولى من تصديه الحكم.

والقصة التي ينقلها المأمون حول الإمام الكاظم عليه السلام معروفة وملخصها أن الإمام عليه السلام كان يمتطي دابة وجاء ودخل إلى المكان الذي كان يجلس فيه هارون وأراد الإمام عليه السلام أن يترجل ولكن هارون لم يرضَ بذلك وأقسم عليه أن يبقى راكباً ويأتي بدابته إلى بساطه وعندما جاء الإمام عليه السلام راكباً إلى بساط الخليفة احترمه هارون وبقيا مدة يتبادلان الحديث. فعندما عزم الإمام عليه السلام الرحيل طلب هارون مني (أي من المأمون) ومن الأمين أن نأخذ بركاب أبي الحسن، إلى آخر القصة. والشيء الملفت في هذه القصة هو ما نقله المأمون عن أن أبيه هارون أعطى للجميع الذين كانوا حاضرين في المجلس ٥ آلاف دينار و ١٠ آلاف دينار (أو درهم) كهدية وجائزة ولكن أعطى لموسى بن جعفر ٢٠٠ دينار، علماً بأنه عندما كان الخليفة يسأل عن وضع الإمام عليه السلام كان الإمام عليه السلام يجيبه مبيناً له

المشكلات والأوضاع المعيشية السيئة وكثرة العيال. (فهذا الكلام من الإمام يحمل بين طياته معنى دقيق، فأنا وبقية الذين عاشوا تجربة التقية في زمان مواجهة الشاه نستطيع أن نفهم وندرك لماذا ذكر الإمام عليه السلام ولمثل هارون وضعه السيء وعدم كفاية المعيشة، فهذا الكلام لا يحتوي على التذلل لأن الكثير منكم وفي عهد القمع والظلم قد فعلتم مثل ما فعل الإمام عليه السلام لأن الإنسان ومن خلال هذا الكلام يستطيع أن يبعد نظر العدو عن أعماله ونشاطاته.

وطبيعي أن هارون وبعد استماعه إلى مثل هذا الكلام كان ينبغي أن يعطي للإمام مبالغ طائلة مثلاً ٥٠ ألف دينار (أو درهم).

ولكنه رغم هذا كله لم يعطه أكثر من ٢٠٠ دينار! يقول المأمون سألت أبي عن سبب إعطائه القليل فأجابني إذا أعطيته ما في ذمتي من المبلغ لخرج، وبعد فترة وجيزة، مئة ألف فارس من الشيعة يقومون ضدي، فهذا كان استنتاج وفهم هارون وحسب رأيي أن هارون كان صائباً في فهمه. والبعض يعتقد أن تصور هارون هذا كان نتيجة لما بُلِّغ به من سوء عن الإمام عليه السلام ولكنه واقع الأمر وحقيقته، لأنه لو كان الإمام عليه السلام يملك من الأموال الكافية في زمان جهاده ونضاله ضد هارون لاستطاع استقطاب الكثير ليحاربوا إلى جانبه. وهذا الوضع لاحظناه في زمان أبناء الأئمة عليهم السلام وبالتأكيد أن الأئمة لو كانوا يملكون المال الكافي لاستطاعوا جمع عدد أكبر من الناس حولهم، وعلى هذا نجد أن عهد الإمام الكاظم عليه السلام كان عهداً وصل فيه الجهاد والكفاح إلى أوجه حتى انتهى باعتقال الإمام عليه السلام وسجنه. وعندما جاء عهد الإمام الثامن عليه السلام بدأ الوضع يتحسن بالنسبة للأئمة عليهم السلام وانتشر الشيعة في كل البقاع وتوفرت لهم الإمكانيات اللازمة حتى انتهى الأمر إلى ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام . وعاش الإمام الرضا في عهد هارون الرشيد

مراعياً للتقية في حياته يعني كان يسعى في حركته ونشاطاته بسرية وتقية. فمثلاً دعبل الخزاعي الذي كان يتكلم بحق الإمام الرضا عليه السلام بهذا الشكل المعروف في زمن ولاية عهده عليه السلام لم يظهر إلى الوجود فجأة. فالمجتمع الذي يُربي مثل دعبل الخزاعي أو إبراهيم بن العباس الذي كان يعتبر من المادحين لعلي بن موسى الرضا عليه السلام أو غيره من الموالين، هذا المجتمع لا يُخرج مثل هؤلاء من لا شيء. فهذا الولاء يجب أن يكون قد بدأ من سنين وله سابقة في ثقافة المجتمع فليس من الممكن أن يحتفل الناس في خراسان وري ومناطق أخرى بمناسبة تعيين الإمام الرضا عليه السلام ولياً للعهد من دون أن يكون لهم في ولايتهم هذه سابقة وتاريخ.

وما حدث في عهد ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام دليل على مدى ولاء الناس ومحبتهم لأهل البيت عليهم السلام .

وبعد ذلك ظهر الاختلاف بين الأمين والمأمون واستمر الخلاف والجدل بين خراسان وبغداد لمدة خمس سنوات وهذا مما ساعد الإمام الرضا عليه السلام أن يوسّع من نشاطاته وحركته حتى انتهت إلى تعيينه ولياً للعهد. ولكن ومع الأسف انتهى الوضع بشهادته وبداية عهد جديد حاملاً بين طياته المحن والمشاكل لأهل البيت عليهم السلام . وحسب رأيي أن المحن والمشكلات التي واجهت أهل البيت عليهم السلام بلغت ذروتها في زمن الإمام الجواد عليه السلام وشملت عصور الأئمة الذين جاؤوا من بعده.

كان هذا شرح مجمل ونظرة عامة إلى المحن والمشاكل التي واجهت الأئمة عليهم السلام وتحليل مختصر لحياتهم السياسية.

وكما ذكرت سابقاً بأنني قد قسّمت البحث إلى قسمين. القسم الأول هو عرض مجمل وقد انتهى إلى هنا والقسم الثاني هو التعرض إلى أبرز

التحركات الجهادية في حياة الأئمة عليهم السلام.

كلّ ما سأذكره هو بعض العناوين والتي استطعت خلال اليومين الماضيين أن استخرجها من بين ملاحظاتي التي كنت قد سجلتها قديماً وطبعاً المواضيع التي يمكن البحث فيها لا تقتصر على التي سأذكرها ولكن أذكر بعضاً منها ليستطيع من يريد البحث والدراسة أن يتخذها محوراً في بحثه.

من المسائل والمواضيع المهمة هي ادعاء الإمامة والدعوة إلى الإمامة.

وتعتبر هذه المسألة حركة جهادية في كل المراحل التي مرّت بحياة الأئمة عليهم السلام وذكرت حولها روايات في فصول واسعة، ومن جملتها روايات أن الأئمة «نور الله» التي وردت في الكافي، ورواية الإمام الثامن عليه السلام حول الإمامة وروايات عديدة أيضاً حول حياة الإمام الصادق عليه السلام ومحاورات ومناظرات أصحابه في ظروف مختلفة. وأيضاً روايات حول حياة الإمام الحسين عليه السلام عند دعوته لأهل العراق وروايات أخرى.

والمسألة الأخرى هي فهم وإدراك الخلفاء لما يقوم به الأئمة من أعمال وتبليغ. فأنتم وكما تلاحظون أن فهم الخلفاء لأهداف الأئمة عليهم السلام متشابه من زمان عبد الملك بن مروان إلى زمان المتوكل. أي كان فهمهم وإدراكهم لما يدور حولهم متشابهاً. فمعاملتهم للأئمة عليهم السلام كانت تتشابه من حيث القهر والاضطهاد. فهذه مسألة مهمة لا يمكن أن نمرّ عليها بشكل عابر.

لماذا كانوا يفهمون ويدركون من حياة الأئمة عليهم السلام هذا الفهم والإدراك؟!

فمثلاً جملة (خليفتان يُجبى إليهما الخراج) حول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أو (هذا على ابنه قد تعدّوا وادعى الأمر لنفسه) حول الإمام

علي بن موسى الرضا عليه السلام أو جملات أخرى مشابهة لهذه الجمل حول الأئمة عليهم السلام.

والمسألة المهمة الأخرى هي أن الخلفاء كانوا يسعون لينسبوا الإمامة إليهم. وتوجد أمثلة كثيرة حول ما قلناه ونذكر منها مثالاً. فكُثير هو شاعر بارز عاصر المرحلة الأولى من الخلافة الأموية ويعتبر من الموالين لأهل البيت عليهم السلام. وكان على مستوى الفرزدق وجرير والأخطل وجميل ونصيب وغيرهم. جاء يوماً من الأيام إلى الإمام الباقر عليه السلام حيث قال له الإمام عليه السلام معترضاً «امتدحت عبد الملك» أجاب مضطرباً «يا ابن رسول الله ما قلت له يا إمام الهدى وإنما قلت له أسد والأسد كلب ويا شمس والشمس جماد ويا بحر والبحر موات). يعني أراد الشاعر أن يبرر عمله. فتبسم الإمام عليه السلام وحينها قام الكميت الأسدي وأنشد هذه القصيدة:

من لقلب متيّم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

حتى وصل إلى البيت

ساسة لا كمن يرى رعيه الناس سوا ورعيه الأنعام

فهذا يدلّ على أن الأئمة عليهم السلام كانوا شديدي الحساسية من جهة مدح عبد الملك وأصحابه وكانت اهتماماتهم وحساسيتهم في إطلاق كلمة إمام الهدى عليه حيث قال: لم أقل له إمام الهدى. وهذا يدل على مدى رغبة الخليفة في إطلاق عبارة إمام الهدى عليه. وكانت هذه الرغبة أشد في زمن بني العباس.

ومروان بن أبي حفصة كان شاعراً أموياً وعميل البلاط الأموي والعباسي (والعجب في هذا أنه كان شاعر البلاط الأموي في الخلافة الأموية وبعد أن جاء بنو العباس إلى سدة الحكم أصبح شاعر البلاط العباسي حيث كان

شاعرٌ قوياً عذب البيان فاشتروه بالمال). وعندما كان يمتدح بني العباس لم يكن يكتفي بذكر كرمهم وشجاعتهم وبقية خصالهم بل كان ينسبهم إلى رسول الله ﷺ وينسب إليهم منزلته. حيث قال

أنّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

يعني كيف يمكن أن يرث أبناء البنات ما ترك الأعمام؟ فعم رسول الله ﷺ هو العباس وله وارث فكيف يمكن أن يرث ما ترك العباس أبناء بنت فاطمة عليها السلام .

إذن فالدعوى حول الخلافة والحرب حرب ثقافية وسياسية. وفي مقابل هذا الشعر قال الشاعر الطائي الشيعي المعروف يعني جعفر بن عفان الطائي:

لم لا يكون؟ وإن ذاك كائن لبني البنات وراثة الأعمام

للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

يعني البنت ترث نصف مال أبيها والعمّ لا يرث من مال أخيه، إذن فليس لكم إرث لتطالبوا به. فهذا نموذج من موقف أصحاب الأئمة عليهم السلام مقابل ما يدعيه الخلفاء في الإمامة.

والمسألة الأخرى هي تأييد الأئمة عليهم السلام وحمايتهم للحركات الثورية التي كانت آنذاك فهذه من البحوث المثيرة من حياة الأئمة عليهم السلام وتدل على منهجية الجهاد أيضاً. ككلام الإمام الصادق عليه السلام حول المعلى بن خنيس عندما قتل على يد داوود بن علي وكلماته حول زيد وحول الحسين بن علي شهيد فخ وغيرهم.

وقد رأيت رواية عجيبة في نور الثقلين عن علي بن عقبة حيث قال أن أبي قال: دخلت أنا والمعلى على أبي عبد الله عليه السلام فقال: «**ابشروا انتم على إحدى الحسنيين، شفى الله صدوركم واذهب غيظ قلوبكم وانالكم من عدوكم - وهو قول الله تعالى «ويشف صدور قوم مؤمنين - وإن**

قضيتم قبل أن تروا ذلك مضيتم على دين الله الذي رضيه لنبيه ﷺ ولعلي عليه السلام».

هذه الرواية مهمة كونها تتحدث عن الجهاد والنصر «أبشروا أنتم على إحدى الحسنين» وعن النيل من العدو والشهادة **«وأنالكم من عدوكم... وإن قضيتم قبل أن تروا ذلك».**

وتزيد الأهمية كون المخاطب في هذه الرواية هو المعلّى بن خنيس الذي عرفنا كيف كان مصيره (التنكيل والقتل)، ونلاحظ أن الإمام المعصوم في هذه الرواية بدأ بمخاطبة الصاحبين مباشرة دون أي مقدمة. ويستدل من خلال سياق الرواية أن الحديث كان يتناول موضوعاً محدداً لكنه لم يُذكر، أما قوله عليه السلام **«شفى الله صدوركم»** فمن الممكن أن يكون دعاءاً، ولكن يوجد احتمال آخر، وهو أقوى، وهو إخباره عن أمر ما قد حصل أو أنجز، فهل كان الداخلان على الإمام قد عادا من عمل أو مواجهة ما؟ غير معلوم، أو أنهما مكلفان بمهمة معينة من قبل الإمام؟

لم تفصح الرواية عن شيء كهذا، لكن على كلا الاحتمالين فإن سياق الحديث يفصح عن مساندة وحماية الإمام عليه السلام للتحركات الثورية التي تحكي عنها الحياة اليومية لمعلى بن خنيس. ومن المهم في حديثنا عن هذا الصاحب أن نلتفت إلى أنه كان «باب» الإمام الصادق (بتعبير الروايات) ومن المهم أن نتعرض لهذا المصطلح بالبحث فالذين ذُكروا في أحاديث أهل البيت عليهم السلام بعنوان «الباب»، من كانوا؟! فإن أغلبهم قد قُتل أو هُدد بالقتل، أمثال يحيى بن أم الطويل، معلى بن خنيس، جابر بن يزيد الجعفي وغيرهم..

بحث آخر في حياة الأئمة عليهم السلام حول سجنهم ونفيهم وملاحقتهم.. وأرى أنه يجب أن نتتبع هذا البحث بدقة، وهناك الكثير من المسائل التي تحتاج إلى التدقيق والتحليل، منها أيضاً ما يتعلق بخطابات أهل البيت عليهم السلام التي تميّزت بالصراحة وبمواجهاتهم الحادة لحكّام

زمانهم. وهي نقطة ينبغي الوقوف عندها ملياً، فهؤلاء العظام عليهم السلام . لو كانوا من الصنف المحافظ والمسالم المهادن لسلكوا نفس منهاج الزهاد والعلماء في ذلك العصر، من الذين لا تزعج خطاباتهم السلطة، ولا تقترب من المعارضة، وهؤلاء كانوا كثر، حتى أن السلاطين والحكام كانوا على علاقة معهم ويحبّون بعضهم، لدرجة أن هارون كان يقول بحق أحدهم:

كلكم يمشي رويداً　　　كلكم يطلب صيداً

وهؤلاء الزهاد كانوا يعظون الحكّام حتى أنهم كانوا يبكونهم أحياناً من الموعظة، لكن هؤلاء الزهاد يحرصون على أن لا ينطقوا بأي كلمة فيها تلميح إلى مثل الجبار والطاغية والغاصب والشيطان وأشباه هذه المعاني، بينما نجد أن الأئمة كانوا يصرّحون بكل هذا وينشرون هذه الحقائق بين الناس. فلم تكن هيبة وسطوة الحكّام لتجبرهم على السكوت، وهناك بحث آخر متعلق بتحدي الأئمة عليهم السلام للسلاطين وقد أشرنا إلى بعضها كالذي جرى بين المنصور والإمام الصادق عليه السلام أو بين هارون والإمام الكاظم عليه السلام .

بحث آخر أيضاً هام جداً ويحتاج للمتابعة وهو يتعلق بالموارد التي تدل على استراتيجية الإمامة، فأحياناً كانت كلمات الأئمة تطرح أموراً ليست بالبسيطة والعادية بل تتعلق بهدف محدد ومشروع خاص كان هو نفسه استراتيجية الإمامة. ومن جملة هذه الموارد، الحوار الذي دار بين الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام ، وهارون الرشيد، حول ما يتعلق بمسألة «فدك»، ففي أحد الأيام قال هارون للإمام الكاظم عليه السلام : «حُدّ فدكاً حتى أردها إليك» وكان هدفه من وراء هذا العمل أن يسلب تأثير هذا الرمز «فدك» الذي كان أهل البيت عليهم السلام يطرحونه دائماً كدليل وشاهد على مظلوميّتهم التاريخية، فبإرجاعه «لفدك» يسحب هذا السلاح من أيديهم. ولعله أيضاً يصبح مميزاً، بنظر الشيعة، عن أولئك السلاطين الذين استمروا

بغصب «فدك»، والإمام في البداية امتنع عن تنفيذ هذا الطلب ولكن بعد إصرار هارون قال له الإمام عليه السلام:

«لا آخذها إلاّ بحدودها». فقبل هارون بذلك، فبدأ الإمام بذكر تلك الحدود قائلاً: «أما الحد الأول فعدن» فتغير وجه هارون، وقال: إيه!! تابع الإمام عليه السلام:

«والحد الثاني سمرقند» أي الحدود الشرقية لأراضي حكومة هارون فأربد وجهه، فتابع الإمام عليه السلام وقال:

«والحد الثالث افريقيا» ويعني تونس أي الحدود الغربية للبلاد.

يقول الراوي: فاسودّ وجه هارون وقال: هيه!! عندها أنهى الإمام عليه السلام كلامه وقال: «والحد الرابع سيف البحر مما يلي الجزر وارمينيا» أي الحدود الشمالية.

عندها قال هارون غاضباً مستهزئاً:

«فلم يبق لنا شيء. فتحول إلى المجلس (أي قم واستلم الخلافة).

فقال الإمام عليه السلام: «قد أعلمتك أنني إن حددتها لن تردّها» وكما جاء في نهاية هذه الرواية: «فعند ذلك عزم على قتله».

في هذا الحوار يظهر أهم مطلب للإمام موسى الكاظم عليه السلام والذي كان كافياً حتى يقرر هارون الرشيد قتله، وكذلك الأمر، فإن مطالب الأئمة عليهم السلام الواضحة في حياة الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الرضا بحيث أنها لو جمعت فستُرسم استراتيجية الإمامة.

من المباحث الهامة أيضاً والتي تحتاج إلى التحليل والتحقيق في شرح سيرة الأئمة هي معرفة مدى اطلاع أصحاب الأئمة على أهدافهم ومشروعهم ومطالبهم عليهم السلام. طبعاً، فإن هؤلاء الأصحاب كانوا أقرب إليهم منّا وكانوا أكثر اطلاعاً على مطالبهم وأهدافهم، لذا فإن معرفة وإدراك هؤلاء الأصحاب لحركة الإمامة أمر هام، فنحن إذا نظرنا في

الروايات، فهل نرى أنهم لم يكونوا منتظرين ومترقبين لقيام الأئمة بالثورة؟!

أنتم تعرفون قصة ذلك الرجل الذي أتى من خراسان للقاء الإمام الصادق عليه السلام وأخبره بأن هنالك الآلاف من الفرسان المقاتلين ينتظرون منك الإشارة حتى يثوروا، فأبدى الإمام شكه وتعجبه وبالتدريج صار الخراساني يقلّل من العدد. وبعدما أكّد الإمام له على نوعية هؤلاء الأفراد، قال الإمام عليه السلام :

«لو كان لدي اثنا عشر (أو خمسة عشر) صاحب لخرجت» (على اختلاف الروايات).

وكان هناك أشخاصاً يقومون بمراجعة الإمام عليه السلام، ويطلبون منه الخروج (بحسب الروايات). وبالطبع فإن بعضهم كان من جواسيس بني العباس وهذا يعرف من خلال أجوبته عليه السلام . فلماذا كانت تتم مراجعة الإمام؟!

هذا لأنهم يعرفون بأن هذا الأمر (أي الثورة) هو هدف أساسي وثابت عند الأئمة عليهم السلام فمسألة الخروج والثورة لإقامة دولة الحق كانت مسألة أساسية في ثقافة الشيعة في ذلك الزمان، والأئمة كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للقيام بذلك. ولقد رأيت رواية ملفتة في هذا المجال حيث يفهم منها مستوى إدراك وفهم الأصحاب المقرّبين مثل زرارة بن أعين وهذه الرواية موجودة في رجال الكشي وتذكر بأن زرارة أتى يوماً إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال: أصلحك الله إن رجلاً من أصحابنا كان مختفياً من غُرّامه. فإن كان هذا الأمر قريباً صبر حتى يخرج مع القائم وإن كان فيه تأخير صالح غرّامه؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام : **يكون**، فقال زرارة: يكون إلى سنة؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام : **يكون إن شاء الله**، فقال زرارة: فيكون إلى سنتين؟ فقال أبو عبد الله: **يكون إن شاء الله**. فخرج زرارة موطّناً نفسه على أن يكون على سنتين، فلم يكن.

وبالطبع فإن زرارة لم يكن بالشخص الساذج والبسيط فهو من الأصحاب

المقربين للإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، فكيف يصل إلى هذه النتيجة، التي تأكد معها اقتراب موعد تشكيل الحكومة العلوية؟ وفي رواية أخرى ينقل هشام بن سالم أن زرارة قال له:

«لا ترى على أعوادها غير جعفر» أي أنك لن ترى على رأسَ الخلافة إلاّ جعفر بن محمد عليه السلام، وعندما يقول له هشام بعد استشهاد الإمام الصادق عليه السلام: تذكر الحديث الذي حدثتني به؟ ويذكره، ويقول هشام: كنت أخاف أن يجحدنيه فقال زرارة إني والله ما كنت قلت ذلك إلا برأيي (منبهاً إياه بأنه لم يكن ينقل عن الإمام).

وهناك روايات كثيرة في هذا المجال حول الخروج أو طلب ذلك من قبل الأصحاب، نفهم منها وبوضوح أن هدف الأئمة كان تشكيل الحكومة العلوية والسعي لأجل تحقيق ذلك، وأن الأمر كان متوقعاً وقريباً وهذا من المسلمات في اعتقاد الشيعة وأصحاب الأئمة المقربين.

وهذه دلالة أساسية وواضحة على هدف ومشروع الأئمة عليهم السلام، يوجد بحث آخر يتعلق ببغض وعداء الحكام المتعاقبين للأئمة عليهم السلام وخلفية هذا العداء. هل هو الحسد فقط على المقام المعنوي وعلى حب الناس للأئمة؟ أم أن هناك عاملاً آخر؟ طبعاً ومن دون شك كان الأئمة محسودين من قبل هؤلاء الحكام وغيرهم، ففي تفسير آية **﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾** ورد في الروايات **«نحن المحسودون»** ولكن علينا أن ننظر على ماذا كان هذا الحسد؟! على علمهم وتقواهم؟!

فنحن نعرف أن العلماء والزهّاد كانوا كُثراً في ذلك الزمان وكانوا معروفين بين الناس بهذه الصفات وكان لهم الكثير من المحبين والأصحاب من أمثال: أبو حنيفة، أبو يوسف، الحسن البصري، سفيان الثوري، محمد بن شهاب والعشرات من أمثالهم، ممن كان لهم أتباعاً ومريدين. وفي الوقت نفسه لم يحسدهم الحكام والسلاطين، ولم يبغضوهم، بل وكما ذكرنا فإن الحكام كانوا يحبون بعضهم، إذن فخلفية عداء هؤلاء لأهل البيت عليهم السلام،

والتي انتهت إلى استشهادهم، هي شيء آخر بنظرنا، وهي ليست إلاّ مطالبة الأئمة بحقهم في الإمامة والخلافة وهذا ما لم يدعيه الآخرون.

هذا بحث مطلوب، ومن جملة الأبحاث المطلوبة أيضاً حول التحركات الثورية والمعارضة التي قادها أصحاب الأئمة ضد النظام الحاكم ونستطيع أن نرى نماذجاً منها في كل المراحل التي عاشها الأئمة، ففي زمان الإمام السجّاد عليه السلام . أي في ذروة الضغوط والقمع، نرى يحيى بن أم الطويل وهو أحد حواريّ الإمام يأتي إلى المسجد مخاطباً الناس الذين رضخوا لرجال السلطة، قارئاً الآية التي خاطب بها النبي إبراهيم عليه السلام الكفار: ﴿كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء..﴾.

وكذلك كان يخطب في الناس في كناسة (اسم موضع في الكوفة) الكوفة معترضاً على الأوضاع السياسية الحاكمة منادياً الناس بصوت عال...

وكذلك فعل معلّى بن خنيس حينما خرج لأداء صلاة العيد بمظهر حزين وكئيب وعليه آثار التفجع. فصعد إلى المنبر مثل الخطيب وقال رافعاً يديه: «اللهم إن هذا مقام خلفائك وأصفيائك وموضع أمنائك.. ابتزوه» (يعني غصب الخلافة). وللأسف فإن هذا الصحابي الجليل الذي لعن الإمام الصادق قاتليه، وكان عليه السلام يثني عليه، فإن البعض يشكك في وثاقته، وليس بعيداً أن يكون منشأ هذا الافتراء الأيادي الخبيثة لبني العباس.

والمسألة الأخرى التي لها بحث واسع وعميق، هي مسألة «التقية» ولفهمها يلزم أن ننظر في كل الروايات التي تتحدث عن الكتمان والتستر، إضافة إلى التوجه لهدف الأئمة الذي سبق ذكره وهو إقامة الحكومة العلوية، والأخذ بعين الاعتبار بطش الحكام في مواجهة هذا المطلب. ومع هذه التحركات للأئمة عليهم السلام وأصحابهم، وبالالتفات إلى كل هذه الأمور نفهم المعنى الحقيقي للتقية، بحيث لا يبقى أي شك بأن التقية لا تعني التوقف عن العمل بل هي إخفاء هذاالعمل ويتوضح هذا بمراجعة الروايات.

هذا قسم من المباحث الهامة المرتبطة بسيرة أهل البيت عليهم السلام ، وطبعاً

فهناك مباحث أخرى كثيرة تتعلق بالحياة السياسية لأولئك العظام. ولا يتسع الوقت حتى لذكر فهرس لهذه المواضيع. ولقد كان لي عمل دؤوب في كل هذه المباحث، ولكن مع الأسف، فلا يوجد عندي اليوم الفرصة للاستمرار ولتجميع هذه الملاحظات التي قد قمت بتدوينها سابقاً، فيا ليت من يكون من أصحاب الهمم العالية كي يتابع هذا العمل. فيجمع مباحث الحياة السياسية لأئمة أهل البيت كي يقدمها للناس، حتى نستطيع أن نجعلها درساً وقدوة لنا، وليس فقط كذكرى خالدة.

4 بحث حول سيرة الامام السجاد عليه السلام

تمهيد للفصل

من سيرة الأطهار نستلهم نهجاً يتسع في آفاقه ليشمل كل أبعاد الحياة.

ومن مصائبهم نكتسب قوة وعزيمة تقوى على مواجهة الطغاة كالجبال الرواسي أمام الرياح العاتيات.

إنها سيرة انسان عظيم يكتبها إنسان عظيم والعظمة مراتب تستقي من بعضها كما استقى الطهر من الآباء والأجداد.

سيد حسيني سار على نهج سادة العالم وهو يتولى اليوم قيادة أمة الإسلام يتبع سيرة أجداده الصالحين الذين هم أئمة الدين وأركانه ليقود هذه الأمة نحو شاطئ النجاة وبر السعادة.

فهنا يقف القلم صاغراً وتجمد اليد رهبة في أن تحرك كلمات التعريف للكاتب والكتاب.

لقد كتب سماحة آية الله العظمى السيد علي الخامنئي هذا البحث في السنوات الأولى من عمر الثورة، فجاءت كلماته قريبة من أيام الظلم والقمع والتنكيل، أيام الشاه المقبور حيث كان الإمام السجاد عليه السلام أعظم ملهم في سيرته. كيف لا، والفترة التي عاشها في ظل حكم بني أمية الذين استباحوا الدين والملة شهدت أشد حالات القهر والتنكيل وكبت الحريات وقتل الصالحين.

انطلق فيها الإمام صابراً محتسباً وحمل راية الإسلام التي أسقطها الظالمون أرضاً على كربلاء وأعاد للدين هويته، أحيى في

النفوس عزيمة، أيقظ آخرين ونشر عطر التعاليم المعنوية العظيمة في أجواء العالم الإسلامي، فحلقت الأنغام القدسية تصدح في قلوب المخبتين.

هكذا كان السيد الخامنئي أيام القهر في مشهد وإيران كافة ينتقل من سجن إلى سجن وبين كل محطة ينشر تعاليم الدين الأصيلة، يمهّد لثورة السيد الأكبر.

ولأنه كان أعظم الممهدين فقد تصدّى لأهم المسؤوليات في بلده بعد الثورة المظفّرة حتى ألقى إليه سيد جمران ثقل الأمانة فحملها أميناً.

بحث حول سيرة الإمام السجاد عليه السلام

مقدمة

إن الحديث عن الإمام السجاد عليه السلام وكتابة سيرته عمل صعب، لأن أساس تعرف الناس على هذا الإمام تم في أجواء غير مساعدة إطلاقاً. ففي ذهن أغلب كتّاب السيرة والمحللين أن هذا الإنسان العظيم قد انزوى للعبادة ولم يكن له أي تدخل في السياسة. حتى أن بعض المؤرخين وكتّاب السيرة ذكروا هذه المسألة بشكل صريح، أمّا الذين لم يقولوا هذا الأمر بصراحة فإن مفهومهم عن حياة الإمام السجّاد عليه السلام ليس سوى هذا الأمر. وهذا المعنى موجود في الألقاب التي تنسب إليه والتعابير التي يطلقهاالناس عليه: كما يطلق البعض لقب «المريض» عليه، في حين أن مرضه لم يستغرق أكثر من عدة أيام في واقعة عاشوراء. ومن الطبيعي أن كل إنسان يمرض في حياته عدة أيام، وإن كان مرض الإمام للمصلحة الإلهية حتى لا يكلف هذا العظيم بالدفاع والجهاد في سبيل الله في تلك الأيام ليستطيع في المستقبل أن يحمل الحمل الثقيل للأمانة والإمامة على عاتقه، ويبقى حيّاً بعد والده لمدة ٣٥ أو ٣٤ سنة ويقضي فترة أصعب

عصور الإمامة عند الشيعة. أنتم عندما تنظرون إلى ماضي حياة الإمام السجّاد عليه السلام سوف تجدون حوادث متنوعة وملفتة جداً، كما حدث لبقية أئمتنا، وربما إذا جمعنا سير الأئمة عليهم السلام معاً فلن نجد مثل سيرة السجّاد عليه السلام.

إن سيرة كل إنسان بالمعنى الواقعي للكلمة تتضح عندما نعرف التوجه العام الذي سار عليه ومن بعدها نقوم بملاحظة الحوادث الجزئية في حياته. فإذا عرف التوجه العام فإن الحوادث الجزئية سوف تصبح ذات معنى، أما إذا لم يعرف ذلك التوجه العام أو فهم خطأ فإن تلك الحوادث الجزئية سوف تصبح بدون معنى أو بمعنى خاطئ. وهذا لا يختص فقط بالإمام السجّاد عليه السلام أو سائر أئمتنا عليهم السلام بل أن هذا يصدق وينطبق على سيرة كل إنسان.

مثلاً في خصوص الإمام السجّاد عليه السلام نجد رسالته إلى محمد بن شهاب الزهري تعتبر نموذجاً لإحدى الحوادث في حياته. فلو أخذنا هذه الحادثة بنفسها وبمعزل عن بقية الحوادث في تلك المرحلة، لا يمكن أن نفهم شيئاً. فقد تفهم هذه الرسالة على أنها من أحد الذين ينتسبون إلى آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأحد العلماء المعروفين في ذلك الزمان وهي تمثّل جزءاً من جهاد واسع وأساسي، ويمكن أن تكون صادرة عن مفكّر عادي، أو يمكن أن تكون اعتراض شخصية على شخصية أخرى كالاعتراضات التي تشاهد على طول التاريخ بين شخصيتين أو عدة أشخاص. وهذا ما أردت أن أشير إليه في هذه المسألة وهو أننا إذا التفتنا إلى الحوادث الجزئية وقطعنا النظر عن التوجه العام في حياة الإمام فلن تفهم سيرته فالمهم أن نعرف التوجه العام.

نذكر بحثنا الأول حول التوجه العام للإمام السجّاد عليه السلام في الحياة ونقرنه بكلماته وحياته، وأيضاً بالمفهوم العام لحياة الأئمة عليهم السلام ثم نوضحه.

التوجه العام للأئمة عليهم السلام

نحن نشاهد بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام الذي وقع في السنة الأربعين للهجرة، أن أهل البيت لم يلتزموا بالبقاء داخل البيت والاقتصار على بيان الأحكام الإلهية فقط، بل نجد منذ أول أيام الصلح أن برنامج كل الأئمة عليهم السلام كان يقوم على تهيئة المقدمات لإقامة الحكومة الإسلامية التي يرونها هم.

وهذا ما نلحظه بوضوح في حياة الإمام المجتبى عليه السلام وكلماته.

بعد أن صالح الإمام الحسن معاوية، فان الجهال، والمغفلين تعرضوا له بألسنة مختلفة: أحياناً اعتبروه مذل المؤمنين وكانوا يقولون: إنك جعلت المؤمنين المتحمسين لمواجهة معاوية بصلحك وتسليمك له أذلاء، وأحياناً يصفونه بتعابير أكثر تأدباً واحتراماً ولكنها تحمل نفس المضمون.

الإمام الحسن عليه السلام قال مواجهاً هذه الاعتراضات والملامات (ولعلّنا لا نجد أدق وأفضل من جملته هذه في بقية أحاديثه):

﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾(١).

وهو مضمون آية قرآنية.

وهذا يدل بوضوح على أن الإمام عليه السلام كان ينتظر المستقبل، وهذا الآتي الذي ينتظره ليس إلا الزوال الحتمي للحكومة الجائرة الباطلة وحلول حكومة العدل مكانها. ولهذا كان يقول لهم إنكم لا تعلمون شيئاً من الحكمة في هذا العمل، فلعل الصلاح يأتي معه.

في بداية الصلح جاء اثنان من زعماء الشيعة (مسيب بن نجية وسليمان بن الصرد) مع جماعة من المسلمين إلى الإمام الحسن عليه السلام وقالوا: نحن نمتلك قوة كبيرة، من خراسان ومن العراق ونحن سوف نجعلهم تحت طاعتكم ومستعدون أن نتعقب معاوية حتى الشام. فطلبهم الإمام عليه السلام

في خلوة وتحدث معهم قليلاً، وبعد أن خرجوا هدأوا وتركوا قواتهم ولم يعطوا أي جواب واضح للذين كانوا معهم.

ادّعى طه حسين أن هذا اللقاء في الحقيقة قد وضع حجر الأساس الأصلي لجهاد الشيعة، أي أن الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جلس معهم وشاورهم، وفي هذا اللقاء أسس التشكيلات الشيعية العظيمة.

ويتضح هذا المعنى في حياة الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ من خلال كلماته. ففي تلك المرحلة لم تكن أرضية القيام مهيئة لأن وعي الناس ورشدهم كان قليلاً، وإعلام العدو وإمكاناته المادية كانت كثيرة جداً. كان العدو يستفيد من أساليب لم يكن بمقدور الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ استعمالها، مثل إعطاء الأموال بدون حساب وجمع الأفراد غير الصالحين، وهذا ما لا يفعله الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقد كانت يد معاوية مبسوطة ويد الإمام مغلولة.

لهذه الجهة كان عمل الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ عملاً أساسياً وعميقاً جداً. لقد عاش الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ مع كل تلك التحولات عشر سنوات، في هذه المدة اجتمع حوله أفراد وتربوا على يديه. توزع قسم منهم في كل زاوية لمواجهة نظام معاوية وإضعافه بشهادتهم واعتراضاتهم وصرخاتهم.

وبعده وصل الدور إلى الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي تابع هذا النهج في المدينة ومكة وأماكن أخرى حتى مات معاوية وجرت واقعة كربلاء. وإن كانت هذه الحادثة نهضة عظيمة الفائدة للإسلام في المستقبل، ولكنها على كل حال أخرت الهدف الذي كان يتابعه كل من الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ والإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ. ولأجل إرعاب الناس فقد تعرضوا لأتباع الإمام الحسن والإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتنكيل والقمع.

لو لم تكن نهضة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الشكل فإننا نستشعر في المستقبل القريب إمكانية للحركة التي تجعل الحكومة بيد الشيعة. بالطبع هذا الحديث لا يعني أن هذه النهضة ما كان ينبغي أن تحدث، بل أن

الظروف حينها كانت تقتضي قيامها وليس في هذا أدنى شك. لكن لو لم تكن تلك الظروف ولو لم يقتل الإمام الحسن عليه السلام شهيدا، لكان الاحتمال الكبير أن يحدث ما كان يأمله الإمام الحسن عليه السلام بسرعة.

وفي هذا الصدد يوجد رواية آتي على ذكرها، ففي الكافي ينقل أبو حمزة الثمالي (عن الإمام الباقر عليه السلام): سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول:

«يا ثابت إن الله تبارك وتعالى كان قد وقّت هذا الأمر في السبعين».

هذا الأمر: يعني حكومة وولاية أهل البيت عليهم السلام، وفي كافة الروايات التي وردت فيها كلمة «هذا الأمر»، (أو لنقل في أغلب الروايات التي استعملت فيها هذه الكلمة) كان المقصود منها حكومة أهل البيت عليهم السلام وفي بعضها كان المعنى هو القيام بالتحديد. على كل حال«هذا الأمر» تعني في هذا الحديث ذلك الموضوع الذي كان رائجاً بين اتباع التشيّع واتباع الإمام ومعمولاً به حيث جرى الحديث عنه لسنوات وخطط له كثيراً.

يقول الإمام الباقر عليه السلام في هذه الرواية أن السنة كانت السبعين يعني عشر سنوات بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، ثم يقول:

«فلما أن قتل الحسين صلوات الله عليه اشتد غضب الله تعالى على أهل الأرض إلى أربعين ومئة». أي ثماني سنوات قبل شهادة الإمام الصادق عليه السلام. ولي في باب سيرة الإمام الصادق عليه السلام حول هذه الكلمة «مئة وأربعين» بحث مفصل، وأتصور أنه القائم وولي الأمر الذي كان ينبغي أن يقوم ويحق الحق، ولكن في ذلك الوقت قام بنو العباس بحركتهم العجولة، ولأجل الدنيا وهوى النفس، بالاستفادة من كل أسلوب، وأضاعوا فرصة العمل من يد أهل البيت بحيث تأخر الوعد المقرر أيضاً.

ثم يقول في الرواية:

«فحدثناكم فأضعتم الحديث وكشفتم الستر (أو قناع السر في نسخة أخرى) ولم يجعل الله له بعد ذلك وقتاً عندنا، ويمحو الله ما يشاء ويثبت

وعنده أم الكتاب».

وفي عقيدتنا الإسلامية لا يوجد أدنى شك في أن ما يفرض بصورة مسلّمة للمستقبل قابلاً للتغيير من ناحية الرب والقدرة الإلهية.

يقول أبو حمزة:

«حدّثت بذلك أبا عبد الله عليه السلام فقال: **كان كذلك**»،ومن هذه الفئة من الروايات يوجد الكثير، وإن كانت هذه الرواية هي الأوضح من الجميع.

لقد كان الأئمة عليهم السلام وراء هذا الخط وهذا الهدف وكانوا يسعون دائماً لأجل تشكيل الحكومة الإسلامية.

عندما استشهد الإمام الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء وأسر الإمام السجّاد عليه السلام وهو في تلك الحالة من المرض، بدأت في الحقيقة منذ تلك اللحظة مسؤولية الإمام السجّاد عليه السلام . ولو قدر في ذلك التاريخ أن ينجح الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام في تأمين ذلك المستقبل لقام الإمام السجاد عليه السلام في ذلك الوقت بالتحديد بهذا الأمر ومن بعده الأئمة الباقون عليهم السلام .

بناء على هذا، ينبغي أن نبحث في مجمل حياة الإمام السجّاد عليه السلام عن هذا الهدف الكلي والمنهج الأصلي، وأن نعرف بدون شك أن الإمام السجّاد عليه السلام كان يسعى لأجل تحقق ذلك الهدف الذي كان يسعى لأجله الإمام الحسن والإمام الحسين عليه السلام .

الصورة العامة لحياة الإمام السجاد عليه السلام

كان الإمام السجاد عليه السلام في الفترة ما بين استلامه للإمامة منذ عاشوراء ٦١هـ. واستشهاده مسموماً عام ٩٥ هـ. يتابع مسؤولية تحقق هدف إقامة حكومة أهل البيت. لذلك ينبغي أن نفسر جزئيات عمل الإمام والمراحل التي مرّ بها والأساليب التي استعملها والتوفيقات التي حصلت وكل

الأمور التي بينها وكل التحركات التي قام بها والأدعية والمناجات التي جمعت في الصحيفة السجادية... كل هذا ينبغي أن يفسّر بالنظر إلى الخط العام. ومنها المواقف التي اتخذها طوال مدة الإمامة:

١ ـ موقفه من عبيد الله بن زياد ويزيد، الذي تميز بالبطولة والشجاعة والفداء.

٢ ـ موقفه من مسرف بن عقبة الذي تميز بالهدوء، هذا الرجل الذي قام بتدمير المدينة واستباح أموالها بأمر من يزيد في السنة الثالثة من حكمه.

٣ ـ حركة الإمام مقابل عبد الملك بن مروان أقوى خلفاء بني أميّة وأمكرهم حيث تميز موقفه بالشدّة حيناً والإعتدال حيناً آخر.

٤ ـ موقف الإمام عليه السلام من عمر بن عبد العزيز.

٥ ـ تعامل الإمام مع أصحابه وأتباعه ووصاياه لأصدقائه.

٦ ـ موقف الإمام من وعّاظ السلاطين وأعوان الظلمة.

كل هذه المواقف والتحركات ينبغي أن تدرس بدقة. ووفق تصوري أرى أنه بالالتفات إلى النهج العام فإن كل هذه الجزئيات والحوادث سوف تكتسب معاني مناسبة وواضحة. وسوف نجد عندها أن هذا الإنسان العظيم قد قضى كل حياته وسعيه في طريق الهدف المقدس وهو إقامة حكومة الله على الأرض وتطبيق الإسلام، وقد استفاد من أنضج وأفضل الوسائل، وتقدّم بالقافلة الإسلامية التي كانت بعد واقعة عاشوراء في تشرذم وتفرّق مهول، وأنجز مهمته العظمى ومسؤوليته الأصيلة (التي سوف نشير إليها بالتفصيل لاحقاً)، والتي قام بها كل الأئمة وجميع الأنبياء والصالحين، مراعياً أصول السياسة والشجاعة والدقّة في الأعمال. وبعد ٣٥ سنة من الجهاد المستمر الذي لم يعرف الراحة أبداً رحل عن الدنيا كريماً مرفوع الرأس موكلاً حمل ثقل الرسالة من بعده إلى الإمام الباقر عليه السلام .

إن انتقال الإمامة إلى الإمام الباقر عليه السلام وهي تحمل مهمة إقامة

حكومة الله على الأرض تظهر بصورة واضحة في الروايات. ففي رواية نجد أن الإمام السجاد عليه السلام يجمع أبناءه مشيراً إلى محمد بن علي الباقر عليه السلام ويقول:

«إحمل هذا الصندوق وخذ هذا السلاح وهذه الأمانة بيدك».

وحينما فتح الصندوق كان فيه القرآن والكتاب.

تصوّري أن ذلك السلاح يرمز إلى القيادة الثورية وذلك الكتاب يرمز إلى الفكر والعقيدة الإسلامية، وقد أودعهما الإمام السجاد عليه السلام الإمام الذي سيأتي من بعده مودعاً الدنيا راحلاً إلى جوار الرحمة الإلهية بنفس مطمئنة ووجدان هادئ ورأس مرفوع.

كانت هذه هي الصورة العامة لحياة الإمام السجاد عليه السلام. ولكن إذا أردنا أن ندرس تفاصيل الأحداث علينا أولاً أن نمهّد لها بالوضع السابق لها إذ يوجد في حياة الإمام السجاد فصل قصير ومحدّد نذكره أولاً ثم نقوم بعدها بشرح المسير العادي لحياة الإمام وتفصيل الأوضاع وأحوال الزمان والظروف التي كانت سائدة.

الفصل المصيري هو مرحلة ما بعد كربلاء، فصل الأسر الذي كان قصيراً ومؤثراً جداً ومعبّراً حيث نشاهد الصلابة والقوة في شدة الأسر. لقد كان الإمام السجاد عليه السلام يرسم ملحمة بطولية عظيمة بأقواله وأفعاله خلال فترة الأسر والمرض هذه والتي تعتبر فترة مختلفة تماماً عن المرحلة الأساسية من حياته حيث بدأ يعمل على البنية التحتية باعتدال ودقة وهدوء، حتى أنه كان يجلس أحياناً مع عبد الملك بن مروان في مجلس واحد ويتصرف معه تصرفاً معتدلاً. أمّا في هذا الفصل فإننا نشاهد الإمام بصورة ثورية هادرة لا يسكت على أي حديث صغير، وكان أمام الملأ يردّ بأجوبة تزلزل أركان العدو.

في سوق الكوفة أيضاً وبصوت واحد وزمان واحد يخطب الإمام وهو وعمته زينب وأخته سكينة فيثورون الناس ويفشون الحقائق.

وفي الشام، في مجلس يزيد أو في المسجد أمام جمع الناس يبين الإمام الحقائق بأبلغ بيان وتضمّنت خطبه وكلماته حقانية أهل البيت بالخلافة وأفشت جرائم النظام الحاكم، وبينت مدى التخدير الشديد الذي يمارسه النظام ضد الناس الغافلين. ولا يوجد مجال هنا لذكر الخطبة وإماطة جزء من اللثام عن معانيها لأن هذا عمل مستقل ومنفصل عن موضوعنا ولكن ينبغي لكل من يريد أن يفسر هذه الخطبة أن يدرسها كلمة كلمة مع الالتفات إلى هذه الأصول. تلك كانت حالة الإمام السجاد عليه السلام في مرحلة الأسر العصيبة.

مرحلة ما بعد الأسر

يطرح هنا سؤال وهو: لماذا يقوم الإمام السجاد عليه السلام في مرحلة ما بعد الأسر بالاعتدال والتقية ويغطي بالدعاء والأعمال المعتدلة على التحركات الثورية والشديدة، وفي مرحلة الأسر يتصرف بشدة وقوة ووضوح؟

والجواب أن مرحلة الأسر كانت فصلاً استثنائياً حيث كان على الإمام السجاد عليه السلام، وبمعزل عن كونه إماماً أن يهيئ أرضية التحرك لإقامة الحكومة الإلهية والإسلامية، وكان اللسان الناطق للدماء المسفوكة في عاشوراء، فالإمام السجاد عليه السلام لم يكن هنا في حقيقته بل كان لسان الحسين عليه السلام الصامت الذي تجلّى في هذا الشاب الثوري في الشام والكوفة. فلو لم يكن الإمام السجاد عليه السلام شديداً وحاداً وصريحاً في بيان القضايا فلن يبقى في الحقيقة مجال لعمله المستقبلي. لأن مجال عمله المستقبلي ينطلق من دم الحسين بن علي عليه السلام الهادر كما أن دم الحسين كان أيضاً أرضية للنهضات الشيعية في طول التاريخ:

وهكذا ينبغي أن يبدأ العمل أولاً بتحذير الناس، ثم في ظل هذا التحذير تبدأ المعارضة الأصولية والعميقة والبعيدة المدى، ولا يمكن أن يتحقق هذا

التحذير إلا باللهجة الحادة والشديدة.

لذلك كان دور الإمام السجاد عليه السلام في هذه المرحلة ودور زينب عليها السلام بيان ثورة الحسين بن علي عليه السلام: إذ أن معرفة الناس بقتل الحسين ولماذا قتل وكيف قتل سوف تؤثر على مستقبل الإسلام ومستقبل دعوة أهل البيت عليهم السلام، وكان ينبغي بذل الجهود الكبيرة لأجل نشر هذه الحقائق على مستوى المجتمع. لهذا تحرك الإمام السجاد(ع) في هذا الاتجاه مثل سكينة وفاطمة الصغرى ومثل زينب نفسها ومثل كل أسير (كل بقدر استطاعته). لقد اجتمعت كل هذه الطاقات حتى تنشر دم الحسين المسفوك في الغربة في كل المناطق الإسلامية التي مرّوا بها من كربلاء إلى المدينة. وحين دخل الإمام السجاد عليه السلام إلى المدينة كان عليه أن يبين الحقائق أمام العيون والأنظار منذ وصوله، فكان هذا الفصل القصير مقطعاً استثنائياً في حياته.

المقطع التالي يبدأ حين يباشر الإمام السجاد عليه السلام حياته في المدينة كمواطن، ويبدأ عمله من بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحرمه. ولأجل بيان برنامج الإمام نحتاج إلى دراسة الأوضاع التي كانت سائدة وظروف زمانه أيضاً.

حتى نحدد كيف بدأ الإمام السجاد عليه السلام حركته وبأي هدف وتكتيكات، يلزم أن نحقق في الوضع العام لاتباع الأئمة المخالفين والمعارضين لنظام حكم خلفاء بني أمية، وهذا يعتبر فصلاً مستقلاً في حياة الإمام السجاد عليه السلام إذا استطعنا أن ندخل في بحثه بالتفصيل فسوف نحل الكثير من المشكلات والمسائل المرتبطة بحياته، ثم نصل بعدها إلى تفاصيل ما أقدم عليه الإمام وقام به.

الأرضية الاجتماعية

عندما جرت واقعة كربلاء سيطرت على كافة العالم الإسلامي، وخاصة عندما وصل الخبر إلى الحجاز والعراق، حالة من الرعب والخوف الشديد بين الشيعة وأتباع الأئمة، لأنهم شعروا أن حكومة يزيد لا تتورع عن ارتكاب أي شيء لإحكام قبضتها على كل شيء حتى ولو كان قتل الحسين بن علي عليه السلام سبط الرسول المعروف بالعظمة والاعتبار والقداسة في كافة أنحاء العالم الإسلامي. هذا الرعب الذي ظهرت آثاره في الكوفة والمدينة بلغ ذروته بعد مرور زمان معين إثر وقوع عدة حوادث أخرى - إحداها حادثة الحرة - فسيطر جو القمع الشديد في منطقة نفوذ أهل البيت عليهم السلام في الحجاز (وخاصة المدينة) وفي العراق (وخاصة الكوفة). فضعفت الاتصالات وصار أتباع الأئمة والمعارضون القلة لنظام بني أمية في حالة ضعف وعدم ثبات.

وتنقل رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في الحديث عن الوضع في ذلك الزمان: **«ارتدّ الناس بعد الحسين عليه السلام إلا ثلاثة»**.

وذُكر في رواية أنهم خمسة وفي البعض أنهم سبعة.

وفي رواية عن الإمام السجاد عليه السلام - يرويها أبو عمر المهدي - يقول سمعت عن الإمام أنه قال:

«وما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبنا».

وقد نقلت هذين الحديثين حتى يتضح الوضع العام لعالم الإسلام بالنسبة للأئمة وأتباعهم. فهذا القمع الذي حدث أوجد مثل تلك الحالة التي صار فيها أتباع الأئمة عليهم السلام متفرقين آيسين خائفين لا يملكون القدرة على التحرك. ولكن في تلك الرواية يكمل الصادق عليه السلام القول:

«ثم إن الناس لحقوا وكثروا».

التنظيمات السرية

لو أردنا أن نفصّل هذه القضية المذكورة أكثر لكانت على هذا النحو: بعد واقعة شهادة الإمام الحسين عليه السلام صار الناس في خوف ورعب لكن ليس إلى درجة زوال التنظيمات التي أعدها أتباع الأئمة. ودليل ذلك أننا نرى في الوقت الذي جاءوا بأسرى كربلاء إلى الكوفة، شوهدت التحركات التي تدل على وجود التنظيمات الشيعية.

وبالطبع عندما نتحدث عن «التنظيمات الشيعية السرية» لا نقصد النمط الموجود للتنظيمات في هذا العصر، بل المقصود تلك الروابط العقائدية التي كانت تصل الناس بعضهم ببعض وتحملهم على التضحية والأعمال السرية، والتي تؤلف في أذهاننا مجموعة واحدة.

في تلك الأيام التي كان أهل البيت عليهم السلام في الكوفة يسقط في إحدى الليالي حجرٌ في السجن الذي كانوا فيه، وإذ بالحجر ورقة كُتب عليها: «لقد أرسل حاكم الكوفة رجلاً إلى يزيد في الشام حتى يعلم ماذا يفعل بكم. فإذا سمعتم غداً ليلاً صوت تكبير فاعلموا أنكم ستقتلون ها هنا وإذا لم تسمعوا فاعلموا أن الوضع سيتحسن».

عندما نسمع مثل هذه القصة ندرك جيداً وجود شخص من أعضاء هذه التنظيمات داخل الجهاز الحاكم لابن زياد وهو مطلع على ما يجري، ويمكنه أن يصل إلى السجن ويوصل صوته إليه.

مثال آخر: عبد الله بن عفيف الأزدي الرجل الأعمى الذي قام بردة الفعل الأولى عند ورود الأسرى إلى الكوفة وأدى ذلك إلى استشهاده. وكذلك ما رأيناه في الشام عندما التقى الناس بأهل البيت من البكاء والتلاوم وقد تكررت هذه الحوادث في مجلس يزيد أيضاً.

بناء على هذا، ومع فرض جو من القمع الشديد بعد هذه الحادثة لم

ينهدم نظام عمل أتباع أهل البيت عليهم السلام ولم يحصل لهم التشتت والضياع. ولكن بعد وقوع حوادث أخرى ازداد جو القمع أكثر ومن هنا يمكن ربط الحديث «إرتد الناس بعد الحسين» بالحوادث التي وقعت بعده.

وخلال هذه المرحلة ـ قبل وقوع الحوادث الأخرى ـ قام الشيعة بإعادة الإنسجام السابق والاستعداد.

وينقل الطبري قائلاً:

«فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد لها» وهو يقصد الشيعة في طلب الثأر لدماء الحسين بن علي عليه السلام. وازداد عددهم يوماً بعد يوم حتى مات يزيد بن معاوية.

ولهذا نجد مع كل هذا الضغط والقمع الشديد استمرار التحركات ـ كما ينقل الطبري ـ ولعله لهذا السبب يقول مؤلف كتاب «جهاد الشيعة» (وهو كاتب غير شيعي ولا يمتلك رؤية واقعية تجاه الإمام السجاد عليه السلام ولكنه أدرك هذه الحقيقة):

«أصبح الشيعة بعد شهادة الحسين عليه السلام كتنظيم واحد تجمعهم الاعتقادات والروابط السياسية ويعقدون الاجتماعات ولهم القادة والقوى العسكرية. وكان التّوابون أول مظهر لهذه التنظيمات».

وهكذا شعرنا مع تسلّل الضعف إلى التنظيمات الشيعية إثر حادثة عاشوراء إن هذه التحركات في مقابل هذا الوضع استمرت بنشاط لإعادة هذا التنظيم إلى سابق عهده إلى أن جرت «واقعة الحرة». وبرأيي فإن واقعة الحرة كانت مفصلاً عظيماً في تاريخ التشيع وضربة كبيرة جداً له.

لقد جرت هذه الواقعة سنة ٦٣ للهجرة. وتفصيلها باختصار أنه في سنة ٦٢هـ وُلّي أحد شباب بني أمية على المدينة ففكر لاستمالة قلوب الشيعة في المدينة أن يدعو بعضهم إلى ملاقاة يزيد. فدعى بعض أشراف المسلمين

والصحابة ـ الذين كانوا في معظمهم من محبي الإمام السجاد عليه السلام ـ إلى الشام للقاء يزيد والاستئناس به، فذهبوا إلى الشام والتقوا به ومكثوا عدة أيام وأعطاهم يزيد مبالغ كبيرة من المال (بمقدار ٥٠ ألف درهم أو مئة ألف) ثم رجعوا إلى المدينة.

عندما عادوا إلى المدينة ـ ولأنهم رأوا الفجائع في بلاط يزيد ـ بدأوا بانتقاده والتهجم عليه. وانقلبت القضية، فبدلاً من مدحه والثناء عليه بدأوا بالتشهير به وقالوا للناس: كيف يمكن أن يكون يزيد خليفة وهو شارب للخمر ويلاعب الكلاب والقردة ويمارس أنواع الفسق والفجور. إننا نخلعه عن الخلافة.

وكان على رأس هؤلاء عبد الله بن حنظلة الذي دعا الناس إلى القيام على يزيد وخلعه. فأدت هذه الحركة إلى أن يأمر يزيد أحد قادته من بني أمية ويدعى «مسلم بن عقبة» بالإسراع إلى المدينة وإخماد الثورة فيها. فقدم ابن عقبة وحاصرها عدة أيام ثم دخلها وارتكب فيها أبشع وأفجع الجرائم التي لم يحدث مثلها في تاريخ الإسلام.

وقد عُرف بعد هذه الحادثة المفجعة باسم «مسرف بن عقبة».

مجريات وتفاصيل هذه الحادثة كثيرة ولا أريد هنا أن أشرح ما جرى، ولكن يكفي أن أقول أنها أصبحت أكبر وسيلة لإرعاب محبي وأتباع أهل البيت، خاصة في المدينة التي هرب منها من هرب وقتل آخرون، بعضهم من أصحاب أهل البيت الخيرين كعبد الله بن حنظلة.

لقد وصل هذا الخبر إلى كافة أقطار العالم وعُلِم أن النظام الحاكم سوف يقف بقوة أمام أية حركة من هذا القبيل.

الحادثة الأخرى التي أدت إلى إضعاف الشيعة هي حادثة شهادة المختار في الكوفة وتسلط عبد الملك بن مروان على كافة العالم الإسلامي.

فبعد موت يزيد، تبعه خلفاء لم يدوموا في الحكم إلا فترات قليلة

كمعاوية بن يزيد الذي لم يحكم أكثر من ثلاثة أشهر، ثم مروان بن الحكم الذي حكم لمدة سنتين أو أقل ثم وصل الأمر إلى عبد الملك الذي كان أكثرهم تدبيراً كما جاء بشأنه.

«كان عبد الملك أشدهم شكيمة وأقساهم عزيمة».

فاستطاع أن يقبض على زمام أمور العالم الإسلامي بيده ويوجد نظاماً إرهابياً وقمعياً وكان إمساكه بزمام الأمور متوقفاً على القضاء على خصمائه. فالمختار الشيعي قد صُفّي قبل مجيئه على يد مصعب بن الزبير. ولكن عبد الملك أراد أن يضع نهاية لاستمرار حركة المختار وغيره في عالم التشيع. وبالفعل قام بذلك، حتى عانى الشيعة في العراق وخاصة الكوفة التي كانت في ذلك الوقت أهم مراكزهم أشد معاناة.

على كل حال، لقد بدأت هذه الحوادث من واقعة كربلاء ثم تتالت: من قبيل واقعة الحرة والقضاء على حركة التوابين في العراق وشهادة المختار وشهادة إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي وآخرين عظام من الشيعة. وبشهادتهم طغى جو من القمع والخوف الشديد على المراكز الشيعية في المدينة والكوفة وحلت غيوم الغربة والوحدة على المكان.

مواقف الإمام في مراحل القمع

يظن البعض إن الإمام فيما لو أراد أن يقاوم نظام بني أمية لكان ينبغي أن يرفع راية المقاومة العسكرية، أو أن يلتحق بالمختار أو عبد الله بن حنظلة أو أن يقودهما معلناً بذلك المقاومة المسلحة بكل وضوح. لكننا نفهم من خلال النظر إلى ظروف زمان الإمام السجاد عليه السلام أن هذا ظنٌّ خاطئ وذلك بالالتفات إلى هدف الأئمة عليهم السلام الذي سأبينه لاحقاً.

لو قام الأئمة عليهم السلام ، ومن جملتهم الإمام السجاد عليه السلام في تلك

الظروف بمثل هذه التحركات العلنية والسلبية، فباليقين لما بقي للشيعة باقية، ولما بقيت الأرضية أو فسح المجال لاستمرار ونمو مدرسة أهل البيت ونظام الولاية والإمامة فيما بعد. لهذا نجد أن الإمام السجاد عليه السلام في قضية المختار لم يعلن التعاون معه، وبرغم ما جاء في بعض الروايات عن ارتباط سري بينهما إلاّ أنه وبدون أدنى شك لم يكن ارتباطاً علنياً، حتى قيل في بعض الروايات أن الإمام السجاد عليه السلام كان يذم المختار ويبدو هذا الأمر طبيعياً جداً من ناحية التقية وذلك حتى لا يُشعر بوجود أي ارتباط بينهما، مع العلم بأن المختار فيما لو انتصر فإنه بالتأكيد كان سيعطي الحكومة لأهل البيت عليهم السلام، ولكن في حال هزيمته، ومع وجود أدنى ارتباط واضح وعلني، لكانت النقمة شملت وبشكل قطعي الإمام السجاد عليه السلام وشيعة المدينة واجتثت جذور التشيع أيضاً. لأجل ذلك لم يُظهر الإمام أي نوع من الارتباط العلني معه.

جاء في رواية أنه عندما دخل مسلم بن عقبة إلى المدينة في واقعة الحرة، لم يشك أحد على الاطلاق في أن أول شخص سيقع ضحية نقمته هو علي بن الحسين عليه السلام، لكن الإمام السجاد بتدبيره الحكيم تصرف بحيث دفع هذا البلاء عنه، وبذلك حافظ على استمرار المحور الأصلي للشيعة.

وهناك روايات في بعض الكتب. منها «بحار الأنوار». تحكي عن إظهار التذلل من قبل حضرة السجّاد عليه السلام عند مسلم بن عقبة، ولكنني بالقطع أكذب هذه الروايات وذلك للأسباب التالية:

اولاً: لاتستند هذه الروايات إلى أي سند صحيح.

ثانياً: يوجد روايات أخرى تكذبها وتدفعها من حيث المضمون.

ففي لقاء الإمام عليه السلام مع مسلم بن عقبة يوجد روايات عديدة لا تنسجم أية واحدة منها مع الأخرى، ولأن بعض تلك الروايات تنطبق وتنسجم أكثر مع نهج الأئمة وسيرتهم، فنحن بصورة طبيعية نقبلها.

على كل حال، مع أننا لا نقبل تلك الروايات التي تتحدث عن صدور مثل هذه الأفعال من الإمام ولكننا لا نشك أيضاً في أن الإمام لم يقابل مسلم بن عقبة بتصرف معاد، لأن أي تصرف من هذا القبيل سوف يؤدي إلى قتل الإمام، وهذا سيؤدي بدوره إلى خسارة عظيمة لا تجبر بلحاظ الدور الذي ينبغي أن يقوم به الإمام السجاد بالنسبة لثورة الإمام الحسين عليه السلام وتبليغ حقيقتها. لهذا يبقى الإمام . وكما قرأنا في رواية الإمام الصادق عليه السلام . ويلحق الناس به شيئاً فشيئاً ويزداد عددهم. وفي ظل تلك الظروف الصعبة وغير المساعدة يبدأ عمل الإمام السجاد عليه السلام .

في تلك الفترة ساد حكم عبد الملك ـ الذي شمل أكثر مراحل الإمامة لمدة تجاوزت الثلاثين سنة ـ وكان نظامه يقوم بالرصد التام والمراقبة الدائمة لحياة الإمام السجاد عليه السلام ، ويستخدم الجواسيس والعيون الكثيرة التي كانت تنقل إليه أدق التفاصيل حتى المسائل الداخلية والخاصة للإمام.

فمثلاً كان للإمام السجاد عليه السلام جارية تزوجها بعد أن اعتقها. وصل هذا الخبر إلى عبد الملك، فكتب رسالة إلى الإمام السجاد عليه السلام أراد أن يفهمه فيها أنه مطلع على أعماله ومجريات حياته، وكان يريد ضمن ذلك أيضاً أن يقوم بنوع من التفاخر والاستعلاء، فيكتب للإمام ان هذا العمل ليس من سيرة قريش وأنت من قريش فما كان ينبغي أن تفعل هذا! فيجيبه الإمام جواباً شديداً مظهراً عدم تقبله لتصرف عبدالملك الممتزج بالتودد والمكر.

أهداف الإمام

بعد أن توضحت ساحة عمل الإمام السجّاد عليه السلام أشير بشكل مختصر إلى الهدف والمنهج الذي اعتمده الأئمة. وبعد ذلك نقوم بدراسة جزئيات حياة هذا الإمام فيما يتعلق بهذا النهج.

بدون شك كان الهدف النهائي لحضرة السجاد عليه السلام إيجاد الحكومة الإسلامية وكما جاء في كلام الصادق عليه السلام بأن الله تعالى وقّت عام ٧٠ لقيام الحكومة الإسلامية، ثم بسبب قتل الإمام الحسين عليه السلام سنة ٦٠ فإن الله أخّرها إلى سنة ١٤٧ ـ ١٤٨، فهذا يحكي بشكل واضح عن أن الهدف النهائي للإمام السجاد وسائر الأئمة هو إيجاد الحكومة الإسلامية. ولكن كيف يمكن أن تقام الحكومة الإسلامية في مثل تلك الظروف؟ إن هذا يحتاج إلى عدة أمور:

١ ـ ينبغي أن تدوّن وتدرس وتنتشر المدرسة الإسلامية الحقيقية التي يحمل علمها الأئمة عليهم السلام، هذه المدرسة التي هي أيضاً المبنى الأساس للحكومة الاسلامية.

إذ كيف يمكن أن تقام حكومة مبنية على أساس الفكر الإسلامي الأصيل، والمجتمع الإسلامي قد أبعد لسنوات طويلة عن الفكر الإسلامي الصحيح إضافة إلى أنه لم يكن هناك أية ظروف مساعدة لنشره وتثبيت أركانه بين الناس.

إن أعظم الأدوار التي مارسها الإمام السجاد عليه السلام هي أنه دوّن الفكر الأصيل للإسلام: كالتوحيد، والنبوة، وحقيقة المقام المعنوي للإنسان، وارتباطه بالله، وأهم دور أدته الصحيفة السجادية هو في هذا المجال. فانظروا إلى هذه الصحيفة، ثم جولوا ببصركم في أوضاع الناس على صعيد الفكر الإسلامي في ذلك الزمان ستجدون مدى المسافة التي تفصل بين الاثنين.

ففي ذلك الزمان الذي كان المسلمون في كل أنحاء العالم الإسلامي يسيرون نحو الحياة المادية والملذات بدءاً من شخص الخليفة عبد الملك بن مروان إلى العلماء المحيطين به (ومن جملتهم محمد بن شهاب الزهري، وسوف أذكر أسماء علماء البلاط فيما بعد)، نزولاً إلى الجميع الذين كانوا يغوصون في بحر الدنيا والماديات، يقف الإمام السجاد عليه السلام ويقول

مخاطباً الناس.

«أوَلا حر يدع هذه اللماظة لأهلها».

ففي هذه الجملة يوضح الإمام أن الفكر الإسلامي الأصيل كان عبارة عن جعل الهدف للمعنويات والتحرك نحو الوصول إلى الأهداف المعنوية والإسلامية، وجعل الإنسان يرتبط بالله عبر التكليف. وهذا هو الموقف المقابل تماماً لحركة الناس في ذلك الزمن.

كان على الإمام السجاد عليه السلام أن يقوم بعمل كبير لأجل أن يحفظ الفكر الأصيل للإسلام في فضاء المجتمع الإسلامي. وكانت هذه الحادثة بداية أعمال الإمام السجاد عليه السلام .

٢ ـ تعريف الناس على حقانية أولئك الذين ينبغي أن يتسلموا زمام الحكم. إذ كيف يمكن لأهل البيت تشكيل حكومة في الوقت الذي كان الإعلام والتبليغ ضد آل الرسول قد ملأ العالم الإسلامي طوال عشرات السنين حتى عصر الإمام السجاد عليه السلام وفيه ظهرت الأحاديث الموضوعة عن رسول الله والتي تخالف حركة أهل البيت بل إنها في بعض الموارد تشتمل على سبهم ولعنهم، وقد نشرت بين أناس لم يكن لديهم أي اطلاع على المقام المعنوي والواقعي لأهل البيت.

لهذا، فإن أحد الأهداف والتحركات المهمة للإمام كانت ترتبط بتعريف الناس على حقانية أهل البيت وأن مقام الولاية والإمامة والحكومة حق ثابت لهم وهم الخلفاء الواقعيون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وهذا الأمر إضافة لما له من أهمية عقائدية وفكرية فإنه يرتبط بالحركة السياسية المناهضة للنظام الحاكم.

٣ ـ كان على الإمام أن يؤسس بعض الأجهزة والتشكيلات التي يمكن أن تكون منطلقاً أصلياً للتحركات السياسية المستقبلية ففي مجتمع متمزق يعيش تحت أنواع القمع والفقر والتضييع المالي والمعنوي، وبالأخص الشيعة

الذين كانوا يعانون من تضييق متزايد، لم يكن باستطاعة الإمام السجاد عليه السلام أن يقوم وحده أو مع جماعة قليلة وغير منظمة بالثورة والمواجهة. لهذا كان همّ الإمام السجاد عليه السلام أن يبدأ بتشكيل هذه التنظيمات التي كانت برأينا ـ موجودة منذ أيام أمير المؤمنين غير أنها ضعفت وتلاشت إثر واقعة عاشوراء والحرة وثورة المختار.

بالنتيجة نجد أن عمل الإمام كان يدور ضمن ثلاثة محاور:

ـ **الأول**: تدوين الفكر الإسلامي بصورة صحيحة وطبق ما أنزل الله، بعد مرور أزمنة من التحريف والنسيان عليه.

ـ **الثاني**: إثبات حقانية أهل البيت في الخلافة والإمامة.

ـ **الثالث**: إيجاد التشكيلات المنظّمة لاتباع أهل البيت عليهم السلام وأتباع التشيع.

هذه الأعمال الثلاثة هي التي ينبغي أن ندرسها ونبحث فيها لنرى أي واحد منها قد تحقق في حياة الإمام السجاد عليه السلام .

إلى جانب هذه الأعمال كانت هناك أيضاً أعمال أخرى وتحركات قام بها الإمام وأتباعه لأجل اختراق ذلك الجو المرعب والقمعي. ففي ظل الإجراءات الأمنية المشدّدة التي كان يفرضها الحكم نلاحظ مواقف عديدة للإمام أو أتباعه كان الهدف منها كسر حواجز القمع وصناعة بعض الأجواء الملائمة واللطيفة، خاصة مع الأجهزة الحاكمة أو التابعة لها، مثل المواقف التي حدثت بين الإمام وعبد الملك عدة مرات، أو الأمور التي جرت مع العلماء المنحرفين والتابعين لعبد الملك (من قبيل محمد بن شهاب الزهري) كل ذلك لأجل خرق ذلك الجو المتشدد.

إن الباحث عندما يستعرض الروايات سواء الأخلاقية منها أو المواعظ أو الرسائل التي نقلت عن الإمام أو المواقف التي صدرت منه وذلك على أساس ما بيّناه فإنه سوف يجد لها المعاني المناسبة وبتعبير آخر سوف يرى أن

جميع تلك التحركات والأقوال كانت ضمن الخطوط الثلاثة التي أشرنا إليها والتي كانت تصب جميعاً في دائرة إقامة الحكومة الإسلامية. وبالتأكيد لم يكن الإمام يفكر في إيجاد حكومة إسلامية في زمانه لأنه كان يعلم أن وقتها في المستقبل - أي في الحقيقة عصر الإمام الصادق عليه السلام .

ولقد وصلنا في الأبحاث الماضية إلى أن هدف جميع الأئمة عليهم السلام بما فيهم الإمام السجاد عليه السلام كان إقامة الحكومة الإسلامية، وأن تحقيق هذا الهدف استلزم من الإمام السجاد عليه السلام القيام بثلاثة أدوار - بدونها لم يكن من الممكن إقامة هذه الحكومة.

الأول: تعريف الناس على الفكر الإسلامي الأصيل. هذا الفكر الذي دفن تحت تراب النسيان نتيجة حكم الظالمين طوال ذلك الزمان، أو تعرّض للتحريف في عقول المسلمين. فكان على الإمام السجاد عليه السلام أن يقوم بتعريف الناس على الحقائق الإسلامية والأصول الدينية بكل ما أمكنه من قوة وبأكبر درجة تصل إليها أمواج كلماته وتعاليمه.

الثاني: تعريف الناس على حقيقة قضية الإمامة، وبتعبير آخر بيان مسألة الحكومة الإسلامية، والحكم الإسلامي الحقيقي وتوعية المجتمع الإسلامي على حقيقة مجريات ذلك الزمان الذي شهد حكم الظالمين، والكفار والفاسقين، وإفهامه بأن حكومة عبد الملك وأمثالها ليست الحكومة التي يريدها الإسلام. فما دام الناس غير مدركين لهذه القضية ولم يخرجوا من حالة التخدير التي تفاقمت على مرّ الزمان، فإن إقامة الحكومة التي يريدها الإمام السجاد عليه السلام سوف تبقى غير ممكنة.

الثالث: تشكيل مجموعة لتأسيس حزب يكون أعضاؤه كوادر أساسيين لجهاز الإمامة.

وبهذه الأمور الثلاثة سوف تتهيأ أرضية إقامة الحكومة الإسلامية والنظام الإسلامي.

لقد قلت سابقاً وأؤكد ما قلته الآن بأن الإمام السجاد عليه السلام لم يكن يرى أنه سيتم تحقيق الحكومة الإسلامية في زمانه (وهذا بخلاف ما عمل لأجله الإمام الصادق عليه السلام في زمانه)، فقد كان معلوماً بأن الأرضية في عصر الإمام السجاد عليه السلام لم تكن معدة لذلك، وكان الظلم والقمع والجهل كبيرين إلى الدرجة التي تصعب إزالتها خلال هذه السنوات الثلاثين. وكان الإمام السجاد عليه السلام يعمل للمستقبل. ومن خلال القرائن العديدة نفهم أيضاً أن الإمام الباقر عليه السلام لم يكن يهدف إلى إقامة حكومة إسلامية في زمانه، أي أنه منذ سنة ٦١ حتى ٩٥هـ (شهادة الإمام السجاد عليه السلام) ومنذ سنة ٩٥ حتى ١١٤هـ (شهادة الإمام الباقر عليه السلام) لم يسع كل منهما إلى إقامة حكومة إسلامية في زمانه ولهذا كانا يعملان على المدى البعيد.

وسوف نستشهد على ما قلناه بكلمات وبيانات الإمام السجاد عليه السلام لأنها أفضل المصادر وأكثرها أصالة للتعرف على سيرة حياته عليه السلام بل على حياة كل الأئمة عليهم السلام . غاية الأمر . وكما أشرنا سابقاً . أننا نفهم هذه البيانات بصورة صحيحة عندما نطلّع على حركة الأئمة ومقصدهم من الجهاد والمواجهة والسعي والسير، وبغير هذه الصورة قد نفهم معاني هذه الكلمات، التي سوف أبيّنها، بشكل سيء.

والآن بعد أن اطلعنا على بعض تلك الحوادث والتي استفدناها ببركة بيانات الأئمة عليهم السلام وكلماتهم، سوف نعتمد على نفس المصادر وسنرى أية استفادات صحيحة نحصّلها.

قبل أن ندخل في صلب البحث ينبغي أن نذكر بنقطة موجزة: فبسبب مرحلة القمع الشديد التي كان يعيشها الإمام السجاد عليه السلام ، لم يستطع أن يبيّن لنا تلك المفاهيم بصورة واضحة ولذلك كان يستفيد من أسلوب الموعظة والدعاء (خاصة أدعية الصحيفة السجادية التي سوف نتعرض لها فيما بعد والبيانات والروايات التي نقلت عن الإمام عليه السلام والتي كانت

تطغى عليها حالة الموعظة) حيث كان الإمام ضمن بيان الموعظة والنصيحة يبيّن ما أشرنا إليه سابقاً، وبهذا اتّبع الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ منهجاً حكيماً وشديد الحذاقة. وبذلك الأسلوب الذي ظاهره موعظة الناس ونصحهم أدخل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أذهانهم ما يريده، وهذا من أفضل أشكال التعاطي الأيديولوجي والفكري الصحيح.

ما سنقوم بدراسته هنا هو كلمات الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ الواردة في كتاب «تحف العقول» حيث نشاهد عدة أنواع من الأسلوب المذكور والتي تشير إلى طبيعة الجهات المخاطبة.

عامة الناس

أحد تلك الأنواع، البيانات الموجّهة لعامة الناس والتي يظهر فيها أن المستمع ليس من الجماعة المقربة والخاصة للإمام أو من الكوادر التابعين له. وفي هذه الخطابات يستند الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ دائماً إلى الآيات القرآنية، لماذا؟ لأن عامة الناس لا ينظرون إلى الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ كإمام بل يطلبون الدليل في كلماته، ولهذا كان الإمام يستدلّ إما بالآيات أو بالاستعارة من الآيات، حيث استخدم هذا الأسلوب في أكثر من ٥٠ مورداً ذكر في تلك الروايات.

ولكن في الخطاب الموجّه إلى المؤمنين نجد الأمر مختلفاً لأن هؤلاء المؤمنين يعرفون الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ وقوله مقبول عندهم ولهذا لم يكن يستند في كلامه إلى الآيات القرآنية. ولو أحصينا كل كلامه الموجه إليهم لوجدنا أن استخدام الآيات القرآنية فيه قليل جداً.

في رواية مفصلة في كتاب «تحف العقول» تحت عنوان: «موعظة لسائر أصحابه وشيعته وتذكيره إياهم كل يوم جمعة»، نجد هنا أن دائرة المستمعين واسعة وهذا ما نستنتجه من القرائن المفصلة الواردة فيها.

ففي هذه الرواية لم يستخدم الإمام كلمة «أيها المؤمنون» أو «أيها الأخوة»

حتى نعلم أن خطابه موجّه إلى جماعة خاصة ولكنه قال «أيها الناس» وهذا يشير إلى عمومية الخطاب.

ثانياً: لا يوجد في هذه الرواية تصريح بشيء معارض للجهاز الحاكم، بل انصرف كل الخطاب لبيان العقائد، وما ينبغي أن يعرفه الإنسان وذلك بلسان الموعظة.

فالخطاب يبدأ هكذا:

﴿أيها الناس، اتّقوا الله واعلموا أنكم إليه راجعون...﴾.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى العقائد الإسلامية ويوجّه الناس إلى ضرورة فهم الإسلام الصحيح، وهذا يدل على أنهم لا يعرفون الإسلام الصحيح، يريد بذلك إيقاظهم من غفلة الجهل إلى معرفة الإسلام وتعاليمه.

انظروا مثلاً كيف يستفيد الإمام السجاد عليه السلام من أسلوبه الجذاب، حيث يقول: **«ألا وإن أول ما يسألانك عن ربك الذي كنت تعبده»** وبهذا يريد أن يوقظ فيهم الدافع لمعرفة الله وفهم التوحيد، **«وعن نبيك الذي أرسل إليك»**، ثم الدافع لفهم النبوة، **«وعن دينك الذي كنت تدين به، وعن كتابك الذي كنت تتلوه...»** وأثناء عرضه لهذه العقائد الأصيلة وهذه المطالب الأساسية للإسلام كالتوحيد والنبوة والقرآن والدين، يبيّن هذه النقطة الأساسية بقوله عليه السلام: **«وعن إمامك الذي كنت تتولاه»** فهو هنا يطرح موضوع الإمامة، وقضية الإمامة عند الأئمة تعني قضية الحكومة أيضاً، إذ لا يوجد فرق بين الولاية والإمامة على لسان الأئمة عليهم السلام. وإن كان للولي والإمام معانٍ مختلفة عند البعض ولكن هاتين القضيتين - الولاية والإمامة - على لسان الأئمة أمر واحد والمراد منهما واحد. وكلمة «الإمام» المقصودة هنا تعني ذلك الإنسان المتكفل بإرشاد الناس وهدايتهم من الناحية الدينية، وأيضاً المتكفّل بإدارة أمور حياتهم من الناحية الدنيوية، أي خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الناس في إيران وفي الفترة السابقة لعهد الإمام (الخميني) لم يكونوا يعرفون المعنى الحقيقي للإمام ولكن الشعب اليوم أصبح يفهم معناه جيداً، فنحن نقول أن الإمام هو قائد المجتمع، أي ذلك الإنسان الذي نتعلم منه ديننا وتكون بيده أيضاً إدارة دنيانا بحيث تكون إطاعته في أمور الدين وأمور الدنيا واجبة علينا. ولحسن الحظ أن هذا المعنى «للإمام» قد ركز في أذهان الناس بعد الثورة.

في عالم التشيّع تعرضت هذه القضية (دور الإمام) إلى فهم خاطئ. ففي السابق كان الناس يتصوّرون أنّ الإمام يتفرد بحكم المجتمع، وهو الذي ينبغي أن يدير أمور الحياة بيده وبجهده الذاتي: فيحارب ويصالح ويعمل وينفذ كل طلب بنفسه، فهو يأمر الناس وينهاهم من جهة وفي نفس الوقت هو الذي ينفّذ هذه الأمور وحده لإصلاح دينهم! واليوم أيضاً تعرّضت هذه القضية للفهم الخاطئ بحيث أصبحنا نعتبر أن الإمام في عصر الغيبة ليس إلاّ عالماً دينياً، وهذا بالطبع تصور خاطئ.

لفظة «الإمام» تعني المتقدم والقائد. فالإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما كان يخاطب الناس في منى أو عرفات بقوله: «أيها الناس إن رسول الله هو الإمام»، كان يشير إلى أن الإمام هو ذلك الإنسان الذي يتولى أمور الناس الدينية والدنيوية.

في المجتمع الإسلامي أيام حكم عبد الملك بن مروان وفي عصر الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ كان هذا المعنى يفهم بشكل خاطئ. لأن إمامة المجتمع، وهي إدارة شؤون حياة الناس، قد سلبت من أهلها وأعطيت إلى من لا أهلية لهم بها حيث كانوا يلقبون أنفسهم بالأئمة ويعرفهم الناس بذلك. فالناس كانوا يُطلقون لقب الإمام على عبد الملك ومن قبله أبيه وقبلهما يزيد وغيره، وقد قبلوهم على أساس أنهم قادة المجتمع وحكام الناس.

وهكذا عندما كان الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: إنك ستسأل عن إمامك في القبر، كان يشير إلى أنك هل انتخبت الإمام المناسب والصحيح؟

وهل أن ذلك الشخص الذي كان يحكمك، ويقود المجتمع الذي تعيش فيه هو حقاً إمام؟ وهل هو ممن رضي الله عنه؟ لقد كان الإمام بهذا الكلام يوقظ الناس ليجعل هذه القضية في نفوسهم حساسة.

بهذه الطريقة كان الإمام يحيي قضية الإمامة التي لم يكن الجهاز الأموي الحاكم يرضى أبداً بالتطرق إليها في المواعظ وفي الخطابات العامة. (كانت هذه من إحدى الوسائل الهادئة التي استخدمها الإمام في هذا المجال، وسوف نشير لاحقاً إلى أساليب أكثر جدية).

بناء على هذا ففي البيان العام الموجه إلى عامة الناس نجد أن الإمام وبلغة الموعظة يحيي المعارف الإسلامية، وخاصة تلك المعارف الحساسة في ذهن الناس ويسعى لأجل أن يتعرف الناس عليها ويتذكروها. ويمكن الالتفات في هذا النوع من الخطاب إلى نقطتين اثنتين:

الأولى: إن هذا الأسلوب البياني للإمام لم يكن تعليمياً، بل هو من نوع التذكير. أي أن الإمام لم يكن يجلس ليبين للناس دقائق التوحيد، أو يفسر لهم مسألة النبوة. وإنما يذكرهم بها. لماذا؟ لأن المجتمع الذي كان يعيش فيه الإمام لم تكن تفصله عن مرحلة النبي ﷺ مسافة زمنية كبيرة حتى ينحرف كلياً عن العقائد الإسلامية. بل كان هناك الكثير من الأشخاص الذين عايشوا رسول الله ﷺ ومرت عليهم مرحلة الخلفاء الراشدين وقد عاصروا أئمتنا العظام من أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإمام الحسن عليه السلام إلى الإمام الحسين عليه السلام. ومن الناحية الاجتماعية لم يكن الوضع قد وصل إلى مرحلة يعاني فيها المجتمع الإسلامي من الانحراف العقائدي والأصولي بالنسبة لمسألة التوحيد والنبوة والمعاد والقرآن.

نعم، كانت هذه المسائل تدريجياً تخرج من ذاكرتهم، وكانت الحياة المادية تحيط بهم إلى درجة تنسيهم الفكر الإسلامي والعقيدة الإلهية.

كانت الحياة الدنيوية والمادية تسري في المجتمع بحيث لا تبقي في أذهان الناس أي توجه للمسابقة في مضمار المعنويات والخيرات. وإذا وجد

هذا الأمر فإنه لم يكن ليتعدى القشور والسطوح.

أما بالنسبة للمفهوم الذي كان الناس في زمن رسول الله ﷺ والعصر المتصل به يحملونه عن التوحيد والحساسية المتميزة تجاهه فإن الناس في عصر الإمام كانوا يفتقدونه، وهذا ما كان يستدعي التذكير حتى يرجع الأمر إلى سابق عهده، لا أن هناك أشياء محرفة ينبغي أن تصحح.

وهذا بخلاف المراحل اللاحقة، كمرحلة الإمام الصادق عليه السلام لأن المسألة حينها لم تكن بهذا الشكل. فقد ظهر في ذلك الوقت الكثير من المتكلمين والمتفلسفين والمفكرين، وتحت عناوين متعددة كانوا يجلسون في المساجد الكبرى، مثل مسجد المدينة وحتى المسجد الحرام ومسجد الشام ويدرّسون العقائد المنحرفة والباطلة. لقد برز حينها أناس مثل «ابن أبي العوجاء» يدرسون عقائد الزنادقة والإلحاد. لهذا، إذا تأملتم أحاديث وكلمات الإمام الصادق عليه السلام تجدون بيان التوحيد والنبوة وأمثالها بصورة استدلالية.

فالحاجة إلى الاستدلال ضرورية لمواجهة استدلال الخصم، وهذا ما لا نجده في بيانات الإمام السجاد عليه السلام التي كانت تعتمد على الحالة الشعورية والوجدانية التي تذكر بالقضايا الأساسية.

وباختصار لم يكن عصر الإمام السجاد عليه السلام يحكي عن خروج عن الفكر الإسلامي حتى عند الحكام إلا في بعض الموارد التي يظهر فيها مثل هذا الأمر. وذلك عندما ألقى يزيد اللعين تلك الأبيات الشعرية في حالة السكر عندما أحضر أسرى أهل البيت عليهم السلام فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحيٌ نزل

ولكننا نستطيع أن نقول، أن هذا الكلام كان تحت تأثير السكر. فحتى أمثال عبد الملك أو الحجاج لم يكونوا يجرؤون على إعلان مخالفتهم لفكرة التوحيد أو النبوة. لقد كان عبد الملك بن مروان يقرأ القرآن إلى درجة أنه عرف كأحد قرّاء القرآن. ثم عندما وصل إليه خبر تنصيبه خليفة قبّل القرآن

وقال: «هذا فراق بيني وبينك» إن هذا ما حدث فعلاً. والحجاج بن يوسف الذي سمعتم عن ظلمه (وباليقين إن الذي سمعتموه هو أقل بكثير مما فعله) كان عندما يخطب في الناس يأمرهم بالتقوى. وهكذا نفهم سبب اعتماد الإمام السجاد عليه السلام على التذكير بالأفكار الإسلامية لإخراج الناس من مستنقع الدنيا والأهواء المادية إلى ساحة معرفة الله والدين والقرآن.

الثانية: وهي ما أشرنا إليه سابقاً أن الإمام كان يأتي على ذكر مسألة الإمامة من خلال بيانه العام الذي اتخذ أسلوب الموعظة والإرشاد. كما كان يحدث في النظام الشاهنشاهي البائد عندما كان البعض يتحدث إليكم ويذكّركم قائلاً: أيها الناس فكروا بالله، وبالتوحيد والنبوة وبقضية الحكومة... فانظروا هنا كيف يمكن أن نفهم مسألة الإمامة وكيف كانت هذه الكلمة في النظام السابق كلمة خطرة. فحينها لم يكن الإتيان على ذكر الحكومة بالأمر السهل، أما إذا جاء ذلك بلغة الوعظ وعلى لسان رجل زاهد وعابد فإنه يمكن أن يقبل، وبتعبير آخر لن يثير الحساسيات.

هذا نوع من بيانات الإمام السجاد عليه السلام أما النوع الثاني فهو ذلك الخطاب الموجه إلى مجموعة خاصة لا تعرف هويتها. ولكن من الواضح أنه كان موجهاً إلى مجموعة من الذين يخالفون النظام الحاكم. فمن يمكن أن يكون هؤلاء؟.

بناء الكوادر

هذه الخطابات وإن لم يعلم منها بالتحديد من هي تلك الفئة المخاطبة، ولكن من الواضح أنها لفئة مخالفة للنظام الحاكم وأفرادها هم في الواقع من أتباع الإمام عليه السلام ومن المعتقدين بحكومة أهل البيت عليهم السلام.

ولحسن الحظ أننا نجد في كتاب تحف العقول نموذجاً لهذا النوع من البيانات (وذلك لأننا لا نجد في غيره من الكتب موارد أخرى من هذا النوع

بالرغم من أن هناك الكثير في حياة الإمام السجاد عليه السلام، ولكن على أثر الحوادث المختلفة التي جرت في ذلك العصر من القمع والتنكيل والاضطهاد وقتل الأصحاب زالت تلك الآثار وبقي القليل منها).

يبدأ الخطاب التابع لهذا النوع الثاني هكذا:

«كفانا الله وإياكم كيد الظالمين وبغي الحاسدين وبطش الجبارين». ويعلم من هذا البيان أن الإمام والجمع الحاضر مهددون من قبل السلطات الحاكمة. وأن المسألة ترتبط بمجموعة خاصة: المؤمنون بأهل البيت عليهم السلام ولذلك جاء الخطاب بصيغة «يا أيها المؤمنون» خلافاً للنوع الأول حيث يستعمل «يا أيها الناس» أو «يا ابن آدم». وذلك لأن الخطاب موجه إلى المؤمنين في الحقيقة بأهل البيت وأفكار أهل البيت عليهم السلام .

والدليل الآخر الواضح جداً عندما يقول عليه السلام :

«لا يفتننكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في الدنيا، المائلون إليها المفتونون بها، المقبلون عليها».

فالمقصد الأصلي من الكلام هو حفظ هؤلاء المؤمنين وبناء الكادر اللازم للمستقبل ومن الواضح أنه على أثر الصراع الشديد في الخفاء ما بين أتباع الأئمة عليهم السلام وأتباع الطواغيت فإن أتباع الأئمة عانوا من الحرمان الكبير، كما حدث في مرحلة جهادنا: أولئك الذين كانوا يواجهون الحكم قبل انتصار الثورة بالتأكيد لم يكونوا في حالة الراحة التي كان يعيشها غيرهم، وإنما كان السجن والنفي، والخوف والتعذيب والهروب عنوان حياتهم. فإذا كان أحدهم تاجراً أو بائعاً مثلاً يفرضون عليه ضرائب أكثر من الحد المعمول به، وإذا كان طالباً جامعياً يبقى دائماً مراقباً وقد يخرجونه من الجامعة. وإذا كان معمَّماً يلاحق ويعتقل أو ينفى، أو إذا كان إدارياً يعزل أو يجمّد راتبه. فمهما كان المجاهد ومن أية طبقة كان في زمن الشاه كان يعاني من حرمان مادي ونقص في الأموال. بل إنهم منعوا البعض من الذهاب إلى الحج وذلك بالتضييق عليه أو منعه من السفر.

والخطر الأكبر الذي يهدد المجاهدين هو أن يتوجهوا إلى الرفاهية، هذه الرفاهية التي لن تجرهم إلاّ إلى ترك الجهاد.

لقد كان الإمام عليه السلام يؤكد كثيراً على هذه النقطة ويحذر الناس من الرفاهيات في هذه الدنيا المتلألئة الكاذبة الخداعة التي لن تؤدي إلا إلى التقرّب من الطواغيت. لهذا فإنكم تجدون في هذا البيان وفي العديد من بيانات الإمام السجاد عليه السلام وفي الروايات القصيرة التي نقلت عنه تأكيداً على هذا الأمر.

ماذا يعني التحذير من الدنيا؟ يعني حفظ الناس من الانجذاب نحو أصحاب الرفاه والإيمان بهم وتمييزهم بحيث تخف حدة مواجهة الناس لهم. وبالطبع فإن هذا النوع من الخطابات موجه للمؤمنين، أما في الخطاب المتوجه إلى عامة الناس فقليلاً ما نجد مثل هذا النوع. ففي خطاب عامة الناس كما ذكرنا سابقاً كثيراً ما يظهر: أيها الناس إلتفتوا إلى الله، إلى القبر والقيامة، إلى أنفسكم والغد. فما هو هدف الإمام عليه السلام من هذا النوع الثاني من الخطاب؟ المقصود هو بناء الكادر.

فهو عليه السلام يريد أن يصنع من المؤمنين كوادر ملائمة للمرحلة ولهذا فإنه يحذرهم من الانجذاب نحو أقطاب القدرة والرفاهية الكاذبة ويكرر ذكر النظام الحاكم خلافاً للنوع الأول من البيانات، كما يقول مثلاً:

«وإن الأمور الواردة عليكم في كل يوم وليلة من مظلمات الفتن وحوادث البدع وسنن الجور وبوائق الزمان وهيبة السلطان ووسوسة الشيطان». وهنا نجد أن الإمام مباشرة بعد ذكر هيبة السلطان وقدرته يذكر وسوسة الشيطان، يريد بذلك أن يلفت النظر إلى حاكم ذلك الزمان ويضعه إلى جانب الشيطان. وفي تتمة الكلام جملة ملفتة جداً (ولأنها مهمة جداً أنقلها وهي تحكي عن مطلب ذكرته سابقاً):

«لتثبّط القلوب عن نيتها وتذهلها عن موجود الهدى ومعرفة أهل الحق» (تلك الهداية الموجودة الآن في المجتمع).

فالإمام السجاد عليه السلام يعظهم بنفس الأسلوب السابق، فهو يحذرهم من مجالسة أهل المعاصي. من هم أهل المعاصي؟ أولئك الذين جذبوا لنظام عبد الملك الظالم. الآن حاولوا أن تتصوروا شخصية الإمام السجاد عليه السلام ، وأن تكونوا تصوراً عنه. هل ما زال ذلك الإمام المظلوم الصامت المريض الذي لا شأن له بالحياة؟ كلا، فالإمام هو الذي كان يدعو مجموعة من المؤمنين والأصحاب ويحذرهم، بهذه الصورة التي ذكرناها من التقرب إلى الظلمة ونسيان المجاهدة ويمنعهم من الانحراف عن هذا الطريق، كل ذلك لأجل أن يكونوا مؤثرين في إيجاد الحكومة الإسلامية.

فلسفة الإمامة عند الإمام

من جملة الأشياء التي أراها جليّة وشديدة الأهمية في هذا القسم من بيانات الإمام السجاد عليه السلام تلك الكلمات التي يذكّر فيها بتجارب أهل البيت عليهم السلام الماضية. ففي هذا القسم يشير الإمام عليه السلام إلى تلك الأيام التي مرت على الشيعة من قبل الحكام الجائرين مثل معاوية ويزيد ومروان. ووقائع مثل الحرة وعاشوراء وشهادة حجر بن عدي ورشيد الهجري وعشرات الحوادث المهمة ويريد الإمام أن يحث أولئك المخاطبين من خلال ذكر تلك الحوادث الشديدة، على التحرك والثورة. والتفتوا الآن إلى هذه الجملة:

«فقد لعمري استدبرتم من الأمور الماضية في الأيام الخالية من الفتن المتراكمة والانهماك فيها ما تستدلون به على تجنب الغواة و......».

أي إنكم تستحضرون تلك التجارب وتعلمون ماذا سيفعل بكم أهل البغي والفساد - وهم حكام الجور - عندما يتسلطون عليكم؟ ولذلك يجب عليكم أن تتجنبوهم وتواجهوهم.

وفي هذا الخطاب يطرح الإمام مسألة الإمامة بصورة صريحة. أي قضية الخلافة والولاية على المسلمين والحكومة على الناس وإدارة النظام الإسلامي ولم يكن بمقدور الإمام في ذلك الوقت أن يوجه هذا الخطاب

لعامة الناس. ثم يقول عليه السلام :

«فقدموا أمر الله وطاعته وطاعة من أوجب الله طاعته».

وهنا يعيّن الإمام فلسفة الإمامة عند الشيعة والإنسان الذي يجب أن يطاع بعد الله. ولو فكّر الناس في ذلك الوقت بهذه المسألة لعلموا بوضوح أنه لا يجب طاعة عبد الملك. لأنه من غير الجائز أن يوجب الله طاعة عبد الملك. ذلك الحاكم الجائر بكل فساده وبغيه. وبعد أن يقدم الإمام هذه المسألة يتعرض لرد شبهة مقدّرة فيقول:

«ولا تقدموا الأمور الواردة عليكم من طاعة الطواغيت وفتنة زهرة الدنيا بين يدي أمر الله وطاعته وطاعة أولي الأمر منكم».

ففي هذا الخطاب والخطاب السابق يركّز الإمام على مسألتين من المشاكل الثلاث التي أشرنا إليها سابقاً: الأولى: تدوين الفكر الإسلامي وإحياؤه في أذهان الناس والحث على تعلمه، والأخرى: مسألة الولاية السياسية أي الحكومة والقيادة للنظام الإسلامي. وعندما يعرّف الإمام هاتين المسألتين فإنّه يقوم في الواقع بتعريف النظام العلوي والنظام الإسلامي الإلهي.

ضرورة التشكيلات

نوع آخر من بيانات الإمام السجاد عليه السلام وهو أهم من البيانين الأولين. ومن خلاله يدعو الإمام بصراحة الناس إلى ضرورة إيجاد تشكيلات خاصة، وبالطبع فإن هذه الدعوة موجهة إلى أولئك الذين يتبعون أهل البيت عليهم السلام وإلا لو كانت إلى غيرهم من عامة الناس لأفشيت وأدّت إلى إيذاء الإمام وتعرضه للضغوط الصعبة، وبحمد الله فإننا نجد نموذجاً لهذا النوع من البيانات في «تحف العقول».

يبدأ الإمام بهذه العبارة:

«إن علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، تركهم كل خليط وخليل ورفضهم كل صاحب لا يريد ما يريدون».

وهذا تصريح بالدعوة إلى إيجاد تشكيلات شيعية.

فهو عليه السلام يعلمهم بأن عليهم الابتعاد عن أولئك الذين يخالفونهم في الدافع ولا يتبعون الحكومة العلوية وحكومة الحق.

فليكن هناك مراودة ومعاشرة، ولكن لتكن مثل ما حدث في إيران عندما كان الناس يعلمون أن البقال الفلاني عميل للسافاك أو أن ذلك الشخص يعمل مخبراً للنظام.

وهناك نوع آخر من بيانات الإمام لا يوجد فيه تلك المطالب الكلية التي أشرنا إليها، مثل رسالة الحقوق. ففي هذه الرسالة التي كتبها الإمام لأحد الأشخاص يذكر حقوق الأفراد والأخوان على بعضهم البعض، ويذكر حق الله عليك وحق أعضائك وجوارحك وحق العين واللسان و... كما يذكر حق حاكم المجتمع الإسلامي وحقك عليه.

وبدون أن يذكر الإمام اسم الحكومة والمواجهة والنظام يبين خصائص الحكومة الإسلامية التي يمكن أن تتحقق في المستقبل.

ونوع آخر نجده في الصحيفة السجادية وهذا الأمر يتطلب بحثاً مفصلاً ربما هو عمل أولئك الذين يعملون في هذا المجال.

فالصحيفة السجادية تتضمن مجموعة من الأدعية في كافة المجالات التي ينبغي أن يلتفت إليها الإنسان الحي والواعي. وأكثرها في الروابط والعلاقات القلبية والمعنوية للإنسان. في هذه الأدعية والمناجات يحيي الإمام الدوافع نحو حياة إسلامية ويوقظ الناس إليها.

إحدى النتائج التي يمكن أن تحصل من الأدعية، وقد ذكرناها مراراً، هي إحياء الشعور السليم والصحيح في القلوب. فعندما تقولون: «اللهم اجعل

عواقب أمورنا خيراً» فإن هذا الدعاء يحيي في قلوبكم ذكر العاقبة ويدفعكم للتفكر في المصير. فقد يغفل الإنسان أحياناً عن عاقبته، يعيش ولا يلتفت إلى مصيره. فإذا تلا هذا الدعاء يستيقظ فجأة إلى ضرورة تحسين عاقبته. أما كيف يتم ذلك فهذا بحث آخر. فقط أردت أن أضرب مثلاً حول الدور الصادق للدعاء. وهذا الكتاب المليء بالدوافع الشريفة للأدعية كاف لإيقاظ المجتمع وتوجيهه نحو الصلاح.

وإذا تجاوزنا ذلك، وجدنا روايات قصيرة وعديدة نقلت عن الإمام السجاد عليه السلام. منها ما ذكرته سابقاً:

«أولا حرٌ يدع هذه اللماظة لأهلها». انظروا كم هو مهم هذا الحديث. فالزخارف الدنيوية والزبارج كلها بقية لعاب الكلب لا يتركها إلا الحر. وكل أولئك الذين يدورون في فلك عبد الملك إنما يريدون تلك اللماظة. وأنتم أيها المؤمنون لا تنجذبوا إليها.

ونجد الكثير مثل هذه البيانات الثورية والملفتة للإمام عليه السلام.

وسوف نصل إليها فيما بعد إن شاء الله. لقد كان الإمام السجاد عليه السلام شاعراً. وشعره يحتوي على معان مهمة سوف نذكرها لاحقاً إن شاء الله.

المواجهات الشديدة مع علماء البلاط

في تتمة بحثنا حول القضايا المرتبطة بسيرة الإمام السجاد عليه السلام وأساليبه وخططه لإيجاد الأرضية المساعدة للحركة التي يمكن أن تنتهي إلى إقامة الحكومة العلوية الإسلامية، ذكرنا ما ملخصه أن هذه التحركات كانت تتجه إلى التبيين والتوضيح عند البعض والى التشكيلات والتنظيم بالنسبة للبعض الآخر، وإلى الهداية والإرشاد بالنسبة لآخرين.

وهكذا يُتخيل الإمام السجاد من خلال هذه الصورة. التي قدمناها.

إنساناً صبوراً سعى خلال ٣٠ أو ٣٥ سنة متواصلة إلى جعل تلك الأرضية السيئة جداً في عالم الإسلام، تتجه نحو الظروف التي يمكن له عليه السلام أو لخلفائه أن يحققوا من خلالها المجتمع الإسلامي، والحكومة الإسلامية.

ولو فرضنا أن تلك السنوات الخمس والثلاثين من عمره الشريف لم تكن موجودة لقطعنا بعدم وصول الأمر إلى الإمام الصادق عليه السلام بتلك الحال التي تمكن معها من التصرف والتعاطي الصريح والواضح مع الحكم الأموي، والعباسي فيما بعد.

وعليه، فلأجل إقامة وتحقيق المجتمع الإسلامي، لا بد من الأرضية الفكرية والذهنية وهذا ما يعتبر أهم من أي شيء آخر. هذه الأرضية التي تطلب تحقيقها في ذلك العصر ـ من عالَمِ الإسلام ـ سنوات ٍ عديدةً من العمل المتواصل، ذلك العمل الذي نهض به الإمام السجاد ـ عليه السلام ـ متحملاً أعباءه الجسيمة وتكاليفه الباهظة.

إلى جانب هذا، نجد في حياة الإمام السجاد عليه السلام بعض المساعي الأخرى التي تدل في الواقع على مدى تقدم الإمام في المجال المذكور.

والقسمُ الأعظم من هذه المساعي، سياسيٌّ، وأحياناً شديد القساوة، وأحد نماذجه مواجهته، وكيفية تعامله مع العلماء التابعين، والمحدثين الكبار العاملين لصالح النظام الحاكم.

ولعل أكثر الأبحاث المتعلقة بحياة الأئمة إثارةً هو قضية تعامل الأئمة عليهم السلام مع حملة الفكر والثقافة في المجتمع الإسلامي، أي العلماء والشعراء.

فالأئمة كانوا يتحملون مسؤولية هداية الناس في أفكارهم وأذهانهم، وأولئك كانوا يوجهون الناس إلى الوضع الذي يريده خلفاء بني أمية وبني العباس، والتسليم لأعمالهم.

احتياج الظلمة إلى وضع الأحاديث

كما نعلم، فإن الحكام الظالمين: كانوا يرون في جذب قلوب الناس إليهم، أهم عامل في بقاء ملكهم وسلطانهم. إذ لم يكن الفاصل الزمني بين الناس وبين صدر الإسلام كبيراً، وبالتالي كان إيمان الناس بالإسلام لا يزال قوياً.

فإذا أدرك الناس أن البيعة التي قدموها للحكام ليست صحيحة. وأن هذا الظالم لا يجوز أن يكون خليفة رسول الله ﷺ، لو أدركوا ذلك، فبالتأكيد لن يرضوا أن يسلّموه قيادتهم بتاتاً، وحتى لو قلنا أن هذا الأمر لا يشمل الجميع، فعلى الأقل نقول: القدر المسلم به أن الكثيرين كانوا يتحملون الوضع المنافي للإسلام في الجهاز الحاكم نتيجة الإيمان القلبي، إذ أنهم كانوا يظنون أن هذا وضع إسلامي.

ولإبقاء هذه الضبابية في أذهان الناس كان حكام الجور يستغلون المحدثين وعلماء الدين قدر الإمكان ويحركونهم طبقاً لمصالحهم فيطلبون منهم وضع الأحاديث واختلاقها ونسبتها إلى رسول الله ﷺ والصحابة الكبار بما يوافق ميولهم وأهواءهم.

نماذج من اختلاق الحديث

في هذا المجال يوجد موارد تقشعر منها الأبدان، ونحن ننقل بعضاً منها كمثال:

. في زمن معاوية التقى شخص بكعب الأحبار. ولأن كعباً كانت له صلات حميمة مع معاوية سأل ذلك الشخص: من أين أنت؟

قال: من أهل الشام.

قال له: لعلك من ذلك الجيش الذي يدخل منه ٧٠ ألف جندي إلى الجنة بدون حساب.

قال: من هم هؤلاء.

قال: إنهم أهل دمشق.

قال: كلا لست من أهل دمشق.

قال كعب: إذن، لعلك من ذلك الجيش الذي ينظر الله إليه كل يوم مرتين(١١).

. من هم هؤلاء.

. أهل فلسطين.

وربما لو قال ذلك الشخص: إنني لست من أهل فلسطين، لأخبره كعب الأحبار أحاديث عن كل من أهالي بعلبك وطرابلس وبقية مدن الشام بحيث يبينُ له أن أهل الشام هم الأفضل، وأنهم أهل الجنة.

وكعب الأحبار كان يختلق هذه الأحاديث ويصفها إما تملقاً لأمراء الشام حتى يكون نصيبه أكثر ومنزلته في قلوبهم أعلى، وإما بسبب العداء المتجذر في نفسه للإسلام وبغية تدمير الأساس العظيم لأحاديث رسول الله ﷺ.

ويوجد في كتب التذكرات والرجال والحديث الكثير من هذه القصص. منها قصة ذلك الأمير الذي أرسل ابنه إلى المدرسة (الكتّاب) وهناك ضربه المدرّس. عندما رجع الابن باكياً إلى أبيه وأخبره، غضب الأب وقال: سأذهب وأضع حديثاً على هذه المدرسة حتى لا يكرروا فعلتهم هذه.

ومن هذه القصة نعلم كم كان سهلاً اختلاقُ الأحاديث عندهم، حتى لو كان بدافع العصبية أو الشفقة على دموع الطفل.

وعلى أيّ حال فقد كان لهذا الوضع أثرٌ واضح في إيجاد ذهنية وثقافة منحرفة وبعيدة عن الإسلام. كل ذلك بسبب أولئك المحدثين والعلماء العاملين في خدمة السلاطين والأقوياء.

وفي هذا الوضع تعتبر مواجهة هؤلاء عملاً في غاية الأهمية.

بعض الأحاديث المختلقة من محمد الزهري

يوجد هنا نموذج يبين كيفية مواجهة الإمام السجاد عليه السلام لهذا الوضع:

كان محمد بن شهاب الزهري في البداية أحد تلامذة الإمام السجاد عليه السلام المقربين، أي أنه من جملة الذين تعلموا علومهم ونقلوا الأحاديث عن الإمام، ولكن بالتدريج ـ بسبب التجرؤ الذي كان فيه ـ اقترب من نظام الحكم حتى صار أحد أعوانه وتحوّل إلى واحدٍ من الذين واجهوا الإمام.

ولأجل أن نطلع أكثر على وضع الزهري: ننقل عدة أحاديث بشأنه:

أحد هذه الأحاديث، ما جاء عنه: «كنا نكره كتابة العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء فرأينا أن لا يمنعه أحد من المسلمين».

ويفهم من هذا الحديث أنه حتى ذلك الزمان لم يكن متعارفاً بين هذه الطائفة من المحدثين بأن كل ما يعلمونه من الأحاديث ينبغي أن يكتبوه، وكذلك يتضح أن محمداً بن شهاب الزهري كان في خدمة الأمراء وأنه كان يحمل على كتابة الأحاديث التي تناسبهم.

أحدهم ويدعى معمر كان يقول: كنا نظن أننا قد نقلنا من الزهري أحاديث كثيرةً إلى أن قتل الوليد. فعندها رأينا كتباً كثيرة تحمل على ظهور الدواب وتُخرج من خزائن الوليد ويقال: هذا علم الزهري: أي أنّ الزهري وضع من الأحاديث التي تناسب الوليد وأهواءَه ما عجزت عن حمله الرجال. ماذا تتصورون أن تكون تلك الأحاديث؟ مما لا شك فيه انها لا تدين الوليد وإنما تؤيد أعماله وتصحّحها.

ويوجد حديث آخر يتعلق بفترة ارتباط الزهري بالنظام الحاكم. فقد روى اليعقوبي في تاريخه:

«إن الزهري نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى وأن

الصخرة التي وضع رسول الله قدمه عليها تقوم مقام الكعبة».

ويعود هذا الحديث إلى ذلك الزمان الذي كان عبد الله بن الزبير حاكماً على مكة، والناس الذين يريدون الحج بطبيعة الحال لا بد وأن يدخلوا مكة ـ وهي تحت نفوذ ابن الزبير ـ وكانت تلك الأيام فرصة مناسبة له للتبليغ ضد أعدائه ـ وخاصة عبد الملك بن مروان ـ ومن جانب آخر بما أن عبد الملك كان يدرك خطورة هذا الأمـر، ولكي يمنع الناس من الذهاب إلى مكة رأى أن أفضل الطرق هو وضع أحاديث تبيّنُ أن شرافة القدس بمنزلة شرافة مكة: ونحن نعلم ـ في العرف والثقافة الإسلامية ـ أنه لا توجد منطقة في العالم توازي الكعبة شرفاً ومكانةً ولا يوجد حجر في الدنيا يضاهي الحجر الأسود. فكانت تلك الأحاديث المجعولة وسيلة لعبد الملك لكي يدفع الناس للذهاب إلى المسجد الأقصى الذي كان تحت نفوذه بدلاً من مكة المكرمة.

فإلى أي مدى كان لهذه الأحاديث تأثيرٌ في نفوس الناس وأفعالهم؟

وهل حدث في زمن ما أن الناس حجوا إلى بيت المقدس بدلاً من مكة أم لا؟ ولو حدث ذلك لكان ينبغي أن نعد المجرم الأصلي أو أحد المجرمين محمداً بن شهاب الزهري الذي حرف الأمر في أذهان الناس لأجل مآرب عبد الملك السياسية.

وعندما يصبح الزهري تابعاً لجهاز الخلافة، فلن يمنعه شيء من وضع الأحاديث ضد الإمام السجاد عليه السلام والتنظيمات العلوية ـ منها ما وجدته في كتاب «أجوبة مسائل جار الله» ـ تأليف المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين ـ حيث يدعي الزهري في رواية أن أمير المؤمنين كان جبرياً، وينسب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في معنى الإنسان في الآية: وكان الإنسانُ أكثر شيء جدلاً أنه أمير المؤمنين عليه السلام (والعياذ بالله).

في رواية أخرى ينقل أن حمزة سيد الشهداء كان شارب خمر. وإنما جعل هاتين الروايتين لدعم الجبهة السياسية ـ لعبد الملك وبني أمية ـ مقابل أئمة الهدى عليهم السلام، وبالتالي لنسف صورتهم بعنوان أنهم المسلمون

الأوائل، ويعرفهم على أنهم مثل غيرهم من العوام والمقصرين في تطبيق أحكام الدين.

وهذه الرواية تشير إلى وضعية محمد بن شهاب الزهري في مرحلة التبعية والارتباط ببلاط الحكم. ومن يطالع في أوضاعه الاجتماعية والفكرية تتبين له شخصيته بشكل واضح. وأنا أترك هذا الأمر إلى كتب الرجال.

حسناً، مثلُ هذا الشخص الذي يتمتّع بنفوذ ومنزلة عالية في جهاز الحكم وبين الناس، لا شك أنه يعد خطراً حقيقياً على الثورة الإسلامية، وينبغي أن يتّخذ موقفٌ بشأنه.

الموقف الشديد للإمام السجاد عليه السلام من علماء البلاط

بالنسبة للزهري وأمثاله فقد وقف الإمام السجاد عليه السلام موقفاً حازماً وقاسياً جداً حيث يلحظ هذا من خلال الرسالة التي وجهها إليه.

وقد يتساءل البعض إلى أي مدى يمكن أن تعكس «الرسالة» هذا الموقف الشديد، ولكن بالالتفات إلى شدة اللهجة في مضمون هذه الرسالة الموجهة إلى نفس الزهري وكذلك بالنسبة للجهاز الحاكم وأنها لا تنحصر بمحمد بن شهاب بل كانت تقع في أيدي الآخرين وتتنقل عبر الألسن وتبقى عبر التاريخ (كما أننا اليوم وبعد أكثر من ١٣٠٠ سنة نتناولها بالبحث). بالالتفات إلى هذه الأمور، يمكن أن ندرك حجم الضربة التي وجهت للقداسة الشيطانية والاصطناعية لمثل أولئك العلماء. لقد كانت الرسالة خطاباً لمحمد بن شهاب ولكنها نالت من أشخاص آخرين على شاكلته. ومن المعلوم أن هذه الرسالة عندما تقع بأيدي المسلمين وبالأخص شيعة ذلك العصر وتتنقل عبر الأيدي فأي سقوط لهيبة هؤلاء ومكانتهم في الأعين!!

وهنا ننقل مقاطع من هذه الرسالة:

في البداية يقول عليه السلام : «**كفانا الله وإياك من الفتن ورحمك من النار**».

في الجزء الثاني من هذه الجملة نجده يخصه بالخطاب، لماذا؟ لأن كل إنسان يتعرض للفتن حتى الإمام السجاد عليه السلام بدون أن يسقط فيها ومحمد بن شهاب يتعرض للفتنة ولكنه سقط، أما بالنسبة لنار جهنم فإنها لا تقترب من الإمام زين العابدين عليه السلام ولهذا خصّ الكلام هنا بالزهري. وابتداء الرسالة بمثل هذه اللهجة دليل على تعامل الإمام معه بطريقة تحقير ومعاداة.

ثم يقول عليه السلام : «**فقد اصبحت بحال ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك**».

ودققوا هنا في هذه الجملة، لمن الخطاب فيها؟

إنها موجهة لشخص يغبطه الجميع على حاله، فهو أحد العلماء الكبار المقربين للنظام الحاكم، بينما نجد الإمام عليه السلام يبينه ضعيفاً ووضيعاً.

بعد ذلك يشير الإمام إلى النعم التي حباه الله بها والحجج التي أتمها عليه ثم يقول أنه مع وجود تلك النعم من الله، هل تستطيع أن تقول كيف قد أديت شكرها؟

ويذكر جملة من آيات القرآن ويقول أن الله تعالى لن يرضى أبداً عن قصورك وتقصيرك لأنه سبحانه قد أمر العلماء بتبيين الحقائق للناس: «**لتبيننه للناس ولا تكتمونه**».

وبعد هذه المقدمة يحمل عليه بطريقة قاسية جداً بقوله عليه السلام :

«**واعلم أن أدنى ما كتمت، وأخف ما احتملت، أن آنست وحشة الظالم، وسهلت له طريق الغي بدنوك منه حين دنوت وإجابتك له حين دُعيت**».

ويظهر هذا الكلام الذي يطرحه الإمام بشكل واضح ارتباطه بجهاز السلطة. «**إنك أخذت ما ليس لك ممن أعطاك**».

«**ودنوت ممن لم يردّ على أحد حقاً ولم تردّ باطلاً حين أدناك**».

(وهو الخليفة الظالم) فبأي عذرٍ تبرر عدم ارجاعك للحقوق الضائعة

وإزالة المظالم الكثيرة. «واحببت من حاد الله».

والجملة المؤثرة جداً في هذه الفقرة عندما يقول عليه السلام:

«أوليس بدعائه إياك. حين دعاك. جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم وجسراً يعبرون عليه إلى بلاياهم وسلماً إلى ضلالتهم داعياً إلى غيهم سالكاً سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم».

ثم يقول:

«فلم يبلغ أخص وزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم».

وفي هذه الرسالة الشديدة اللهجة والبليغة يفضح الإمام السجاد تلك الحركة السياسية التي استغلت الفكر والعلم. فأولئك الذين قبلوا مهادنة النظام أصبحوا مطالبين بالإجابة عن السؤال الذي بقي في المجتمع الإسلامي وسوف يبقى عبر التاريخ.

إنني أعتبر هذا إحدى مراحل حياة الإمام السجاد عليه السلام المهمة وأشعر بأنه عليه السلام لم يكتف بتحرك علمي وتربوي محدود بين جماعة خاصة بل قام بحركة سياسية وبالطبع يوجد قسم آخر في هذا المجال يتعلق بالشعر والشعراء سوف نتعرض له فيما بعد.

تكتيك بداية المرحلة الثالثة لحركة الأئمة عليهم السلام

بالقدر الذي اطلعت فيه على حياة الإمام السجاد عليه السلام والذي ما زلت أذكره أنه لا يوجد مواجهة أو تعريض صريح وقاطع ضد الحكم من قبيل ما نشاهده في حياة بعض الأئمة الآخرين، كالإمام الصادق في عصر بني أمية، أو الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

وسببه واضح، لأن مثل هذا التحرك الشديد الذي كان في بداية حركة الأئمة عليهم السلام كان في المرحلة الثالثة من المراحل الأربع للإمامة، والتي تبدأ في حياة الإمام السجاد، سوف يعرّض قافلة أهل البيت عليهم السلام التي

تحمل أعباء مسؤولية الرسالة للخطر الذي لا يؤدي إلى تحقيق المقصد. ففي ذلك الوقت لم يكن بستان أهل البيت الذي تعهّد الإمام السجاد عليه السلام بتربيته وسقايته قد استحكمت غصونه وأشجاره.

وكما أشرت في بداية هذا البحث، فقد كان عدد المحبين والموالين لأهل البيت عليهم السلام قليلاً جداً، وفي ذلك العصر لم يكن من الممكن لأولئك الذين سيتحملون مسؤولية التنظيمات الشيعية أن يواجهوا خطر العدو الجائر.

وإذا أردنا أن نمثل، ينبغي أن نشبه عصر الإمام السجاد عليه السلام هذا بمرحلة بدء الدعوة الإسلامية في مكة وهي المرحلة السرية. ولعله يمكن تشبيه عصر الإمام الباقر عليه السلام بالمرحلة الثانية في مكة حين أصبحت الدعوة علنية. ولهذا فإن المواجهة في تلك المرحلة لن تكون سليمة.

ومما لا شك فيه أننا إذا لاحظنا المواجهات الحادة في بعض كلمات الإمام الصادق والإمام الكاظم والإمام الثامن عليه السلام فيما لو صدرت عن الإمام السجاد عليه السلام، فإن عبد الملك بن مروان الذي كان في أوج قدرته كان يستطيع وبكل سهولة أن يطوي بساط تعاليم أهل البيت عليهم السلام، وهذا ليس عملاً عقلائياً. لكن على كل حال، يمكن أن نشاهد في ثنايا كلمات الإمام زين العابدين عليه السلام والتي ترجع على وجه الاحتمال إلى أواخر حياته الشريفة، إشارات أو مظاهر لتعرضه ومواجهته لنظام الحكم.

أمثلة من مواجهة الإمام عليه السلام

كانت تلك المواجهات تظهر بعدة أشكال. وأحد أشكالها هو ما لاحظناه في تعامل الإمام السجاد عليه السلام مع محمد بن شهاب الزهري. والشكل الآخر يظهر من خلال بيان موقف ومكانة الخلفاء الأمويين على ضوء التعاليم والإرشادات الدينية العادية.

ويوجد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «إن بني أمية

أطلقوا للناس الإيمان ولم يطلقوا الشرك حتى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه».

فبنو أمية كانوا يسمحون للعلماء وأهل الدين، ومن جملتهم الأئمة عليهم السلام، بالتحدث حول الصلاة والحج والزكاة والصيام والعبادات، وكذلك حول التوحيد والنبوة والأحكام الإلهية. لكنهم لم يسمحوا بالبحث في مفهوم الشرك ومصاديقه وأمثلته في المجتمع. تلك التعاليم المرتبطة بالشرك لو دُرّست للناس، لفهموا مباشرة من هم المشركون، وأن ما يحملهم عليه بنو أمية ليس إلا الشرك. ولعلموا فوراً أن عبد الملك والخلفاء الباقين من بني أمية هم طواغيت يبارزون الله، وأن إطاعتهم تعد شركاً بالله.

ولهذا لم يكونوا ليسمحوا للناس بتعلّم هذه المفاهيم.

نحن عندما نبحث في الدين الإسلامي حول التوحيد، فإن قسماً مهماً من هذا البحث يرتبط بمعرفة الشرك. ما هو الصنم ومن هو المشرك؟

وللمرحوم العلامة المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار الجزء ٤٨ نص رائع يقول فيه: «إن آيات الشرك ظاهرها في الأصنام الظاهرة وباطنها في خلفاء الجور الذين أشركوا مع أئمة الحق ونصبوا مكانهم».

فأئمة الحق هم خلفاء الله وهم ينطقون عن الله، ولأن خلفاء الجور قد نصبوا أنفسهم مكانهم وادعوا الإمامة، فقد أصبحوا أصناماً وطواغيت فكل من يطيعهم يعدّ مشركاً بالله.

وللعلامة بعد هذا شرح قيم. فهو يبين أن الآيات القرآنية ليست مختصة بعصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي سارية وجارية في كل العصور والأزمان:

«فهو يجري في أقوام تركوا طاعة أئمة الحق واتبعوا أئمة الجور لعدولهم عن الأدلة العقلية والنقلية واتباعهم الأهواء، وعدولهم عن النصوص الجلية».

ومن هنا نرى أن الأئمة عليهم السلام إذا أرادوا أن يبينوا حقيقة الشرك

فإنهم بذلك يقومون بما يشبه المواجهة مع نظام الحكم. وهذا ما يظهر في كلمات الإمام السجاد عليه السلام.

ونموذج آخر من تلك الأمثلة في المواجهة ما نشاهده في المكاتبات والرسائل بين الإمام السجاد عليه السلام وعبد الملك (الخليفة الأموي المتجبّر) أشير إلى اثنين منهما هنا:

١ - في إحدى المرات يكتب عبد الملك رسالة إلى الإمام السجاد عليه السلام يلومه فيها على زواجه من إحدى جواريه. وكان للإمام جارية أعتقها ثم تزوجها. فشمت منه عبد الملك. وكان عمل الإمام عملاً إنسانياً وإسلامياً صرفاً. ولكن دافع عبد الملك من تلك الرسالة كان التعرض للإمام، وإفهامه بأنه مطلع على مسائله الخاصة موجهاً له بذلك تهديداً ضمنياً. فأجابه الإمام عليه السلام برسالة بدأها بتوجيه أمر الزواج وأن العظام يفعلون مثل هذا الأمر، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قام به: «فلا لؤم على امرئ مسلم إنما اللؤم لؤم الجاهلية».

وهو يريد أن يذكره بسوابق أجداده في الجاهلية (من كفرهم وعنادهم)... عندما وصلت الرسالة إلى عبد الملك، كان ابنه سليمان حاضراً وعندما قرأها سمعه، وسمع ذمّ الإمام وأحسّ به مثل أبيه، فالتفت إليه قائلاً: يا أمير المؤمنين! أترى كيف يتفاخر عليك علي بن الحسين؟. يريد بذلك أن يحرض والده على رد فعل شديد. ولكن عبد الملك كان أعقل من ولده فقال له: لا تقل شيئاً يا ولدي! فهذا لسان بني هاشم الذي يفلق الصخر. (أي أن استدلالهم قوي وقاس).

٢ - النموذج الثاني: المراسلة الأخرى التي تمت بين الإمام وعبد الملك ومجرياتها.

علم عبد الملك أن سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موجود عند الإمام. وكان هذا أمراً ملفتاً وباعثاً على التفاخر. وكذلك فإن وجوده يعد خطراً على الخليفة، لأنه يجلب أنظار الناس إليه فكتب إليه يطلب منه تسليم السيف، ووعده

بإنجاز ما يريد.

ورد عليه الإمام فأعاد عبد الملك مرة ثانية تهديده بوقف حصة الإمام من بيت المال إن لم يرسل السيف. فأجابه الإمام:

«اما بعد فإن الله تعالى وعد عباده المتقين بنجاتهم من المحن.

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[1] وقال:

﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾. فانظر اينّا ينطبق عليه الكلام».

وهذه لهجة قاسية جداً أمام الخليفة، لأن تلك الرسالة إذا وقعت بيد أي إنسان فسوف يعلم أولاً: أن الإمام لا يعد نفسه خواناً.

ثانياً: لا يتصور أحد هذا الأمر بحق هذا الإنسان الجليل الذي تربى في بيت النبوة. وهذا يعني: أنك أنت أيها الخليفة خوان وكفور. وإلى هذا الحد كان الإمام شديداً مقابل التهديد.

كانت هذه نماذج من مواجهة الإمام للحكم، وإذا أردنا أن نضيف نموذجاً آخر ينبغي أن ننظر إلى الأشعار التي نقلت عن الإمام السجاد أو عن أصحابه ومحبيه، فهي تمثل نوعاً آخر من المواجهة.

مواجهة أصحاب الإمام السجاد عليه السلام ومحبيه من قبيل الفرزدق ويحيى بن أم الطويل للنظام الحاكم كان يعد نوعاً من مواجهة الإمام للحكم.

مواجهة الفرزدق ويحيى

للإمام أشعار لم أستطع العثور عليها ولكن لا شك أنها موجودة وهي في غاية القوة والتحدي والثورة. ويمكن اعتبار شعر الفرزدق نموذجاً آخراً. فقد نقل المؤرخون والمحدثون هذه الحادثة (ما ملخصها):

عندما قدم هشام بن عبد الملك قبل فترة خلافته إلى الحج وأثناء الطواف أراد أن يتقدم لاستلام الحجر الأسود ولكن العدد الهائل والازدحام

الكبير منعه من الوصول، رغم محاولاته المتكررة مع أنه كان ابن الخليفة ومحاطاً بالمرافقين والحواشي ولكن الناس كانوا يمرّون من حوله بدون اكتراث.فيئس من استلام الحجر وقعد جانباً منتظراً انصراف الناس، وكان أصحابه جالسين حوله. وفي هذه الأثناء يأتي رجل يعلوه الوقار والهيبة سيماه سيماء الزاهدين ووجهه وجه الملكوتيين يسطع من بين الحجاج كالشمس فتنّحى الناس له جانباً ليمر من بينهم ويصل إلى الحجر الأسود فيقبّله ثم يرجع للطواف مجدّداً.

فصعب ذلك على هشام كثيراً، وهو يرى نفسه ابن الخليفة ولا أحد يعطيه أية قيمة بل يبعدونه بالركل والمطاحنة، ثم من جانب آخر يظهر رجل يصل إلى الحجر الأسود بكل هدوء. فسأل غاضباً من هذا؟ وكان حواشيه يعرفون أنه علي بن الحسين عليه السلام ولكن لئلا يغضب منهم لم يقولوا شيئاً لأنهم يعلمون بوجود العداء المتجذر بين بني أميّة وبني هاشم فلم يريدوا أن يقولوا أن هذا كبير العائلة المعادية لكم والناس يظهرون له كل هذا الحب والاحترام لأنهم اعتبروا ذلك نوعاً من الإهانة لهشام.

كان الشاعر الفرزدق من المحبّين لأهل البيت حاضراً هناك وقد رأى تجاهلهم وإنكارهم لعلي بن الحسين عليه السلام فتقدم قائلاً: أيها الأمير، هل تسمح لي بأن أعرّفك عليه.

فقال هشام: قل، فانطلق لسان الفرزدق بقصيدة من أشهر القصائد الشعرية التي قيلت بحق أهل البيت، وبدأها بهذا البيت:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا

وكانت أبيات هذه القصيدة كوقع السيوف على قلب هشام فغضب منه وطرده، من جانب آخر أرسل إليه الإمام عليه السلام مالاً فلم يقبله وقال: «ما قلته لله لم أرد منه مالاً».

وهكذا نشاهد مثل هذه المواجهات عند أصحاب الإمام ونموذج آخر ما

قام به يحيى ابن أم الطويل.

كان يحيى ابن أم الطويل من الشباب ذوي البأس الشديد والشجاعة الفائقة وأحد المخلصين لأهل البيت، وكان يذهب دائماً إلى الكوفة ويجمع الناس ويصرخ فيهم: أيها الناس، إنني كافر بكم ولا أقبل بكم حتى تؤمنوا بالله. وهو يقصد أولئك الذين كانوا يتبعون بني أميّة.

تعرض بني أمية للإمام السجاد عليه السلام

كان هذا مختصراً لحياة الإمام السجاد عليه السلام، فرغم أن مرحلة إمامة الإمام السجاد عليه السلام التي امتدت إلى أكثر من ٣٤ سنة كانت بعيدة عن المواجهة المباشرة للنظام الحاكم ولكن نشر بساط الإمامة الواسع وتعليم وتربية العديد من الأفراد المؤمنين والمخلصين وتوضيح دعوة أهل البيت عليهم السلام كان من أعظم إنجازاته. وهذا ما جعل بني أمية يمقتون الإمام ويتعرضون له. وكانوا من قبل قد جروه بالأصفاد والأغلال. ولم يحدث هذا في كربلاء فقط وإنما تكرر في زمن آخر أيضاً. وقد تعرّضوا له في موارد عديدة، وآذاه أعوانهم حتى وصل بهم الأمر سنة ٩٥ للهجرة في زمن الوليد بن عبد الملك إلى تسميمه فارتفع إلى جوار ربه شهيداً.

5 قيادة الامام الصادق عليه السلام

تمهيد للفصل

تتميز حياة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بأنها سلسلة مترابطة الحلقات محكمة البناء، وكانت طبيعة المرحلة التي يعيشها كل إمام تفرض عليه موقفاً قد يبدو ظاهرياً يختلف اختلافاً جذرياً عن موقف من سبقه أو لحقه، كما في موقفي الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام . وهذا في الحقيقة ليس اختلافاً، بل هو استجابة لما تمليه الظروف، بحيث يكون الموقف حيال هذه الاستجابة مكملاً للدور الذي كان يقوم به الامام السابق، أو هو ممهد للدور الذي سوف يضطلع به الامام اللاحق.

ونتيجة لعدم وضوح الرؤية عند البعض ممن تعرّض لحياة الأئمة بالبحث كانت تظهر نظريات وتطرح آراء لتحليل واقع وطبيعة الدور الذي كان كل إمام يقوم به، وهذه النظريات والآراء ليس منشؤها الفهم الصحيح المدرك لحقيقة الموقف، بل هو التحليل الخاطئ والدراسة الهامشية التي لا تستند إلى أسس الإمامة والعصمة، بل تبنى على أسس واهية تتعارض كلياً مع الايمان بالقيادة المعصومة التي كان ينتهجها كل إمام بناءً على ما يفهمه الإمام نفسه من ظروفه المحيطة به وطبيعة المرحلة التي تكتنفه، وأيضاً بناءً على كون موقفه ليس موقفاً تتحكم فيه الأهواء الشخصية أو المصالح الذاتية أو الاستجابات الانفعالية وإنما هو موقف حكيم مدروس بعناية ومسدد باللطف الإلهي.

وهذا التحليل الخاطئ شمل حياة جميع الأئمة فأضفى عليهم طابع الاندفاع الانفعالي تارة، كما في موقف الإمام الحسين عليه السلام وثورته. أو طابع الركون إلى الهدوء والعزلة عن معترك الحياة السياسية، كما في موقف الإمام السجاد عليه السلام. أو طابع الانسجام مع الحكّام الظالمين كما في موقف الامام الصادق عليه السلام.

والفصل الذي بين أيدينا هو محاضرة ألقاها سماحة ولي أمر المسلمين السيد الخامنئي دام ظله، قبل قيام الثورة الاسلامية المباركة في إيران، يتعرض فيها لهذه النظريات الخاطئة ويفنّدها بأدلة علمية وتاريخية متينة، ثم هو يطرح طرحاً واعياً ودقيقاً للنظرة الصحيحة التي تفسر الموقف الذي كان يتحرك من خلاله كل إمام ليمهد الطريق للإمام الذي يليه، حتى وصل الأمر إلى الإمام الصادق الذي لم تكن قيادته خاضعة للأهواء أو المصالح أو الخوف من الظالمين، بل كان موقفه ـ كما ذكرنا ـ موقفاً مبدئياً معصوماً، رسمه له الله سبحانه ومهَّد له آباؤه المعصومون، وطبّقه هو بحنكته السياسية ووعيه الربّاني، ليقود دفّة السفينة الاسلامية إلى شاطئ النجاة والأمان،وليحفظ للمسلمين دينهم وعقيدتهم وفق أسسها المحمدية الصحيحة التي حاولت الأيدي الظالمة على امتداد التاريخ طمس معالمها وإطفاء نورها.

مقدمة المترجم

لهذه المحاضرة قصة..

والقصّة تبين مشهداً من مشاهد الساحة الايرانية قبل انتصار الثورة الاسلامية بكل ما كان فيها من نشاط اسلامي، ومن تحديات وعقبات.

في شهر شوال سنة ١٣٥٣هجرية شمسية (١٣٩٤هـ. ق) دقّ جرس الهاتف في منزل الاستاذ المحاضر بمدينة مشهد. كان على الخط الأستاذ الشهيد الدكتور محمد مفتّح من طهران. بعد تبادل التحايا طلب الشيخ مفتح من صاحب المحاضرة أن يقدم إلى طهران في يوم ٢٥ شوال (يوم وفاة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام) ليلقي محاضرة عن الإمام الصادق.

كانت ظروف صاحب المحاضرة صعبة آنذاك، بسبب زحمة الأعمال والدروس وكثرة المراجعات من جميع أرجاء ايران. كان يلقي المحاضرات في مسجد «الامام الحسن» ثم في «مسجد الكرامة» في مشهد الواقعة شرق ايران، وينتقل منها إلى غرب ايران ليحاضر في همدان وكرمانشاه. وفي مشهد يدرس التفسير ونهج البلاغة والحديث... اضافة إلى دروس تخصصية في الفقه وأصول الفقه.

كل هذا كان يقوم به في ظروف ضاغطة جداً... ظروف مالية صعبة، وظروف سياسية قاسية... لقد كان يعيش في فقر مدقع دون أن يعلم بذلك أحد، ودون أن يشكو ذلك لأحد. والسلطة كانت تحصي عليه انفاسه وتتابعه

وتراقبه بشدّة. أغلقت «مسجد الكرامة» في هذا العام بالذات، فاكتفى بمسجده الصغير «مسجد الامام الحسن» يواصل فيه نشاطه.. ثم اعتقلته في شتاء ذلك العام. وبذلك دخل سجنه الخامس في قصة يطول ذكرها.

في مثل هذه الظروف جاء طلب الشيخ مفتّح لإلقاء محاضرة عن الإمام الصادق عليه السلام في طهران بمسجد «جاويد» حيث كان الشيخ مفتح يؤم الناس فيه.

اعتذر صاحب المحاضرة عن الحضور للأسباب المذكورة، ولعلمه بوجود أساتذة يملأون الفراغ في طهران من مثل الشيخ مفتح نفسه ولكن الشيخ أصرّ وأصرّ وما كان من المحاضر إلاّ الإمتثال.

بعد أيام دقّ جرس الهاتف ثانية، وكان الشيخ مفتح على الخط من طهران وقال:

إن الشرطة منعت المحاضرة!

تنفس الأستاذ المحاضر الصعداء، وأحسّ بالراحة وحمد الله على ذلك.

ولكن الأستاذ مفتح ما لبث أن اتصل ثالثة وقال:

لقد رُفع المنع والحمد لله، ولا بدّ أن تحضر في الوقت المقرّر. حاول السيد المحاضر أن يعتذر ولكن الشيخ قال له: لقد أعلنا نبأ المحاضرة في الجامعات. حاول المحاضر أن يتعلل بصعوبة الحصول على تذكرة الطائرة. لكن الشيخ أبدى استعداده لتوفيرها... لا بدّ من السفر إذن!

في يوم القاء المحاضرة نفسه غادر مشهد، وقبل ساعات من بدئها وصل طهران واتجه مباشرة الى المسجد.

فرح الشيخ كثيراً حينما رآه، وكان هو وما يقرب من مائتي شاب مستعدين للصلاة. وفي أثناء الصلاة التحق عدد آخر من الشباب فأصبحوا بضع مئات. وبعد دقائق تدفقت أفواج الطلبة فجأة على المسجد، بعد انتهاء الدروس في الجامعة.

غصّ المسجد وفناؤه والزقاق المجاور له بالناس.. بدأ السيد الأستاذ يلقي محاضرته وبيده أربعون ورقة كتب فيها مذكرات ترتبط بالمحاضرة. واستمر يتحدث ويتحدث والجالسون منشدّون إليه، وكأن على رؤوسهم الطير. واستمرت المحاضرة ٣ ساعات، وخلالها تناول بالشرح بضعا من الورقات الأربعين التي أعدها مذكرات لمحاضرته. واختتم المحاضرة رافعاً الأوراق الأربعين إلى الحاضرين مشيراً إلى أنه بيّن قليلاً من كثير مما أعدّه.

ولم يمض طويلاً على هذه الحادثة إذ اعتقل الشيخ مفتح ومنع من الصلاة في مسجد «جاويد» فانتقل بعد الافراج عنه إلى الصلاة في مسجد «قبا».

وهنا لا بدّ من التنويه إلى أمر هام وهو: إن السيد الأستاذ حفظه الله ألقى هذه المحاضرة قبل عشرين عاماً، وبعدها كانت له مطالعات ودراسات واسعة في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام، وربما عنت له نظرات جديدة، أو تغيّر رأيه في مسألة معينة من المسائل المطروحة في المحاضرة. وكم كنّا نودّ أن نرى رأيه فيها لنحصل على آخر نظراته قبل أن نقدم على نقلها إلى اللغة العربية. ولكن عظم المسؤوليات وزحمة الأعمال وتراكمها حال دون ذلك، لذلك نقدمها إلى القارئ الكريم كما هي، ففيها من الجديد الشيء الكثير، وفيها من تراثيات الفكر الاسلامي المطروح في ايران قبل انتصار الإسلام ما يهمّ كل متتبع.

ويلاحظ في المحاضرة أن السيد الأستاذ يواجه تيارين طالما واجههما في محاضراته ودروسه وهما: التيار اليساري المتحامل على الاسلام وعلى رموز الإسلام، والذي يصف رجال الاسلام بأنهم لم يتصدوا للدفاع عن المحرومين والمظلومين بل كانوا سنداً للظالمين والمترفين!! والتيار المهزوم القاعد الذي يحاول أن يجد في حياة أئمة الإسلام ما يبرر قعوده وسكونه، وهذان التياران كان لهما ثقلهما في الساحة الايرانية قبل تنامي الثورة الاسلامية، وكانا يشكلان عقبة أمام العاملين نحو دفع المجتمع على المسيرة الاسلامية.

الدكتور محمد علي آذرشب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾

﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾

نظرتان خاطئتان

«الحـمـد لله والصـلاة والسـلام على رسـول الله وعلى آله ومن اهتـدى بهداه»

ثمة نظرتان خاطئتان بشأن الإمام الصادق عليه السلام ناشئتان عن لونين من التفكير؛ ومن الغريب أنهما على اختلافهما تتقاربان في الشكل والمحتوى والمنشأ، بل يمكن القول ان النظرتين تشتركان في بعض المحاور اشتراكاً تاماً.

النظرة الاولى: نظرة مدافعة يبديها أولئك الذين يخالون أنهم من أتباع الإمام ومواليه.. إنها نظرة شيعة الإمام الصادق عليه السلام بالقول، لا بالعمل، وتتلخص بما يلي:

إن الإمام الصادق عليه السلام توفرت له ظروف لم تتوفر لإمام من قبله ولا من بعده، استطاع أن يستغلها لنشر أحكام الدين، وأن يفتح أبواب مجلسه لطلاب العلم. جلس في بيته، وفتح صدره للمراجعين، وتصدّى للتدريس ونشر المعارف، وارتوى كل من قصده من طلاب العلم وناشدي الحقيقة. اشترك في مجلس درسه أربعة آلاف تلميذ، وعن طريق هؤلاء التلاميذ انتشرت علوم الإمام الصادق، منها العلوم الدينية: كالفقه والحديث والتفسير، ومنها العلوم الانسانية: كالتاريخ والأخلاق وعلم الاجتماع.

وتصدّى الإمام لمناقشة المنتمين إلى الأفكار الدخيلة، والردّ على الزنادقة والماديين والملحدين، مباشرة أو عن طريق تلاميذه، وقارع أصحاب النحل

المنحـرفـة بقـوّة. ولكل مـجـالٍ من مـجـالات الدين، ربّى كـوكـبـة من الطلبـة والمتخصصين.

ويقول أصحاب هذه النظرة أيضاً إن الإمام ـ وحرصاً على استمرار هذا المشروع العلمي ـ اضطر إلى عدم التدخل في السياسة، فلم يُقدِم على أي عمل سياسي، بل وأكثر من ذلك فانه سلك طريقاً يتماشى مع سياسة خلفاء زمانه لاسترضائهم، ولاستبعاد أية شبهة يمكن أن تحوم حول نشاطه. لذلك لم يجابههم، ومنع أيضاً أن يجابههم أحد. وقد تستلزم الظروف أن يذهب إليهم وينال جائزتهم وحظوتهم، وإن حدث أن أساء الحاكم به الظن ـ نتيجة حدوث حركة ثورية أو تهمة لفّقها نمّام ـ يتجه الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى استمالة الحاكم ومجاملته.

ويورد أصحاب هذه النظرة شواهد تاريخية، من ذلك رواية ربيع الحاجب وأمـثـالهـا، التي تصوّر الإمـام في مـجلس المنصـور وهو يبـدي الاعـتـراف بالتقصير واعلان الندم، وتنقل عن الإمام عبارات مدح وثناء يبديها تجاه الخليفة المنصور، مما لا يشك الانسان في كذب صدورها عن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تجاه طاغية كالمنصور. هذه العبارات تصور المنصور بأنه كيوسف وسليمان وأيوب، وتطلب منه أن يصبر على ما يرى من إساءات الإمام أو إساءات بني الحسن: «إن سليمان أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت من ذلك السنخ...»(١).

هذه نظرة تصور الإمام عالماً، باحثاً، وأستاذا كبيراً انتهل من بحر علمه أبو حنيفة ومالك و... لكنه كان بعيداً كل البعد عن كل مقاومة لعدوان السلطة على الدين، وعن كل ما تتطلبه مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) هذا المضمون نقل في ثماني عبارات أخرى، دون ذكر السند أصلاً، وثمة رواية أخرى فيها سلسلة رواة غير أن الراوي الأصلي غير معلوم لأنه لا يوجد بين الرواة من كان حاضراً في مجلس المنصور. وتوجد رواية واحدة فقط ينقلها الراوي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مباشرة بسند غير موثوق. (راجع: البحار، ج٤٧ ص ١٨٢ رواية ٢٨ باب٦، وقاموس الرجال ج٩ ص ٥٠٩)

المنكر أمام السلطان الجائر... كان بعيداً كل البعد عن الثوار من أمثال: زيد بن علي ومحمد بن عبدالله والحسين بن علي شهيد فخ، بل عن الجنود المقاتلين مع هؤلاء الثوار، ولم يكن يبدي أي رد فعل تجاه ما يحل بالمجتمع الاسلامي، ولا يكترث بما كان يكتنزه المنصور من أموال طائلة، ولا بما كان يعاني منه أبناء رسول الله في جبال طبرستان ومازندران، وفي رساتيق العراق وايران من جوع، بحيث لا يجدون ما يسدّ رمقهم، ولا ما يسترهم إذا أرادوا الصلاة جماعة!! ولا يهتم بما كان يتعرض له أتباعه من قتل وتعذيب وتشريد وهم صفر اليدين من كل متاع يتنعم به الأفراد العاديون من أبناء المجتمع آنذاك!!

في ظن أصحاب هذه النظرة أن الإمام الصادق لم يبد أية حساسية تجاه هذا الوضع، بل كان قانعاً بأن يأتيه من مثل ابن أبي العوجاء، فيقارعه بالحجج والبراهين ويغلبه، ويخرج من بيته مهزوماً... دون أن يؤمن طبعاً.

هذه هي صورة الإمام الصادق كما يرسمها أصحاب النظرة الأولى.

النظرة الثانية: يحملها أولئك الذين لا يعترفون بإمامة الصادق، وهي نظرة متحاملة على الإمام ترى أنه عليه السلام وقف تجاه ما كان يحيق بالمجتمع من ظلم موقف عدم اكتراث. فالمجتمع في زمانه كان يضجّ بالمظالم الطبقية والطغيان السياسي والسيطرة المقيتة على أموال الناس(١) وأنفسهم وأعراضهم، وأكثر من ذلك على عقولهم ونفوسم وتفكيرهم ومشاعرهم. حتى لم تعد الأمة تتمتع بأبسط الحقوق الانسانية، بما في ذلك القدرة على الانتخاب. مقابل هذا كان الطواغيت يتلاعبون بمقدرات الناس كيفما شاءوا، ويبنون القصور الفارهة، مثل قصر الحمراء جوار آلاف الخرائب التي يعيش فيها البؤساء من عامة الشعب. في مثل هذا المجتمع المليء بألوان التعسف والاضطهاد يتجه الصادق إلى البحث والدراسة وتربية

(١) حين مات المنصور كان في خزانته من الأموال النقدية ستمائة مليون درهم وأربعة عشر مليون دينار (عصر الازدهار ص ٦٠ ـ ٧٠).

الطلبة، ويصبّ اهتمامه على تخريج الفقهاء والمتكلمين..!!

إن كلا النظرتين مجحفتان، لا تقومان على أساس ولا تستندان إلى دليل واقعي. غير أن النظرة الأولى أشد إجحافاً وأكثر ظلماً للإمام الصادق عليه السلام لأنها صادرة عن لسان من يدعي أنه من شيعته وأتباعه.

لا أريد أن أنهج هنا اسلوب البحث العلمي المتداول في الدراسات بعرض جميع النصوص الواردة عن حياة الإمام الصادق عليه السلام وأقارن بينها من حيث المتن والسند لأخرج بنتيجة، فذلك له مجاله في مجالس البحث العلمي.

أريد هنا أن أطرح نظرة ثالثة مقابل تينك النظرتين... وأقرن هذه النظرة بأدلة مستقاة من مصادر موجودة بين أيديكم، كي تستطيعوا ـ مثل حَكَم محايد ـ أن تتطلعوا من خلالها إلى الوجه الحقيقي للإمام عليه السلام .

وقبل أن أدخل في صميم البحث يلزمني أن أشير إلى أن كلا النظرتين لا تقومان على أساس صحيح موثوق به.

فكما ذكرت أن النظرة الأولى تستند إلى عدد من الروايات (أوضحت وضع إسنادها في الهامش). وهذه الروايات تنسجم طبعاً مع طالبي الراحة ومحبّي العافية، فيتذرّعون بها باعتبارها حجة قاطعة. انها كافية لأن تكون مبرّراً للانتهازيين من ذوي النفوس الضعيفة المهزوزة.

فهذه الروايات تصور الإمام بأنه راح يتملّق المنصور لحفظ حياته، مع أنه كان قادراً أن يحتوي الموقف بأسلوب حكيم. وإذا كان ذلك شأن القدوة فما بالك بالمقتدي؟

نعتقد أن نصّ هذه الروايات كاف لإثبات زيفها. فالإمامُ كان قادراً على دفع شرّ المنصور عنه بطرق أخرى كما حدث في مواقف عديدة تنقلها روايات موثوقة، فلا دليل إذن على أن يعمد الإمام إلى هذا الملق الزائف والثناء الكاذب، ليضفي على المنصور خصالاً ليست فيه ومكانة لا يستحقها،

فمكانة الإمامة أرفع من ذلك بكثير دون شك، وأسمى من أن تتلوث بمثل هذه المواقف المنحطّة.

ومن حيث السند، فإن تحرّي الدقة في الرواة يكشف لنا عن أشياء كثيرة. ففي عدد من هذه الروايات نرى الإسناد ينتهي بالربيع الحاجب. والربيع حاجب المنصور! وما أعدله من راو؟! ويظهر من المصادر أن الربيع كان أقرب الناس الى المنصور، وأكثرهم زلفة لديه. استوزره المنصور سنة ١٥٣هـ (٥ سنوات بعد وفاة الإمام الصادق)، أي نال رفعة في المقام.. (ولعلّه نال هذا الترفيع ثمناً لما نسبه للصادق عليه السلام من أكاذيب).

مثل هذا الشخص الذي ثبت اخلاصه ووفاؤه لجهاز الخلافة[1] لا يستبعد منه أن يختلق الأكاذيب، فينسب كلام الملق إلى الإمام الصادق أو يغيّر كلاماً حاداً قاله الإمام إلى كلام تضرّع والتماس. هذا ليس بغريب على هذا الحاجب، لكن الغريب أن يصدق عاقلٌ قولَ أحد بطانة الخليفة بشأن عدو الخليفة، ومقولة تشيّع هذا المفتري، وهي مقولة تشكل جزءا من المؤامرة الدنيئة.

والنظرة الثانية أيضاً واهية بالدرجة نفسها وغير علمية. انها تشبه أحكام المستشرقين المنطلقة عن غرض أو جهل، ومن روح مادية محضة لا تنسجم اطلاقاً مع طبيعة الأحداث الاسلامية. ولقد شاهدنا تلك الأحكام الفجّة التافهة التي تصدر عن بعض المستشرقين تجاه الإسلام وأئمة أهل البيت عليهم السلام. كقول أحدهم[2] عن الامام الحسن المجتبى أنه باع الخلافة

---

(١) هو ثاني وآخر وزراء المنصور. كان رجلاً ذا دهاء وتدبير وله هيبة وفصاحة.. بقي في منصب الوزارة حتى آخر حياة المنصور (سنة ١٥٨هـ). ويكفيه دليلاً على وفائه للمنصور ولبني العباس أنه أنقذ الخلافة العباسية من انفجار كاد يقضي عليها أثناء احتدام الخلاف بين مدّعي وراثة المنصور.

فقد زوّر وصية على لسان المنصور في آخر لحظات حياته تأمر جميع حكام الولايات بالبيعة للمهدي ابن المنصور، فما كان من طلاب الخلافة الا الاستسلام. (راجع عصر الازدهار ص٥٩ ـ ٧٠)

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب.

بالمال! وقضى عمره بين العطر والمرأة والترف! وقول مستشرق آخر[1]: إن الاسلام نقل المجتمع من مرحلة الرقّية إلى مرحلة الاقطاع!!

والنظرة الثانية التي نتحدث عنها تشترك مع أقوال هؤلاء المستشرقين في السطحية والتسرّع والمنطلق المادي.

والطريف أن الوثائق التي يعتمد عليها أصحاب النظرة الثانية ليست سوى ما يلفّقه أصحاب النظرة الأولى من أحكام!!

النظرة الصحيحة

النظرة الثالثة: والآن نبدأ بالنظرة الثالثة بشأن الإمام الصادق عليه السلام، وهي نظرة يمكن أن يستنبطها كل ثاقب نظر بالرجوع الى المصادر والمراجع. وهذا الاستنباط لا يختص بحياة الامام الصادق وحده، بل يشمل كل أئمة أهل البيت، مع الفارق في خصائص عمل كل منهم حسب ما تقتضيه ظروف الزمان والمكان، وهذا الاختلاف في الخصائص لا يتنافى مع وحدة روح العمل المشترك وحقيقته ومع وحدة الهدف والمسير.

من أجل أن نفهم طبيعة المسيرة العامة لحياة الأئمة[2]، علينا أولاً أن نتبين فلسفة الإمامة. التيار الذي عرف في مدرسة أهل البيت باسم الإمامة، والذي تتكون عناصره الأصلية من أحد عشر شخصاً توالوا خلال قرنين ونصف القرن تقريباً، انما هو في الواقع امتداد للنبوة.

فالنبي يبعثه الله سبحانه بمنهج جديد للحياة، وبعقيدة جديدة، وبمشروع

(١) بطروشفسكي، الاسلام في ايران.

(٢) من وفاة رسول الله(ص) حتى وفاة الامام الحسن العسكري(ع).

جديد للعلاقات البشرية، وبرسالة الى الانسانية. ويطوي حياته في جهاد مستمر، وجهد متواصل، ليؤدي مهمة الرسالة الملقاة على عاتقه قدر ما يسمح له عمره المحدود.

وعملية الدعوة يجب أن تستمر بعده؛ كي تبلغ الرسالة أعلى الدرجات المتوخاة في تحقيق الأهداف. ويجب أن يحمل أعباء المواصلة من هو أقرب الناس إلى صاحب الرسالة في جميع الأبعاد؛ كي يبلغ بالأمانة إلى محطة آمنة وقاعدة رصينة ثابتة مستمرة.

هؤلاء هم الأئمة وأوصياء النبي. وكل الأنبياء العظام وأصحاب الرسالات كان لهم أوصياء وخلفاء. ومن أجل أن نعرف مهمة الإمام، لا بد أن نعرف مهمة النبي. والمهمة يبيّنها القرآن الكريم إذ يقول: ﴿**لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾(١).

هذه إحدى الآيات التي تبين علّة النبوة، وتبين من جهة أخرى مهمة الأنبياء. فالأنبياء ابتعثوا لبناء مجتمع جديد، ولاقتلاع جذور الفساد، ولاعلان ثورة على جاهلية زمانهم، وقلب مجتمعاتهم. وعملية التغيير هذه يعبّر عنها الإمام علي عليه السلام في مطلع استلام مهام حكومته بقوله: «**...حتى يعود أسفلكم اعلاكم واعلاكم اسفلكم...**»(٢).

انها عملية صناعة مجتمع على أساس التوحيد والعدل الاجتماعي وتكريم الانسان، وتحريره، وتحقيق المساواة الحقوقية والقانونية بين المجموعات والأفراد، ورفض الاستغلال والاستبداد والاحتكار، وافساح المجال للطاقات والكفاءات الانسانية، وتشجيع التعلّم والتعليم والفكر

(١) من تلك الخصائص تشريع النظام وفق المتطلبات الأساسية للانسان، والمرونة التي تسمح باستقطاب العناصر العلمية والمنطقية من كل مكان ومن كل نوع. (مع الاحتفاظ بالاتجاه المبدئي للرسالة وبشرط الانسجام مع نظرة الرسالة إلى الكون والحياة).

والتفكير.. انها عملية اقامة مجتمع تنمو فيه كل عوامل سموّ الانسان في جميع الأبعاد الأساسية، ويندفع الكائن البشري فيه باتجاه مسيرته التكاملية على ساحة التاريخ.

هذه هي المهمة التي بعث الله الأنبياء من أجلها، ونستنتج من ذلك أن الامامة، باعتبارها امتداداً لمهام النبوة، تتحمل نفس هذه الأعباء لو أن رسول الله ﷺ عاش ٢٥٠ عاما، فماذا كان يفعل يا ترى؟ وكيف كان يتحرك على طريق الدعوة، نفس هذه العملية نهض بها الأئمة. هدف الإمامة هو نفسه هدف النبوة، والطريق هو الطريق، أي إيجاد مجتمع اسلامي عادل، والسعي لصيانة مسيرته الصحيحة.

مقتضيات الزمان مختلفة طبعاً، وبنفس النسبة يختلف التكتيك والأسلوب. النبي ﷺ نفسه كان يعمل في بداية الدعوة بأسلوب يختلف عن اسلوبه حين قطع شوطاً من الطريق نحو تحقيق هدفه المنشود.

حين كانت الدعوة في بداية الطريق، وكانت محفوفة بألوان التهديدات والتحديات تطلّب الأمر تدبيراً خاصاً لمواصلة حمل الرسالة، وحين ترسّخت قواعد النظام الاسلامي، وضرب الاسلام بجرانه في الجزيرة العربية اختلف التدبير والأسلوب... والثابت والباقي هو الهدف الأسمى الذي أنزلت الرسالة من أجله.. وهو السعي لايجاد مجتمع يستطيع الانسان فيه أن يطوي مسيرته التكاملية في جميع الأبعاد، وأن تتفجر فيه الطاقات الخيّرة والقوى الكامنة الانسانية، ومن ثم صيانة هذا المجتمع ونظامه الاسلامي.

كان أئمة الشيعة يتجهون ـ كالنبي ـ نحو هذا الهدف نفسه، نحو إقامة نظام عادل اسلامي بنفس الخصائص وعلى نفس المسير. وفي حالة قيام هذا النظام تتجه الجهود نحو صيانة مسيرته واستمرارها.

ما الذي تتطلبه اقامة نظام اجتماعي أو مواصلة مسيرة هذا النظام؟ تتطلب اولاً ايديولوجية موجّهة وهادية ينبثق عنها ذلك النظام وتصوغه بصياغتها. ثم تحتاج ثانياً الى قوة تنفيذية تستطيع أن تشق الطريق وسط الصعاب والمشاكل والعقبات نحو تحقيق الهدف. نعرف أن أيديولوجية الأئمة هي الاسلام. والاسلام رسالة البشرية الخالدة. رسالة تحمل في مضمونها عناصر بقائها وخلودها(١).

وبملاحظة هذه الأمور، نستطيع بسهولة أن نفهم المنهج العام لأئمة أهل البيت وأوصياء النبي الأكرم ﷺ.

هذا المنهج ذو جانبين متلازمين: الأول يرتبط بالعقيدة، والثاني بتوفير القدرة التنفيذية والاجتماعية. ففي الجانب الأول تتجه جهودهم وهممهم إلى نشر مفاهيم الرسالة وبلورتها وترسيخها، والكشف عن الانحرافات التي تصدر عن المغرضين والمنحرفين، وبيان الاطروحة الاسلامية لما يستجّد من أمور، واحياء ما اندثر من معالم الرسالة بسبب اصطدامها مع مصالح ذوي القدرة والنفوذ، وتوضيح ما خفي على الأذهان العادية من كتاب الله العزيز وسنّة نبيّه... فمهمة الجانب الأول تتلخص إذن بصيانة الرسالة الاسلامية حيّة بنّاءة متحركة على مرّ الأجيال.

وفي الجانب الثاني، كانوا يسعون، وفقاً لما تقتضيه الظروف السياسية والاجتماعية والعالمية في المجتمع الاسلامي، الى إعداد المقدمات اللازمة لاستلام زمام قيادة الحكم في المجتمع بأنفسهم بشكل عاجل، او التمهيد لكي يستلمها على المدى البعيد من يواصل مسيرتهم في المستقبل.

هذا موجز هدف حياة الأئمة الأطهار، وهذه هي الخطوط العامة لأهدافهم. من أجلها عاشوا، ومن أجلها استشهدوا.

وإذا كان ما وصلنا من تاريخ حياة الأئمة لا يثبت ما ذهبنا اليه، فان عقيدتنا في الأئمة كافية لأن تصوّر حياتهم بهذا المنظار لا غير، فما بالك

إذا كان التاريخ يشهد بما يقنع كل باحث أن حياة أئمة آل البيت كانت في هذا الاتجاه؟

مراحل مسيرة الامامة

استمرت مسيرة الإمامة منذ رحلة رسول الله ﷺ في شهر صفر سنة ١١هجرية، حتى وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام في ربيع الأول سنة ٢٦٠هـ. وخلال هذه السنين طوت المسيرة اربع مراحل كان للأئمة في كل منها موقف متميز تجاه حكام المجتمع الاسلامي:

المرحلة الاولى: مرحلة السكوت، أو مرحلة التعاون مع الحاكم.

تميزت هذه المرحلة بأن المجتمع الاسلامي الوليد كان محفوفاً بأخطار الأعداء الذين تربّصوا بالاسلام من الخارج بعد أن أحسّوا بخطر الرسالة عليهم، وكان هناك أعداد غفيرة من جماعات حديثة العهد بالاسلام لا تطيق أن ترى تشتتاً في المجتمع الاسلامي، وكل ثغرة في جسد الأمة تشكل تهديداً لأساس المجتمع الاسلامي ووجوده.

ومن جانب آخر لم يكن منحنى الانحراف قد ارتفع بحيث لم يعد قابلاً للتحمّل بالنسبة لشخص مثل امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي هو أحرص الناس على سلامة الرسالة وسلامة المجتمع الاسلامي. ولعل هذه الحالة التي حدثت في المجتمع الاسلامي هي التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين أوصى تلميذه الفذّ بالصبر عند وقوعها.

لقد استوعبت هذه المرحلة حياة الامام علي عليه السلام منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تولّيه الخلافة. وقد شرح الامام موقفه في هذه المرحلة خلال الكتاب الذي وجهه الى أهالي مصر مع مالك الأشتر لما ولاّه إمارتها إذ جاء فيه:

«فأمسكت يدي، حين رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الى محق دين محمد(ص) فخشيت إن لم أنصر الإسلام واهله ان ارى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم..[١]».

حين عزفت عنه الولاية سكت في سبيل الاسلام، وحين واجه المجتمع أخطاراً جسيمة، قام ينافح عن الاسلام والمجتمع الاسلامي هادياً وموجهاً وعاملاً في المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية. وفي نهج البلاغة وسيرة علي عليه السلام ما يدل بيقين على طبيعة تحرّك الامام خلال هذه الفترة.

المرحلة الثانية: مرحلة استلام الحكم. وهذه استغرقت اربعة أعوام وتسعة أشهر من خلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام. وبضعة أشهر من خلافة ولده الحسن عليه السلام. ومع كل ما اكتنف هذه المرحلة من آلام وهموم ومشاكل ومصاعب تكتنف عادة كل حكومة ثائرة، فانها سجلت أنصع الصفحات وأروعها في تاريخ الحكومة الإسلامية، بما قدمته من طريقة انسانية في التعامل، ومن عدل والتزام دقيق بأحكام الاسلام بأبعاده المختلفة في ادارة المجتمع الاسلامي، هذا إلى جانب الحزم والصراحة والجرأة في التطبيق واتخاذ المواقف.

هذه المرحلة من تاريخ الإمامة كانت النموذج الذي دعا أئمة أهل البيت عليهم السلام خلال القرنين التاليين الى تطبيقه في الحياة السياسية

---

(١) الرسالة ٦٢ من نهج البلاغة.

والاجتماعية. وأتباع مدرسة أهل البيت منشدّون باستمرار الى تلك الفترة التاريخية، ينشدون استعادتها في حياتهم، ويتخذونها أساساً في تقويم أنظمة زمانهم.

وبهذا المعيار يدينون الأنظمة المنحرفة عن النهج الإسلامي، كما كانت هذه الفترة تجربة ودرساً لحكومة اسلامية ثورية تماماً في مجتمع عصفت به الأهواء والانحرافات. وكانت حالة المجتمع هذه قد ألقت عبئاً ثقيلاً ومسؤولية كبيرة على الأئمة التالين.

المرحلة الثالثة: هي التي استوعبت السنوات العشرين بين صلح الامام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ سنة ٤١هـ، وشهادة الامام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ سنة٦١هـ.

بعد صلح الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ بدأ نوع من العمل شبه السري، هدفه إعادة القيادة الاسلامية إلى أصحابها الحقيقيين، إذ كان الأمر يتطلّب التريّث ريثما تنتهي مدة حكم معاوية، وخلال هذه المدة القصيرة توجهت الجهود البناءة للتمهيد إلى المرحلة التالية(١).

المرحلة الرابعة: هي التي نحتاج إلى ان نقف عندها ولو قليلاً، لأنها هي التي تعنينا في دراسة حياة الامام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ. في هذه المرحلة التي استمرت قرابة قرنين، تواصلت مسيرة الإمامة ضمن خطة بعيدة المدى لتغيير المجتمع وفق نظرة الاسلام في جميع المجالات، بما في ذلك القيادة السياسية. كانت مفعمة بالانتصارات والانتكاسات، ومقرونة بنجاح باهر في مجال العمل الفكري والعقائدي، وممتزجة بألوان الأساليب الرائعة في العمل التكتيكي المناسب، ومزدانة بأسمى وأروع مظاهر الاخلاص والتضحية والتفاني والعظمة الانسانية على الطراز الاسلامي.

---

(١) شرحت بالتفصيل طبيعة هذه الفترة في محاضرات متعددة مستنداً إلى الوثائق التاريخية المتوفرة.

هذه المرحلة بدأت من محرم سنة ٦١ هجرية، بعد استشهاد الامام الحسين بن علي عليه السلام وبدء إمامة علي بن الحسين عليه السلام . وفي هذه المرحلة نشط الأئمة ـ كما ذكرنا ـ في الحقل الايديولوجي ومكافحة الانحرافات والتحريفات التي خلّفتها مراكز القدرة والأذهان الجاهلة، الى جانب العمل على المدى البعيد لإقامة حكم اسلامي ينتهج القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتمثّل نموذج حكومة علي عليه السلام .

واضح أن تنفيذ منهج ثوري أصيل عميق في مجتمع مرّت عليه سنون من الانحراف الفكري والعملي يستدعي تكتيكاً دقيقاً وتخطيطاً أساسياً. فالمجتمع الاسلامي آنئذ قد مرّت عليه فترة حكومة معاوية بكل ما فيها من تخدير وتحريف وتزييف وابتعاد عن الروح الرسالية وحرمان من القيادة المبدئية، مما أدّى إلى تفاقم خطر الانحراف، حتى إنّ الأمر آل إلى مقتل ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كربلاء على مسمع ومرأى من هذا المجتمع المرعوب المشلول المهزوم أمام الارهاب الأموي.

لا بدّ إذن من عمل كبير يعيد الى هذا المجتمع معنوياته المفقودة وشخصيته المسحوقة، انها لعملية تغيير كبرى يحتاجها هذا المجتمع كي يعود مرّة اخرى مؤهلاً لحمل الرسالة والنهوض بأعباء المسؤولية الثقيلة. لا بد من ثورة كالتي أعلنها رسول الله في المجتمع الجاهلي، ثم تولّي قيادة هذا المجتمع انطلاقاً من هذه الثورة.

إن إعادة الحياة الثورية وتجديدها عملية لا تقلّ صعوبة وأهمية عن خلق الثورة وإيجادها. عملية التجديد الثوري بحاجة إلى إيمان عميق، وعزم راسخ، وعقل مدبر، وفكر يقظ وواع وفعّال. فمن الذي يحمل عبء هذه المسؤولية؟!

تلك الفئة التي ما استطاعت أن تسير وراء الإمام الحسن عليه السلام وما ارتفعت إلى مستوى مناصرة الإمام الحسين عليه السلام غير قادرة دون شك

على عملية الإحياء هذه. والاعتماد على هذه الفئة ليس وراءه الا الفشل والخسران.

إن تجربة «التوابين» ثم قيام المختار وابراهيم بن مالك خير دليل على ما ذهبنا اليه.

موقف الامام السجاد عليه السلام

والامام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يقف الآن بعد حادثة عاشوراء على مفترق طريقين:

إما أن يعمد إلى دفع أصحابه نحو حركة عاطفية هائجة، ويدخلهم في مغامرة، لا تلبث شعلتها - بسبب عدم وجود المقوّمات اللازمة فيهم - أن تخمد وجذوتها أن تنطفئ، وتبقى الساحة بعد ذلك خالية لبني أمية، يتحكّمون في مقدّرات الأمة فكرياً وسياسياً ... أو أن يسيطر على العواطف السطحية والمشاعر الفائرة، ويعد المقدمات للعملية الكبرى، المقدمات المتمثلة في الفكر الرائد والطليعة الواعية الصالحة لإعادة الحياة الإسلامية الى المجتمع، وأن يصون حياته وحياة المجموعة الصالحة لتكون النواة الثورية للتغيير المستقبلي، ويبتعد عن أعين بني أمية، ويواصل نشاطه الدائب على جبهة بناء الفكر وبناء الأفراد. وبذلك يقطع شوطاً على طريق الهدف المنشود، ويكون الامام الذي يليه أقرب إلى هذا الهدف.

فأي الطريقين يختار؟

لا شك أن الطريق الأول هو طريق التضحية والفداء، لكن القائد الذي يخطط لحركة التاريخ، ولمدى أبعد بكثير من حياته، لا يكفي أن يكون مضحّياً فقط، بل لا بد أيضاً أن يكون عميقاً في فكره واسعاً في صدره، بعيداً في نظرته، مدبّراً وحكيماً في أموره... وهذه الشروط تفرض على الامام انتخاب الطريق الثاني.

والامام علي بن الحسين عليه السلام اختار الطريق الثاني مع كل ما يتطلبه من صبر ومعاناة وتحمّل ومشاق، وقدّم حياته على هذا الطريق (سنة ٩٥هجرية).

وقد صوّر الامام الصادق عليه السلام وضع الامام الرابع ودوره الرائد بقوله:

«ارتدّ الناس بعد الحسين عليه السلام إلا ثلاثة: ابو خالد الكابلي، ويحيى بن أم الطويل، وجبير بن مطعم، ثم إن الناس لحقوا وكثروا، وكان يحيى بن أم الطويل يدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول: ﴿كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾(١).

هذه الرواية تصوّر حالة المجتمع الاسلامي بعد مقتل الحسين عليه السلام إنها حالة الهزيمة النفسية الرهيبة التي عمّت المجتمع الاسلامي ابان وقوع هذه الحادثة. فمأساة كربلاء كانت مؤشراً على هبوط معنويات هذا المجتمع عامة، حتى شيعة أهل البيت. هؤلاء الشيعة الذين اكتفوا بارتباطهم العاطفي بالأئمة، بينما ركنوا عملياً إلى الدنيا ومتاعها وبريقها.. ومثل هؤلاء كانوا موجودين على مرّ التاريخ، وليسوا قليلين حتى يومنا هذا.

فمن بين الآلاف من مدّعي التشيّع في زمن الامام السجاد عليه السلام بقي ثلاثة فقط على الطريق.. ثلاثة فقط لم يرعبهم الارهاب الأموي ولا بطش النظام الحاكم، ولم يثن عزمهم حبّ السلامة وطلب العافية، بل ظلّوا ملبّين مقاومين يواصلون طريقهم بعزم وثبات.

---

(١) بحار الأنوار، ط: الاسلامية، ج٤٦ ص ١٤٤. وفي رواية أخرى أضيف جابر بن عبدالله الأنصاري إلى هؤلاء الثلاثة. وفي رواية أخرى بدل جابر بن عبدالله ورد ذكر سعيد بن المسيب المخزومي وفي رواية أخرى أضيف إلى هؤلاء جميعاً سعيد بن جبير، وبدلاً من جبير بن مطعم ذكر اسم محمد بن جبير بن مطعم (رجال الكشي، ط: صطفوي، ص١١٥)، ويرى العالم الرجالي المعاصر المحقق الشوشتري أن اسم جبير بن مطعم في هذا الحديث حرّف من حيم بن جبير بن مطعم. (قاموس الرجال، ج٩ ص ٣٩٩).

هؤلاء لم ينجرفوا مع تيار المجتمع المنجر كالرعاع وراء ارادة الحاكم الظالم، بل كان يقف الواحد منهم وهو يحيى بن ام الطويل في مسجد المدينة ويخاطب مدّعي الولاء لأهل البيت، معلناً براءته منهم ـ كما مرّ ـ ويستشهد بما قاله ابراهيم عليه السلام وأتباعه لمعارضي زمانه: **﴿كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾**(١).

أراد ابن أم الطويل بتلاوته هذه الآية المباركة أمام مدّعي الولاء لأهل البيت عليهم السلام أن يعلن الانفصال التام بين الجبهتين: جبهة الرساليين الملتزمين، وجبهة الخلود إلى الأرض والانحطاط إلى مستوى الأماني الرخيصة والانشدادات المادية التافهة. وهو انفصال يرافق كل الدعوات الإلهية. والإمام الصادق عليه السلام عبّر عن هذا الانفصال بين الجبهتين بقوله: «من لم يكن معنا كان علينا» أي من لم يكن في جبهة التوحيد كان في جبهة الطاغوت، وليس ثمة منطقة وسط بين الاثنين، ولا معنى للحياد في هذا الانتماء.

إن يحيى ابن أم الطويل هذا المسلم والموالي الحقيقي لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصرخته هذه يعلن الانفصال بين الذين يُرضون أنفسهم بالولاء العاطفي بينما هم قابعون في قوقعة مصالحهم الشخصية وغارقون في مستنقع ذاتياتهم الضيقة، وبين أولئك الملتزمين فكراً وعملاً بالامام.

هذا الانفصال يعني ـ طبعاً ـ الترفّع عن الانجرار وراء الأكثرية الضالّة، ولا يعني اهمال هؤلاء الضالين. من هنا اتجهت هذه المجموعة الصالحة الى انتشال من له قابلية التحرر من الإصر والأغلال، وكثرت بالتدريج هذه الفئة المجاهدة الصابرة، والى هذا يشير الامام الصادق عليه السلام في قوله المذكور آنفاً: «ثم إن الناس لحقوا وكثروا». وبذلك واصل

---

(١) الممتحنة: ٤.

الامام السجاد عليه السلام نشاطه. وكان هذا النشاط وبعض المواقف الأخرى التي سنذكرها مما أدّى الى استشهاده، واستشهاد بعض المقربين من أتباعه.

لم أر في حياة الإمام السجاد عليه السلام ما يدل على مواجهة صريحة مع الجهاز الحاكم، والحكمة كانت تقتضي ذلك ـ كما ذكرنا ـ لأنه لو اتخذ مثل تلك المواقف التي نشاهدها في حياة الامام موسى بن جعفر عليه السلام وبعده من الأئمة تجاه حكام عصره لما استطاع أن يحقق ما حققه من دفع عملية التغيير دفعة استطاعت أن توفّر للامام الباقر عليه السلام فرصة نشاط واسع بل، لصُفّي هو والمجموعة الصالحة الملتفّة حوله.

في مواقف نادرة نلمس من الامام عليه السلام رأيه الحقيقي من السلطة الحاكمة، ولكن ليس على مستوى المواجهة، بل على مستوى تسجيل موقف للتاريخ وليجعل المحيط القريب منه على قدر من العلم بعمله وحركته.

من تلك المواقف، رسالة تقريع صارخة وجهها الامام عليه السلام إلى رجل دين مرتبط بجهاز بني أمية هو «محمد بن شهاب الزهري». ونستطيع أن نفهم من الرسالة أن الامام يخاطب بها الأجيال على مرّ العصور، لا الزهري. لأن الزهري لم يكن بالشخص الذي يستطيع أن يتحرر من الأغلال التي تشدّه إلى موائد بني أمية وقصاعهم ولهوهم ومناصبهم وجاههم. ولم يستطع بالفعل. لقد قضى عمره في خدمتهم، ودوّن كتاباً، ووضع حديثاً ليتزلف اليهم[1].

هذه الرسالة إذن وثيقة توضح موقف الامام من أوضاع زمانه، ونصّها

(١) راجع: أجوبة مسائل جار الله، للسيد شرف الدين العاملي، ص ٥٩و٦٠، وكذلك: دراسات في الكافي والصحيح ص ٢١٦.

موجود في كتاب «تحف العقول»(١).

وثمة وثيقة أخرى هي عبارة عن رسالة جوابية وجهها الامام عليه السلام إلى عبد الملك بن مروان بعد أن أرسل الثاني رسالة يعيّر فيها الامام بزواجه من أمته المحررة، وقصد ابن مروان بذلك أن يبين للامام عليه السلام أنه محيط بكل ما يفعله حتى في أموره الشخصية، كما أراد أيضاً أن يذكّر الامام بقرابته منه طمعاً في استمالته.

والامام عليه السلام في رسالته الجوابية يوضح رأي الاسلام في هذه المسألة، ويؤكد أن امتياز الايمان والاسلام يلغي كل امتياز آخر. ثم بأسلوب كناية في غاية الروعة يشير الامام إلى الجاهلية آباء الخليفة، بل لعله يشير أيضاً إلى ما عليه الخليفة بالذات من جاهلية إذ يقول له: **«فلا لؤم على امرئ مسلم، إنما اللؤم لؤم الجاهلية»**.

وحين قرأ الخليفة الأموي عبارة الإمام عليه السلام أدرك معناها تماماً، كما أدرك المعنى ابنه سليمان إذ قال له: «يا أمير المؤمنين لَشَدَّ ما فخر عليك علي بن الحسين!!».

والخليفة بحنكته السياسية يرد على ابنه بما يوحي أنه أعرف من الابن بعاقبة الاصطدام مع إمام الشيعة فيقول له: «يا بنيّ لا تقل ذلك فانها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر وتغرق من بحر، إن علي بن الحسين يا بني يرتفع من حيث يتصنّع الناس(٢)».

ونموذج آخر من هذه المواقف ردّ الامام عليه السلام على طلب تقدم به عبد الملك بن مروان. كان عبد الملك قد بلغه أن سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند الامام. فبعث اليه من يطلب منه أن يهب السيف للخليفة، وهدده إن أبى بقطع عطاء بيت المال عنه.

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول ٢٧٢ ـ ٢٧٧ط: جماعة المدرسين ـ قم.

(٢) بحار الأنوار ج٤٦ ص ١٦٥، ط: بيروت، نقلاً عن الكافي ج٥ ص ٣٤٤.

فكتب اليه الامام عليه السلام :

«أما بعد فان الله ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون، والرزق من حيث لا يحتسبون، وقال جلّ ذكره: ﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ فانظر اينّا أولى بهذه الآية»[١].

وفي غير هذه المواقف نرى الامام السجاد عليه السلام يتحرك بهدوء وباستتار في اتجاه تربية الافراد وصنع الشخصية الاسلامية وفق مدرسة أهل البيت ومحاربة الانحرافات و... وبذلك قطع في الواقع الخطوة الأساسية الأولى على طريق تحقيق هدف مدرسة أهل البيت المتمثل بإقامة المجتمع الإسلامي المستظل بحكومة اسلامية صالحة على نموذج حكومة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب عليه السلام . وكما ذكرنا من قبل لم يسلم الامام عليه السلام وأتباعه رغم هذا النهج - المسالم على الظاهر - من بطش الجهاز الأموي وتنكيله. فمن أتباعه من قتل بشكل فظيع، ومنهم من سجن، ومنهم تشرّد بعيداً عن الأهل والديار، والامام عليه السلام نفسه في مرة واحدة على الأقل سيق مقيّداً بالأغلال في حالة مؤلمة من المدينة الى الشام، وتعرّض مرات لألوان الأذى والتعذيب. ثم دسّ الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك له السمّ واستشهد سنة ٩٥هجرية[٢].

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٥.

(٢) حياة الامام السجاد(ع) بأبعادها الجهادية وما اكتنفها من أحداث من أروع مقاطع حياة أئمة أهل البيت(ع) وسيأتي الحديث عنها مفصلاً.

حياة الإمام الباقر
استمرار منطقي لحياة الإمام السجاد

أصبح أتباع أهل البيت مجموعة متميزة ذات وجود مستقل، ودعوة أهل البيت التي اعترتها وقفة واحتجبت وراء ستار سميك بسبب حادثة كربلاء وما أعقبها من حوادث دموية كوقعة الحرّة وثورة التوابين وبسبب بطش الأمويين، قد أصبح لها وجود منتشر وواضح في كثير من الأقطار الإسلامية خاصة في العراق والحجاز وخراسان، وأصبح لها «تنظيم» فكري وعملي. وولّت تلك الأيام التي قال الإمام السجاد عليه السلام عنها: إن أتباعه ما كانوا يزيدون فيها على عشرين شخصاً. وأضحى الإمام الباقر عليه السلام يدخل مسجد النبي صلى الله عليه وآله في المدينة فيلتف حوله جمع غفير من أهل خراسان وغيرها من أصقاع العالم الاسلامي، يسألونه عن رأي الإسلام في مختلف شؤون الحياة، ويفد عليه أمثال طاووس اليماني وقتادة بن دعامة وأبو حنيفة وآخرون من أئمة المذاهب الفقهية لينتهلوا من علم الإمام أو ليحاجّوه في أمور مختلفة. وبرز شعراء يدافعون عن مدرسة أهل البيت، ويُعبّرون عن أهدافها، منهم الكميت الذي رسم في هاشمياته أروع لوحة فنية في تصوير الولاء الفكري والعاطفي لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله. وتناقلت الألسن هذه الروائع الأدبية وحفظتها الصدور.

من جهة أخرى فإن خلفاء بني مروان أحسّوا خلال هذه الفترة بنوعٍ من الطمأنينة، وشعروا بالاستقرار بعد أن استطاع عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ) خلال فترة حكمه التي استمرت عشرين عاماً أن يقمع كل المعارضين. وقد يعود شعور الخلفاء المروانيين في هذا العصر بالأمن والاطمئنان إلى أن الخلافة وصلتهم غنيمة باردة، لا كأسلافهم الذين كدحوا

من أجلها مما أدّى إلى انشغالهم باللهو والملذات التي تصاحب الشعور بالاقتدار والجاه والجلال.

مهما يكن الأمر فإن حساسية خلفاء بني مروان تجاه مدرسة أهل البيت قد قلّت في هذا العصر، وأصبح الإمام وأتباعه في مأمن تقريباً من مطاردة الجهاز الحاكم.

كان من الطبيعي أن يقطع الامام خطوة رحبة في ظل هذه الظروف على طريق تحقيق أهداف مدرسة أهل البيت، ويدفع بالتشيع نحو مرحلة جديدة. وهذا ما يميّز حياة الامام الباقر عليه السلام.

ويمكن تلخيص حياة الإمام الباقر عليه السلام خلال الأعوام التسعة عشر من إمامته (٩٥ ـ ١١٤هـ) بما يلي:

إن أباه الإمام السجاد عليه السلام عندما حضرته الوفاة أوصى أن يكون ابنه محمداً إماماً من بعده في حضور سائر أبنائه وعشيرته وسلّمه صندوقا... تذكر الروايات أنه مملوء بالعلم.. وتذكر أن فيه سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: «يا محمد هذا الصندوق فاذهب به الى بيتك». ثم قال: **«اما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكنه كان مملوءاً علماً[1]»**. لعل هذا الصندوق يرمز إلى أن الإمام السجاد سلّم ابنه محمداً مسؤولية القيادة الفكرية والعلمية (فالصندوق مملوء بالعلم) وسلّمه مسؤولية القيادة الثورية (سلاح النبي).

ومع بدء الإمام وأتباعه بنشاطهم الواسع في بث تعاليم أهل البيت عليهم السلام، يتسع نطاق انتشار الدعوة، ويتخذ أبعاداً جديدة تتعدى مناطقها السابقة في المدينة والكوفة، وتجد لها شيوعاً في أصقاع بعيدة عن مركز السلطة الأموية، وخراسان في مقدمة تلك البقاع كما تحدثنا الروايات التاريخية[1].

---

(١) بحار الأنوار ٤٦: ٢٢٩باب٤، عن البصائر ٤ :٤٤.

إن الواقع الفكري والاجتماعي المزري للناس كان يدفع الإمام وأتباعه نحو حركة دائبة لا تعرف الكلال والملل من أجل تغيير هذا الواقع والنهوض بالواجب الإلهي إزاء هذا الانحراف.

إنهم يرون غالبية الناس قد خضعوا للجو الفاسد الذي أشاعه بنو أمية، فغرقوا إلى الأذقان في مستنقع حياة آسنة موبوءة، حتى أضحوا كحكّامهم لا يفقهون قولاً، ولا يصيخون لنصيحة سمعاً **«إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا»**(٢).

ومن جهة أخرى يرون دراسات الفقه والكلام والحديث والتفسير تنحو منحى إسترضاء الطاغوت الأموي وتلبية رغباته ومن هنا فإن كل أبواب عودة الناس إلى جادة الصواب كانت موصدة لولا نهوض مدرسة أهل البيت بواجبها **«وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا»**(٣).

اتجهت مدرسة أهل البيت فيما اتجهت الى تقريع اولئك الذين باعوا ذممهم من العلماء والشعراء، في محاولة لايقاظ ضمائرهم أو ضمائر أتباعهم من عامة الناس.

نرى الإمام يقول للكميت الشاعر مؤنباً:

«امتدحت عبد الملك؟» قال: ما قلت له يا إمام الهدى، وإنما قلت يا أسد، والأسد كلب، ويا شمس، والشمس جماد، ويا بحر، والبحر موات، ويا حيّة، والحيّة دُويبة منتنة، ويا جبل، وإنما هو حجر أصمّ. فتبسم الامام وأنشد الكميت بين يديه:

---

(١) من ذلك رواية أبي حمزة الثمالي يقول: «حتى أقبل أبو جعفر(ع) وحوله أهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج» (بحار الأنوار٤٦، ٣٥٧ط: بيروت)، وانظر حديث أحد علماء خراسان مع عمر بن عبد العزيز، وفيه أكثر من عبرة ودلالة. (بحار الانوار ٤٦: ٣٦٦).

(٢) من حديث للإمام الباقر(ع) في إرشاد الشيخ المفيد: ٢٨٤، وبحار الأنوار ٤٦: ٢٨٨.

(٣) بحار الأنوار ٤٦: ٢٨٨.

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام[1]

وبهذه الميمية يضع الحدّ الفاصل بين الاتجاه العلوي والإتجاه الأموي في المكانة والسيرة في صورة فنية رائعة خالدة.

وعكرمة تلميذ ابن عباس المعروف وصاحب المكانة العلمية المرموقة في المجتمع آنذاك، يذهب لمقابلة الامام، فيؤخذ بهيبة الإمام وشخصيته ووقاره ومعنويته وفكره، فيقول له: «يا بن رسول الله لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره، فما أدركني ما أدركني آنفاً».

فقال له الامام: «إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه»[2].

ومن الأبعاد الأخرى لنشاط مدرسة أهل البيت في هذه المرحلة سرد ما أحاط بأهل بيت رسول الله وأتباعهم من ظلم واضطهاد وقتل وتشريد وتعذيب في محاولة لاستثارة عواطف الناس الميتة، وتحريك ضمائرهم الرخوة، واستنهاض عزائمهم الراكدة، وتوجيههم وجهة ثورية حركية.

عن المنهال بن عمر قال: كنت جالساً مع محمد بن علي الباقر عليه السلام إذ جاءه رجل فقال له: كيف انتم؟ فقال الإمام الباقر:

«أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن؟ إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني اسرائيل، كان يذبّح ابناؤهم وتستحيا نساؤهم، الا وإن هؤلاء يذبحون ابناءنا ويستحيون نساءنا: زعمت العرب أن لهم فضلاً على العجم، فقالت العجم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد منا عربياً. قالوا لهم: صدقتم. وزعمت قريش أن لها فضلاً على غيرها من العرب، فقالت

(١) المناقب ط: ٢٠٧ وهذه الميمية من هاشمياته وفيها يخاطب أئمة أهل البيت عليهم السلام فيقول: ساسة لا كمن يرى رعية الناس سواء ورعية الأنعام وهو بيت له دلالته الكبيرة.

(٢) بحار الأنوار ٤٦: ٢٥٨.

لهم العرب من غيرهم: وبما ذاك؟ قالوا: كان محمد قرشياً. قالوا لهم: صدقتم. فان كان القوم صدقوا فلنا فضل على الناس لأنا ذرية محمد وأهل بيته وعترته، لا يشركنا في ذلك غيرنا. فقال له الرجل: والله إني لأحبكم أهل البيت. قال: فاتخذ للبلاء جلبابا، فوالله إنه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي، وبنا يبدو البلاء ثم بكم، وبنا يبدو الرخاء ثم بكم»[1].

فما إن بدت على الرجل علامات الهياج جرّاء استثارات الامام حتى سارع الامام الى رسم الطريق أمامه. إنه طريق مفروش بالدماء والدموع، والامام رائد المسيرة على هذا الطريق يصيبه البلاء أولاً قبل أن يصيب شيعته.

وفي دائرة أضيق نرى أن علاقة الامام بشيعته تتخذ خصوصيات متميزة، نراه بين هؤلاء الأتباع كالدماغ المفكر بين أعضاء الجسد الواحد، يغذيهم ويمدهم بالحيوية والحركة والنشاط باستمرار.

وتتوفر بأيدينا وثائق تبين هذا الارتباط متمثلاً بإعطاء المفاهيم والتعاليم الصريحة لهؤلاء الأتباع، وبتنظيم مترابط محسوب بينهم.

منها وصية الامام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي في أول لقاء له بالإمام أن لا يقول لأحد أنه من الكوفة، وليظهر بمظهر رجل من أهل المدينة، وبذلك يعلّم هذا التلميذ الجديد، الذي لمس الامام فيه قدرة على حفظ الأسرار، درس الكتمان.. وهذا التلميذ الكفوء أصبح بعد ذلك صاحب سرّ الامام. ويبلغ به الأمر مع الجهاز الحاكم أن يقول عنه النعمان بن بشير:

«كنت ملازماً لجابر بن يزيد الجعفي. فلما أن كنّا بالمدينة، دخل على أبي جعفر عليه السلام فودّعه وخرج من عنده وهو مسرور، حيث وردنا الأخيرجة (من نواحي المدينة) يوم جمعة فصلّينا الزوال فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل طويل آدم (أسمر) معه كتاب فناوله، فقبّله ووضعه على عينيه، وإذا

---

(١) بحار الأنوار ٤٦: ٣٦٠ رواية ١ ـ باب ١٠٠ نقلاً عن أمالي الطوسي ٩٥.

هو من محمد بن علي (الباقر) إلى جابر بن يزيد وعليه طين أسود رطب. فقال له: متى عهدك بسيّدي؟ فقال: الساعة فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة. فقال: ففكّ الخاتم وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتى أتى على آخره، ثم أمسك الكتاب فما رأيته ضاحكاً ولا مسروراً، حتى وافى الكوفة.

يقول النعمان بن بشير: فلما وافينا الكوفة ليلاً بتّ ليلتي، فلما أصبحت أتيت جابر الجعفي إعظاماً له فوجدته قد خرج عليّ وفي عنقه كعاب قد علّقها وقد ركب قصبة (كما يفعل المجانين) وهو يقول: أجد منصور بن جمهور.. أميراً غير مأمور، وأبياتاً من نحو هذا فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً، ولم أقل له، وأقبلت أبكي لما رأيته، واجتمع عليّ وعليه الصبيان والناس، وجاء حتى دخل الرّحبة، وأقبل يدور مع الصبيان، والناس يقولون: جُنّ جابر بن يزيد. فوالله ما مضت الأيام حتى ورد كتاب هشام بن عبد الملك إلي وإليه أن أنظر رجلاً يقال له: جابر بن يزيد الجعفي فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه. فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفي؟ قالوا: أصلحك الله كان رجلاً له علم وفضل وحديث، وحجّ فجنّ وهو ذا في الرحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم. قال: فأشرف عليه فإذا هو مع الصبيان يلعب على القصب. فقال: الحمد لله الذي عافاني من قتله»[١].

هذا نموذجٌ من نماذج الارتباط بين الإمام وخاصة أتباعه، يوضّح دقّة التنظيم والارتباط، ويبين كذلك نموذجاً لموقف السلطة الحاكمة من هؤلاء الاتباع، ويؤكد أن الجهاز الحاكم لم يكن غافلاً تماماً عن علاقة الإمام بأتباعه المقربين، بل كان يراقب هذه العلاقات ويحاول اكتشافها ومجابهتها[٢].

---

(١) بحار الأنوار٤٦:٢٨٢ ـ ٢٨٣ نقلاً عن الكافي: ١:٣٩٦.

(٢) يؤيد هذه الحقيقة. إضافة إلى قضية جابر ونظائرها. رواية عبدالله بن معاوية الذي يسلّم الإمام الباقر عليه السلام رسالة تهديد من حاكم المدينة (بحار الأنوار ٤٦: ٢٤٦. الباب ١٦ الرواية ٣٤).

وبالتدريج يبرز جانب المجابهة في حياة الامام الباقر عليه السلام وفي حياة الشيعة ليسجل فصلاً آخر في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام .

النصوص التاريخية الموجودة بين أيدينا وهكذا الروايات الحديثية لا تتحدث بصراحة عن حركة مقاومة سياسية حادة ينهض بها الامام. وهذا يعود الى عوامل كثيرة منها جوّ البطش والتنكيل المهيمن على المجتمع مما يفرض عنصر التقية بين أتباع الامام الذين هم المطلعون الوحيدون على حياة الامام السياسية. لكن ردود الفعل المتشدّدة التي يبديها العدو تبين عمق العمل الجهادي. فحين يتخذ جهاز حاكم مقتدر كجهاز عبد الملك بن مروان، الذي يعتبر أقوى حاكم أموي، ضد الامام الباقر عليه السلام كل أسباب الشدّة والحدّة، فإن ذلك يدل دون شك على إحساس الخليفة بالمخاطر التي تواجهه جرّاء حركة الامام وأتباعه. لو كان الامام منهمكاً فقط بنشاط علمي، لا ببناء فكري وتنظيمي، فان الجهاز الحاكم لم يكن من مصلحته أن يتشدّد مع الامام، لأنّ ذلك يدفع بالامام وبأتباعه الى موقف ساخط متشدّد كالذي اتخذه الثائر العلوي شهيد فخ الحسين بن علي من السلطة.

باختصار، موقف السلطة المتشدّد من الامام الباقر عليه السلام يمكن فهمه على أنه رد فعل لما كان يمارسه الامام من عمل معارض للسلطة.

من الأحداث الهامة في أواخر حياة الامام الباقر عليه السلام استدعاء الامام الى الشام عاصمة الخلافة الأموية. فالخليفة الأموي أراد أن يستوثق من موقف الامام تجاه الجهاز الحاكم فأمر باعتقاله وارساله مخفوراً إلى الشام. (وفي بعض الروايات أن الحكم هذا شمل ابنه الشاب أيضاً جعفراً الصادق).

يؤتى بالإمام إلى قصر الخليفة. وهشام أملى على حاشيته طريقة مواجهة الامام لدى وروده. تقرر أن يبتدئ الخليفة ثم تليه الحاشية بإلقاء سيول التهم على الامام، وكان يستهدف في ذلك امرين: اولهما

إضعاف معنويات الامام وخلق حالة من الانهيار النفسي فيه. والثاني: محاولة إدانة الإمام في مجلس يضمّ زعيمي الجبهتين (جبهة الخلافة وجبهة الامامة)، ثم نقل هذه الادانة عن طريق ابواق البلاط كالخطباء ووعاظ السلاطين والجواسيس وبذلك يسجل لنفسه انتصاراً على خصمه.

يدخل الامام مجلس الخليفة، وخلافاً لما اعتاده الداخلون من السلام على الخليفة بإمرة المؤمنين، يتوجه إلى كل الحاضرين، ويشير اليهم جميعاً ويقول: السلام عليكم.. ودون أن ينتظر الاذن بالجلوس يأخذ مكانه في المجلس. وهذا الموقف من الامام أضرم نار الحسد والحقد في قلب هشام... وبدأ هشام على الفور يقول: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شقّ عصا المسلمين، ودعا إلى نفسه، وزعم أنه الإمام سفها وقلة علم، وجعل يوبّخه(١).

وبعد هشام أخذ أفراد بطانته يرددون مثل هذه التهم والتوبيخ.. والامام ساكت في كل هذه المدّة ومطرق بوقار ينتظر فرصة الاجابة.. وحين أفرغت البطانة ما في كنانتها وخيّم السكوت على المجلس، نهض الامام وتوجه إلى الحاضرين، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، خاطب المجلس بعبارات قصيرة قارعة بيَّن تفاهة هذه البطانة وانقيادها البهيمي كما بيّن فيها مكانته ومكانة أهل البيت وفق معايير اسلامية، واستخف بكل ما يحيط بالخليفة وحاشيته من هيل وهيلمان ومكانة وسلطان، فقال:

«أيها الناس! اين تذهبون؟ واين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم، وبنا يختم آخركم، فان يكن لكم ملك معجّل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك، لأنّا أهل العاقبة. يقول الله عزّ وجل: والعاقبة للمتقين»(٢).

---

(١) بحار الأنوار ٤٦:٢٦٣ رواية ٦٣ باب ٥.

(٢) بحار الأنوار ٤٦: ٢٦٤ الباب ١٦ الرواية ٦٣.

عبارات تظلّم وتهكّم وتبشير وتهديد وإثبات وردّ في جمل موجزة ذات وقع مثير تفرض على سامعها الايمان بحقانية قائلها.. ولم يكن أمام هشام سبيل سوى الأمر بسجن الامام.

الإمام في سجنه واصل عمله التغييري فأثّر على من معه في السجن. بلغ الأمر هشاما فكَبُر عليه أن يرى حدوث مثل ذلك في عاصمته المحصنة من التأثير العلوي. فأمر أن يؤخذ السجين ومن معه على مركب سريع (البريد) ويُرسل إلى المدينة حيث مسكنه ومحل إقامته، وأمر أن لا يتعامل أحد في الطريق مع هذه القافلة المغضوب عليها ولا يزودها بماء أو طعام(١).

مرّت ثلاثة أيام من السير المتواصل انتهى خلالها ما في القافلة من ماء وطعام. ووصلوا «مدين». وأغلق أهل المدينة حسب ما لديهم من أوامر أبواب مدينتهم، وأبوا أن يبيعوا متاعا. اشتد على أتباع الإمام الجوع والعطش. صعد الإمام على مرتفع يطل على المدينة نادى بأعلى صوته:

«يا أهل المدينة الظالم أهلها، أنا بقية الله. يقول الله: ﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما انا عليكم بحفيظ﴾».

---

(١) ويروى أنه أشاع بين أهالي المدن الواقعة على الطريق أن محمد بن علي وجعفر بن محمد تنصرا وخرجا من الاسلام (بحار الانوار ٣٠٦٠٤٦). وشبيه ذلك ما وقع لمولانا وهو من زعماء الحركة الاسلامية المناهضة للاستعمار البريطاني في منتصف القرن التاسع عشر. فقد أشاعوا عنه أنه وهابي. وكانت هذه التهمة كافية لاسقاط هذا الرجل المناضل من أعين الناس البسطاء السذّج. الوهابية كانت مقرونة في أذهان الناس بتلك العصابة التي روّعت حجاج بيت الله واستباحت دماء المسلمين في الحجاز.. فكانت كريهة لديهم ومقيتة. وتهمة الوهابية الصقت بهذا الرجل فتقبلتها الأذهان الساذجة دون أن تسأل عن مبرر هذه التهمة وعن امكان أن يكون رجل مناضل مثل مولانا معتنقاً لفكرة جاء بها الانجليز الى العالم الاسلامي (راجع كتاب: المسلمون في حركة تحرير الهند (بالفارسية) ط آسيا) حين أرى موقف الناس من الإمام الباقر عليه السلام بعد اتهامه بالنصرانية في ذلك الزمان وموقفهم من مولانا بعد اتهامه بالوهابية في القرن الماضي أتعجّب من وحدة المواقف وأردّد ما يقوله الشاعر العربي: الناس كالناس والأيام واحدة.

يقول الراوي: وكان بين أهل المدينة شيخ كبير فأتاهم فقال: يا قوم هذه والله دعوة شعيب عليه السلام. والله لئن لم تخرجوا الى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذنّ من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدّقوني وأطيعوني.. فاني لكم ناصح.

استجاب أهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا وأخرجوا إلى أبي جعفر وأصحابه الأسواق(١).

وآخر فصل في هذه الرواية يبين أيضاً بطش الخليفة العباسي وتجبّره. فبعد أن فتح أهل المدينة أبوابها للإمام وصحبه، كُتب بجميع ذلك إلى هشام. فكتب هشام إلى عامله على مدين يأمره بأن يأخذ الشيخ فيقتله رحمة الله عليه وصلواته(٢).

ومع كل ذلك، يتجنب الامام أيّ مواجهة حادّة ومجابهة مباشرة مع الجهاز الحاكم. فلا يعمد إلى سيف، ولا يسمح للأيدي المتسرّعة إلى السلاح أن تشهره، ويوجهها توجيهاً حكيماً، وسيف اللسان أيضاً لا يشهره إذا لم يتطلب عمله التغييري الأساسي الجذري ذلك. ولا يسمح لأخيه زيد، الذي بلغ به الغضب مبلغه وثارت عواطفه أيما ثورة، أن يخرج (يثور) بل يركز نشاطه العام على التوجيه الثقافي والفكري.. وهو بناء أساس أيديولوجي في إطار مراعاة التقية السياسية.

ولكن هذا الأسلوب لم يكن يمنع الامام ـ كما أشرنا ـ من توضيح «حركة الامامة» لأتباعه الخلّص. وإذكاء أمل الشيعة الكبير، وهو إقامة النظام السياسي بمعناه الصحيح العلوي في قلوب هؤلاء، بل يعمد أحياناً إلى إثارة عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطريق، والتلويح بمستقبل مشرق هو أحد السبل التي مارسها الإمام الباقر عليه السلام مع أتباعه. وهو يشير أيضاً إلى تقويم الامام عليه السلام للمرحلة التي يعيشها من الحركة.

يقول الحكم بن عيينة: بينا أنا مع أبي جعفر عليه السلام والبيت غاص

(١) بحار الأنوار ٤٦:٢٦٤.

(٢) بحار الانوار ٤٦:٣١٣.

بأهله إذ أقبل شيخ يتوكّأ على عنزة (عكازة) له حتى وقف على باب البيت فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثم سكت فقال ابو جعفر: **وعليك السلام ورحمة الله وبركاته**. ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال: السلام عليكم، ثم سكت حتى أجابه القوم جميعاً، وردّوا عليه السلام. ثم أقبل بوجهه على الامام وقال: يا بن رسول الله أدنني منك جعلني الله فداك. فوالله إني لأحبكم وأحب من يحبكم، ووالله ما أحبكم وأحب من يحبكم لطمع في دنيا، وإني لأبغض عدوكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لوترٍ كان بيني وبينه. والله إني لأحل حلالكم وأحرّم حرامكم، وانتظر أمركم، فهل ترجو لي جعلني الله فداك؟ فقال الامام: إليّ إليّ، حتى أقعده إلى جنبه ثم قال:

«أيها الشيخ، إن أبي عليّ بن الحسين عليه السلام اتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه فقال له أبي عليه السلام: إن تمت ترد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عليّ والحسن والحسين وعلى عليّ بن الحسين، ويثلج قلبك، ويبرد، فؤادك، وتقرّ عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين... وإن تعش ترى ما يقرّ الله به عينك، وتكون معنا في السنام الأعلى». قال الشيخ وهو مندهش من عظمة البشرى: كيف يا أبا جعفر؟ فأعاد عليه الكلام، فقال الشيخ: الله أكبر يا أبا جعفر، إن أنا متُّ أرد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين وتقرُ عيني ويثلج قلبي ويبرد فؤادي وأُستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي ههنا. وإن أعش أرى ما يقرُ الله به عيني، فأكون معكم في السنام الأعلى؟ ثم أقبل الشيخ ينتحب حتى لصق بالأرض. وأقبل أهل البيت ينتحبون لما يرون من حال الشيخ. ثم رفع الشيخ رأسه وطلب من الامام أن يناوله يده فقبّلها ووضعها على عينه وخدّه، ثم ضمّها إلى صدره وقام فودّع وخرج والإمام ينظر إليه ويقول: **«من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»**[١].

---

(١) بحار الأنوار: ٤٦: ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

مثل هذه التصريحات، تزكي روح الأمل في قلوبٍ تعيش جوّ الاضطهاد والكبت، فتكسبها زخماً ودفعاً نحو الهدف المنشود المتمثل في إقامة النظام الاسلامي العادل.

تسعة عشر عاماً من إمامة الباقر عليه السلام تواصلت على هذا الخط المستقيم المتماسك الواضح.. تسعة عشر عاماً من التعليم الايديولوجي، والبناء، والتكتيك النضالي، والتنظيم، وصيانة وجهة الحركة، والتقية وإذكاء روح الأمل.. تسعة عشر عاماً من مسير شائك وعر يتطلب كثيراً من الجدّ والجهد. وحين أشرفت هذه الأعوام على الانتهاء وأوشكت شمس عمره المبارك على المغيب، تنفّس أعداؤه الصعداء، لأنهم بذهاب هذا القائد الموجّه سوف يتخلّصون من مصدر إثارةٍ طالما قضّ مضاجعهم وسرق النوم من عيونهم. لكنّ الامام خيّب آمالهم وفوّت عليهم هذه الفرصة، حين جعل من وفاته مصدر عطاء، ومنطلق إثارة ووسيلة توعية مستمرة! لقد وجّه ولده الصادق عليه السلام في اللحظات الأخيرة من حياته توجيهاً يمثل نموذجاً رائعاً من نماذج التقية التي مارسها الامام الباقر عليه السلام والأسلوب الذي استعمله في مرحلته الزمنية الخاصة. في الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: **«قال لي أبي: يا جعفر أوقف لي من مالي كذا وكذا لنوادب تندبني[1]. عشر سنين بمنى أيام منى»**[2].

وهذه الرواية لم يقف عندها من بحث في حياة الإمام الباقر وغفلوا عما فيها من دلالات كبيرة. لقد خلّف الامام (٨٠٠) درهم، وأوصى أن يخصص جزء منها لمن يندبه في منى... وندب الإمام في منى له معنى كبير. إنه عملية إحياء ذلك المصدر الذي كان يشعّ دائماً بالتوعية والإثارة وخلق روح الحماس والمقاومة.

واختيار منى بالذات يعني مواصلة العمل في وسط تمركز الوافدين من

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصحيح: لنوادب يندبنني.
(٢) بحار الأنوار ٤٦/٢٢٠.

كل أرجاء العالم الاسلامي، خلال فترة الاستقرار الوحيدة في موسم الحج. فكل مناسك الحج يمرّ بها الحاج وهو في حركة دائبة مستمرة، إلاّ في منى، حيث يبيت الليلتين او الثلاث، فيتوفر لديه الوقت الكافي لكي يسمع ويطّلع. وندب الامام في هذا المكان سيثير التساؤل عن شخصية هذا المتوفّى، من هو؟ فيحصلون على الجواب من أهل المدينة الذين عاصروه. انه من أبناء رسول الله، وأستاذ الفقهاء والمحدّثين. ولماذا يندب في هذا المكان؟ ألم يكن موته طبيعياً؟ من الذي قتله أو سمّه؟ هل كان يشكل خطراً على الجهاز الأموي؟ و.. و.. عشرات الأسئلة كانت تثار حين يندب الامام في هذا المكان. ثم يحصل السائلون على الاجابة.. وتنتشر الأخبار في أطراف البلاد وأكنافها بعد عودة الحجيج إلى أوطانهم. وكان هناك في مواسم الحج من يأتي من الكوفة والمدينة ليجيب عن هذه التساؤلات مغتنماً فرصة تجمّع المسلمين. وليبثّ روح التشيّع من خلال أعظم قناة إعلامية آنذاك.

هكذا عاش الإمام، وهكذا خطط لما بعد وفاته، فسلام عليه يوم ولد ويوم جاهد ويوم استشهد في سبيل الله ويوم يبعث حيا.

توفيّ الامام الباقر عليه السلام وهو في السابعة والخمسين من عمره، على عهد هشام بن عبد الملك، وهو من أكثر ملوك بني أمية اقتداراً. ورغم ما كانت تحيط بالحكومة الأموية آنذاك من مشاكل ومتاعب، فإن ذلك لم يصرفها عن التآمر على القلب النابض للشيعة، أي الإمام الباقر، فأوعز هشام الى عملائه أن يدُسّوا السم للإمام، وحقق بذلك انتصاره في القضاء على أخطر أعدائه.

قيادة الامام الصادق عليه السلام

وتحمّل الامام الصادق عليه السلام مسؤولية مواصلة المسيرة في ظروف معقّدة وصعبة للغاية.

فالانتفاضات تنشب في طول البلاد وعرضها، والولاة منهمكون بجمع الأموال والثروات الطائلة[1]، والطاعون والقحط يضرب مناطق واسعة منها خراسان والعراق، والجهاز الحاكم يبطش دون رحمة، ويخلق حالة من الذلّ والخنوع بين الناس. والمنشغلون بالعلوم الاسلامية من فقه وحديث وتفسير لم يكن خطرهم غالباً يقلّ عن خطر الساسة والحكّام، وهم الذين يُفترض بهم أن يكونوا ملاذ الناس وملجأهم، كثير من هؤلاء كانوا يدبّجون الفتاوى ليرضوا السلطان والولاة[2]. وكثيرٌ منهم كانوا يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بتوافه الأمور، ويثيرون النزاعات الكلامية الفارغة التي لا تمتّ بصلة إلى الاسلام والى معاناة الجماهير.

مهمة الإمام الصادق عليه السلام في هذه الظروف المظلمة هي ما ذكرناه

---

(١) خالد بن عبد الله القسري والي العراق كان عائده السنوي ثلاثة عشر مليوناً. وكتب اليه الخليفة أن لا يبيع غلّته الخيفة. فصعد خالد المنبر، وذكر أن قوماً يتهمونه بالتلاعب بالأسعار، ولعن من يتلاعب بالأسعار (ويقصد بذلك الخليفة وكان عليه واجداً). وامرأة هشام كان لها ثوب خيوطه من الذهب. ومرصع بالمجوهرات القيّمة، وقد ثقل وزنه حتى ما كانت تقدر على أن تمشي به، ولم يستطع أحد أن يضع له قيمة. وهشام نفسه كان له بساط من الحرير والذهب طوله ١٠٠ ذراع وعرضه ٥٠ ذراعاً. (ابن ايرج ٥/ ٢٢٠، وبين الخفاء ص ٢٨ و٥٦).

(٢) من ذلك فتوى الحسن البصري في عدم جواز الخروج على الحجاج بن يوسف، ذلك الطاغية الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة قائلاً: أرى أن لا تقاتلوه، فانها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادّي عقوبة الله بأسيافكم. وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، د. أحمد محمود صبحي، ص٢٣).

بشأن مهمة الامامة، وتتلخص في طرح الفكر الاسلامي الصحيح، أي تبيين الاسلام كما جاء في القرآن وسنة رسول الله ﷺ مع مكافحة كل الانحرافات والتشويهات الجاهلة والمغرضة، وكذلك التخطيط لإقامة نظام العدالة الاسلامية، وصيانة هذا النظام في حالة إقامته.

كلا المهمتين: المهمة الفكرية والمهمة السياسية، تشكلان خطراً كبيراً على النظام الحاكم. ليست المهمة السياسية وحدها تثير سخط السلطة، فالمهمة الفكرية أيضاً تلغي تلك الأفكار والمفاهيم المنحرفة التي قدمها السلطان ووعّاظه باسم الدين الى المجتمع(١). من هنا فإن العملية الفكرية لها الأولوية، لأنها تقضي على الزيف الديني الذي يستند اليه الجهاز الحاكم في مواصلة ظلمه. من جهة أخرى فإن الأوضاع السائدة مستعدة للفكر الشيعي الثوري، والحرب والفقر والاستبداد عوامل تغذّي روح الثورة، أضف إلى ذلك عامل الأجواء التي وفّرها نشاط الإمام الباقر عليه السلام في المناطق القريبة والنائية.

ان الاستراتيجية العامة للإمامة هي النهوض بثورة توحيدية علوية. ومتطلّباتها هي:

أولاً: إيجاد مجموعة تحمل فكر الإمامة وتهضمه، وتتطلع بشوق الى تطبيقه.

وثانياً: إيجاد مجموعة منظّمة مجاهدة مضحّية.

وهذه المتطلّبات تستلزم بدورها نشر الدعوة في جميع أرجاء العالم، وإعداد الأرضية النفسية لتقبّل الفكر الإسلامي الثائر في جميع الأقطار،

(١) مع كل الانحرافات التي عصفت بالمجتمع كان الايمان بالدين يسيطر على الأفكار والقلوب، والظلمة الطغاة استغلوا هذا الإيمان، فقدموا للمجتمع مفاهيم منحرفة باسم الدين تضمن بقاءهم واستمرار ظلمهم وتحكمهم. من ذلك أضفاء صفة القدسية على «البيعة». فكلما تمادى الخليفة في غيّه وظلمه لا تجوز معصيته ولا الثورة عليه لأن له في الأعناق بيعة! وكان لهذا المفهوم دوره الكبير في خلق حالة من الخضوع والخنوع أمام الجهاز الحاكم.

وتستلزم أيضاً دعوة أخرى لإعداد أفراد مضحّين متفانين يشكلون التنظيم السرّي للدعوة.

وهذا هو سرّ صعوبة الدعوة على طريق الإمامة الحقّة. فالدعوة الرسالية التي تستهدف القضاء على الطاغوت، وعلى التفرعن والتجبّر والعدوان والظلم في المجتمع، وتلتزم بالمعايير الاسلامية، لا بدّ أن تستند إلى إرادة الجماهير وقوتها وإيمانها ونضجها. خلافاً لتلك الدعوات التي ترفع شعار محاربة الطغاة، وهي تمارس في الوقت نفسه أعمال الطغاة والظلمة في حركتها، دون أن تتقيّد بمبادئ أخلاقية واجتماعية. فمثل هذه الدعوات لا تواجه صعوبات الدعوات الرسالية الهادفة. وهذا هو سرّ عدم تحقق أهداف حركة الإمامة على المدى العاجل. وهو أيضاً سرّ الانتصار السريع للحركات الموازية لحركة الامامة (مثل حركة العباسيين).

الظروف المساعدة والأرضية المناسبة التي وفّرها نشاط الإمام السابق. الباقر عليه السلام - أدّت إلى أن يظهر الإمام الصادق عليه السلام - في جوّ العذاب الطويل الذي عانى منه الشيعة - بمظهر الفجر الصادق الذي ينتظره أتباع أهل البيت في سالف أيامهم. والإمام الباقر عليه السلام ذكر بالإشارة والتصريح ما يركز هذا المفهوم.

عن جابر بن يزيد الجعفي سُئِلَ الامام الباقر عليه السلام عن القائم فضرب يده على أبي عبد الله عليه السلام وقال: **هذا والله ولدي قائم آل بيت محمد** صلى الله عليه وآله وسلم(١).

والقائم هنا طبعاً غير قائم آل محمد في آخر الزمان، وهو المهدي عجل الله فرجه الذي تواترت الروايات لدى كل المسلمين أنه يظهر في آخر الزمان، وأنه الخليفة الثاني عشر من خلفاء رسول الله. القائم هنا بمعناه اللغوي ينطبق على كل من ينهض بوجه الظلم والاستبداد، وهو اصطلاح معروف في مدرسة أهل البيت، ولا يعني ذلك أن يكون القائم بالسيف بالضرورة. بل إنه

(١) بحار الأنوار ٤٧:١٣، باب ٢ الرواية ٦، ط بيروت.

يقوم بهجوم ثقيل خطير، سواء في اسلوب النشاط الفكري او التنظيمي أو بأية صورة أخرى تستهدف مقارعة الظالمين ومهاجمتهم. فالإمام الباقر عليه السلام يركّز هنا على مفهوم نهوض الإمام الصادق عليه السلام بمسؤولية كبيرة تجاه السلطة القائمة، ولا يركّز على النتيجة.. بل في رواية اخرى يتحدّث بلغة تكاد تكون يائسة من امكان انتصار حركة الإمامة على الوضع السياسي القائم.

ومن الروايات التي يركّز فيها الامام الباقر عليه السلام على الدور الذي سينهض به الامام الصادق عليه السلام ما رواه أبو الصباح الكناني قال: «نظر أبو جعفر إلى ابنه أبي عبد الله فقال: **ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله تعالى: ﴿ونريد ان نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾**[1].

ولعل تصريحات الإمام هذه هي التي أشاعت فكرة قيام الإمام الصادق وخلافته بين الشيعة، وجعلت أصحاب الباقر والصادق يترقبون ساعة الصفر بين آونة وأخرى.

في رجال الشيخ الكشي رواية يمكن أن نفهم منها هذه الحالة السائدة بين أتباع أهل البيت آنذاك:

روى ابن مسكان عن زرارة. أنهُ سأل أبا عبد الله عليه السلام عن رجل من أصحابنا مختفٍ من غرامة. فقال: أصلحك الله، ان رجلاً من أصحابنا كان مختفياً من غرامة، فان كان هذا الأمر قريباً صبر حتى يخرج مع القائم. وان كان فيه تأخير صالح غرامةً؟ فقال لهُ أبو عبد الله عليه السلام: **يكون**، فقال زرارة: يكون إلى سنة؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: **يكون إن شاء الله**، فقال زرارة: يكون إلى سنتين؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: **يكون إن شاء الله**، فخرج زرارة فوطّن نفسه على أن يكون إلى سنتين فلم يكن، فقال: ما كنت أرى جعفراً إلا أعلم مما هو[1].

(١) بحار الأنوار ٤٧: ١٣، باب ٣ الرواية ٤ عن الارشاد: ٢٨٩.

وعبارة «هذا الأمر» في عرف أتباع أهل البيت كناية عن المستقبل الموعود لهم، أي استلام زمام الحكم أو القيام بما يقرّبهم من ذلك كالثورة المسلّحة مثلاً، والقائم هو الذي يقود تلك العملية.

وفي رواية أخرى يذكر هشام بن سالم، وهو أيضًا من وجوه الشيعة المعروفة، أن زرارة قال له: لا ترى على أعوادها غير جعفر، قال: فلما توفي ابو عبد الله عليه السلام أتيته فقلت له: تذكر الحديث الذي حدثتني به؟ وذكرته له، وكنت اخاف ان يجحدنيه، فقال: اني والله ما كنت قلت ذلك إلا برأيي(٢).

من مجموع ما تقدم نفهم أن الإمام الصادق كان في نظر أبيه وفي نظر الشيعة مظهر آمال الإمامة والتشيّع. وكأن سلسلة الإمامة قد ادّخرته ليجسّد مساعي الإمام السجاد والإمام الباقر عليه السلام . كأنه هو الذي يجب أن يعيد بناء الحكومة العلوية والنظام التوحيدي، يجب أن ينهض نهضة اسلامية أخرى. الإمامان السابقان طويا المراحل الصعبة الشاقة لهذا الطريق اللاحب، وعليه أن يقطع المرحلة الأخيرة والظروف ـ كما ذكرنا ـ قد تهيّأت، والإمام استثمر هذه الظروف لينهض برسالته الجسيمة.

منذ بداية استلام المسؤولية حتى الوفاة، قضى ٣٢ عاماً في جهاد متواصل، وخلال هذه الأعوام كانت الظروف في مدّ وجزر، مرّة تتجه لصالح مدرسة أهل البيت، ومرة اخرى تعاكسها، مرة تبعث على التفاؤل وعلى أن النصر قريب، ومرة أخرى تشتدّ الضغوط وتختنق الأنفاس، فيخيّل إلى أصحاب الإمام أن كل الآمال قد تبدّدت. والإمام الصادق عليه السلام في كل هذه الأحوال ماسك بدفّة القيادة بعزم وتصميم، يجتاز بالسفينة عبر هذه الأمواج المتلاطمة الممزوجة بالأمل واليأس، لا يفكر الا بما يجب قطعه في

(١) رجال الكشي: ١٥٨ ط: مصطفوي.

(٢) رجال الكشي: ١٥٦ ـ ١٥٧ط: مصطفوي.

المستقبل من أشواط، باعثاً الجد والنشاط والإيمان في أتباعه للوصول إلى ساحل النجاة.

ويلزمنا هنا أن نشير إلى ظاهرة مؤسفة تواجه كل الباحثين في حياة الإمام الصادق عليه السلام، وهي الغموض الذي يكتنف السنين الأولى لبدايات إمامة الصادق عليه السلام التي اقترنت بأواخر أيام بني أمية. كانت حياة صاخبة متلاطمة مليئة بالحوادث الجسام، يمكن أن نفهم بعض ملامحها من خلال مئات الروايات. غير أن المؤرخين والمحدّثين لم يعرضوا لنا هذه الفترة بشكل مرتّب منسجم مترابط، ولا بدّ للباحث أن يعتمد على القرائن، وأن يلاحظ التيارات العامة في ذلك الزمان، ويقرن كل رواية بما حصل عليه من معلومات مسبقة، ليفهم محتوى الرواية وتفاصيلها.

ولعلّ أحد أسباب هذا الإبهام يكمن في سريّة حركة الإمام وأتباعه.. فالتنظيم السرّي القائم على أسس صحيحة يجب أن تبقى المعلومات عنه سرية مخفية، وأن لا يطّلع عليها من هو خارج التنظيم. ولا تنتشر هذه المعلومات إلا بعد أن تحقق الحركة انتصارها. ومن هنا تتوفّر لدينا معلومات وافية عن تفاصيل الاتصالات السرية في حركة العباسيين، لأن حركتهم انتصرت. ولا شكّ أن حركة أهل البيت لو قُدّر لها أن تنتصر وتستلم زمام الأمور لاطّلعنا اليوم على أسرار تنظيمها الواسع.

وثمة سبب آخر يمكن أن يكون عاملاً في هذا الغموض، هو أن المؤرّخين كانوا يدوّنون عادة ما يرضي السلطان، ولذلك نرى في كتبهم تفاصيل حياة الخلفاء ولهوهم ولعبهم وسهراتهم ومجالس طربهم، بينما لا نرى شيئاً يؤبه له بشأن الثائرين والمظلومين والمسحوقين، لأن مثل هذه المعلومات تحتاج من الباحث أن يتحرّى ويبحث ويخاطر، بينما حياة الخلفاء مادة جاهزة، وغنيمة باردة تكسب الرضا

وتستدر العطاء.

والمؤرّخون الخاضعون للخلافة العباسية استمروا يكتبون على هذا المنوال مدة خمسمائة سنة بعد حياة الإمام الصادق عليه السلام. ومن هنا لا يمكن أن نتوقع العثور على شيء معتدّ به من المعلومات عن حياة الإمام الصادق عليه السلام أو أي إمام من أئمة الشيعة في مثل هذه المصادر.

الطريق الوحيد الذي يستطيع أن يهدينا إلى الخط العام لحياة الإمام الصادق عليه السلام هو اكتشاف المعالم الهامة لحياة الإمام من خلال الأصول العامة لفكر الإمام وأخلاقه. ثم نبحث في القرائن والأدلّة المتناثرة التاريخية والقرائن الأخرى غير التاريخية لنتوصل إلى التفاصيل.

معالم حياة
الإمام الصادق عليه السلام

والمعالم الهامة البارزة في حياة الإمام الصادق عليه السلام وجدتها من منظار بحثنا تتلخص بما يلي:

١ ـ تبيين مسألة الإمامة والدعوة إليها.

٢ ـ بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٣ ـ إقامة تنظيم سرّي أيديولوجي ـ سياسي.

وطريقة بحثنا أن ندرس كل واحد من هذه المعالم، ونضع في النهاية فهرساً لنشاطات الإمام عليه السلام، وأن يكون ذلك قدر المستطاع بأسلوب المؤرخين لا بأسلوب المحدّثين.

١ ـ تبيين مسألة الإمامة والدعوة إليها

هذا الموضوع يشكل أبرز خصائص دعوة أئمة أهل البيت، منذ السنوات الأولى التي أعقبت رحيل النبي الأكرم ﷺ. كانت مسألة إثبات إمامة أهل البيت عليهم السلام تشكّل طليعة الدعوة في كل أعصار الإمامة.. هذه المسألة نشاهدها أيضاً في ثورة الحسين بن علي عليه السلام، ونشاهدها بعد ذلك أيضاً في ثورات أبناء أئمة أهل البيت، مثل زيد بن علي. ودعوة الإمام الصادق عليه السلام لم تخرج عن هذا النطاق أيضاً.

قبل أن نستعرض وثائق هذا الموضوع، يجب علينا أن نعرف أولاً مفهوم «الإمامة» في الفكر الإسلامي. وما معنى الدعوة إلى الإمامة؟

كلمة «الإمامة» تعني في الأصل القيادة بمعناها المطلق، وفي الفكر الاسلامي تطلق غالباً على مصداقها الخاص، وهو القيادة في الشؤون الاجتماعية، الفكرية منها والسياسية.

وأينما وردت في القرآن مشتقات لكلمة الإمامة (إمام، أئمة)، فيراد بها هذا المعنى الخاص لقيادة الأمة. ففي بعض المواضع يقصد بها القيادة الفكرية وفي مواضع أخرى يراد بها القيادة السياسية، أو الاثنتين معاً.

بعد رحيل النبي ﷺ وظهور الانشقاق الفكري والسياسي بين المسلمين اتخذت كلمة الإمامة والإمام مكانة خاصة، لأن مسألة القيادة السياسية شكّلت المحور الأساس للاختلاف. والكلمة كان لها في البداية مدلولها السياسي اكثر من أي مدلول آخر، ثم انضمّت اليها بالتدريج معانٍ أخرى، حتى أصبحت مسألة «الإمامة» تشكّل في القرن الثاني أهم مسائل المدارس الكلامية ذات الاتجاهات الفكرية المختلفة، وكانت هذه المدارس تطرح آراءها بشأن شروط الإمام وخصائصه، أي شروط الحاكم في المجتمع الاسلامي، وهو معنى سياسي للإمامة.

إن الإمامة في مدرسة أهل البيت ـ التي يرى أتباعها أنهم يمثلون أنقى تيار فكري اسلامي ـ لها المعنى نفسه، ونظرية هذه المدرسة بشأن الإمامة تتلخص فيما يلي:

الإمام والزعيم السياسي في المجتمع الاسلامي يجب أن يكون منصوباً من الله، بإعلان من النبي. ويجب أن يكون قائداً فكرياً ومفسّراً للقرآن وعالماً بكل دقائق الدين ورموزه، ويجب أن يكون معصوماً مبرءاً من كل عيب خلقي وأخلاقي وسببي. ويجب أن يكون من سلالة طاهرة نقية و...

وبذلك فإن الإمامة كانت في العرف الاسلامي خلال القرنين الأول والثاني تعني القيادة السياسية، وفي العرف الخاص بأتباع أهل البيت تعني، إضافة إلى القيادة السياسية، القيادة الفكرية والأخلاقية أيضاً.

فالشيعة تعترف بإمامة الفرد حين يكون ذلك الفرد متمتعاً بخصائص هي ـ إضافةً إلى قدرته على إدارة الأمور الإجتماعية ـ مقدرته على التوجيه والارشاد والتعليم في الحقل الفكري والديني، والتزكية الخلقية. وإن لم تتوفر فيه هذه المقدرة لا يمكن أن يرقى إلى مستوى «الإمامة الحقة». وليس بكاف ـ في نظرهم ـ حسن الإدارة السياسية والاقتدار العسكري والفتوحات وأمثالها من الخصائص التي كانت معياراً كافياً لدى غيرهم.

فمفهوم الإمامة لدى أتباع أهل البيت ـ إذن ـ يتجه إلى إعطاء إمامة المجتمع صفة قيادة ذلك المجتمع في مسيرته الجماعية والفردية، فالإمام رائد مسيرة التعليم والتربية وقائد المسيرة الحياتية. ومن هنا كان «النبي» صلى الله عليه وآله وسلم إماماً أيضاً، لأنه القائد الفكري والسياسي للمجتمع الذي أقام دعائمه. وبعد النبي تحتاج الأمة إلى إمام يخلفه ويتحمل عبء مسؤولياته، (بما في ذلك المسؤولية السياسية). ويعتقد الشيعة أن النبي نصّ على خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم تنتقل الإمامة بعده إلى الأئمة

المعصومين من ولده(١).

ولا بدّ من الإشارة إلى أن تداخل المهام الثلاث للإمامة: القيادة السياسية، والتعليم الديني، والتهذيب الأخلاقي والروحي في الإمامة الإسلامية ناشئ من عدم وجود تفكيك بين هذه الجوانب الثلاثة في المشروع الاسلامي للحياة البشرية. فقيادة الأمة يجب أن تشمل قيادتها في هذه الحقول الثلاثة أيضاً. وبسبب هذه السعة وهذه الشمولية في مفهوم الإمامة لدى الشيعة كان لا بد أن يعيّن الإمام من قبل الله سبحانه.

نستنتج مما سبق أن الإمامة ليست، كما يراها أصحاب النظرة السطحية، مفهوماً يقابل «الخلافة» و «الحكومة» أو منصباً منحصراً بالأمور المعنوية ـ والروحية والفكرية، بل إنها في الفكر الشيعي «قيادة الأمة» في شؤون دنياها، وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية (رئيس الدولة). وأيضاً في شؤون التعليم والارشاد والتوجيه المعنوي والروحي، وحلّ المشاكل الفكرية وتبيين الأيديولوجية الاسلامية. «قيادة فكرية».

وهذه المسألة الواضحة أضحت ـ مع الأسف ـ غريبة على أذهان أكثر المعتقدين بالإمامة، ولذلك نرى من الضروري عرض بعض النماذج من مئات الوثائق القرآنية والحديثية في هذا المجال:

في كتاب «الحجة» من «الكافي» حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام يذكر فيه بالتفصيل ما يرتبط بمعرفة الإمام ووصف الامام، ويتضمّن معاني عميقة ورائعة.

من ذلك ما ورد بشأن الإمامة بأنها: « هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة الله، وخلافة الرسول، ومقام أمير المؤمنين

(١) راجع تفاصيل أدلة هذه المسألة في مظانها.

عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليه السلام، إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعزّ المؤمنين، إن الإمامة أسّ من الإسلام النامي، وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة والزّكاة والصيام والحج والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف»(١).

وحول الإمام انه:

«النجم الهادئ والماء العذب، والمنجي من الردى، والسحاب الماطر، ومفزع العباد في الداهية، وأمين الله في خلقه، وحجّته على عباده، وخليفته في بلاده، والداعي إلى الله، والذاب عن حرم الله، ونظام الدين، وعزّ المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين(٢).

كل ما كان يمارسه النبي صلى الله عليه وآله من مسؤوليات ومهام يتحملها علي عليه السلام والأئمة من ولده(٣).

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام نرى تأكيداً على إطاعة «الأوصياء» وتوضّح الرواية أن الأوصياء هم نفسهم الذين عبّر عنهم القرآن بأولي الأمر(٤).

مئات الروايات المتفرّقة في الأبواب المختلفة تصرّح أن مفهوم الإمام والإمامة في الفكر الشيعي ما هو إلا القيادة وإدارة شؤون الأمة المسلمة، وأن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الأصحاب الحقيقيون للحكومة. وتدل جميعاً بما لا يقبل الشك على أن أئمة أهل البيت عليهم السلام في ادّعائهم الإمامة كانوا لا يقتصرون بالمطالبة على المستوى الفكري والمعنوي، بل كانوا يطالبون بالحكومة أيضاً. ودعوتهم على هذا

(١) أصول الكافي.

(٢) المصدر نفسه «عبارات متفرقة مختارة من النص»

(٣) جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمد عليه السلام (... ولقد حملت على مثل حمولته...) وكذلك يجرء لأئمة الهدى واحداً بعد واحد... الكافي، ج١: ١٩٦.

(٤) الكافي، ١: ١٨٧، ٧ و١ ١٨٩، ح١٦.

النطاق الواسع الشامل إنما هي دعوة لحركة سياسية عسكرية لاستلام السلطة.

هذه الحقيقة ظلت خافية على الباحثين في العصور التالية(١)، بينما كانت في فهم أصحاب الأئمة والمعاصرين لهم من أوضح الحقائق، حتى أن «الكميت» في إحدى قصائده الهاشميات يصف أئمة أهل البيت عليهم السلام بأنهم ساسة يقودون الناس بطريقة تختلف تماماً عن الطريقة التي يمارسها الحكام الظلمة الذين يعاملون الناس كالبهائم(٢).

نعود إلى الموضوع الأصلي وهو أن بيت القصيد في دعوة الإمام الصادق عليه السلام وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام كان يدور حول «الإمامة».

ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية، أمامنا روايات متضافرة تنقل بوضوح وصراحة عن الإمام الصادق عليه السلام ادعاءه الإمامة. وكما سنوضح فيما بعد، أن الإمام حين يعلن دعوته هذه كان يرى نفسه في مرحلة من الجهاد تستدعي أن يرفض بشكل مباشر صريح حكّام زمانه، وأن يعلن نفسه بأنه صاحب الحق الواقعي، وصاحب الولاية والإمامة. ومثل هذا التصدّي يعني عادة اجتياز سائر المراحل الجهادية السابقة بنجاح. ولا بدّ أن يكون الوعي السياسي والاجتماعي قد انتشر في قاعدة واسعة، وأن الاستعداد محسوس بالقوة في كل مكان، وأن الأرضية الأيديولوجية قد توفرت في عدد ملحوظ من الأفراد، وان جمعاً غفيراً آمن بضرورة إقامة حكومة الحق والعدل، وأن يكون القائد ـ أخيراً ـ قد

---

(١) في العقود الأخيرة صدرت عن المستشرقين والعلماء المسلمين الشيعة والسنة كتابات تصوّر الدور السلبي للأئمة تجاه مسألة الحكم، أو الدور المحايد أو المداهن، بل الدور البعيد كل البعد عن السياسة راجع مثلا: نظرية الإمامة لدى الشيعة، والتشيع والتصوف والامام الصادق والمذاهب الأربعة، والعباسيون الأوائل.

(٢) الغدير ٢: ١٨٧ ـ ٢١٢.

اتخذ قراره الحاسم بشأن هذه المواجهة الساخنة. وبدون هذه المقدمات فإن اعلان إمامة شخص معين وقيادته الحقة للمجتمع أمر فيه تعجّل ولا جدوى منه.

المسألة الأخرى، التي لا بدّ من التركيز عليها في هذا المجال، أن الإمام ما كان يكتفي في بعض الموارد بإثبات إمامته وحسب، بل يذكر إلى جانب اسمه أسماء أئمة الحق من أسلافه أيضاً، أي إنه يطرح في الحقيقة سلسلة أئمة أهل البيت بشكل متصل غير قابل للتجزئة والانفصال.

هذا الموقف يشير إلى ارتباط جهاد أئمة أهل البيت عليهم السلام وتواصله من الأزمنة السابقة إلى عصر الإمام الصادق عليه السلام. إن الإمام الصادق عليه السلام يقرر إمامته باعتبارها النتيجة الحتمية المترتبة على إمامة أسلافه، وبذلك يبين جذور هذه الدعوة وعمقها في تاريخ الرسالة الاسلامية، وارتباطها بصاحب الدعوة الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة والسلام. ولنعرض بعض نماذج دعوة الإمام:

أروع رواية في هذا الباب عن «عمرو بن أبي المقدام»، وفيها تصوير لواقعة عجيبة.

في يوم التاسع من ذي الحجة إذ اجتمع الحجاج في عرفة لأداء منسك الوقوف، وقد توافدوا على هذا الصعيد من كل فج عميق.. من أقصى خراسان حتى سواحل الأطلنطي.. والموقف حساس وخطير، والدعوة فيه تستطيع أن تجد لها صدى في أقاصي العالم الاسلامي. انضمّ الإمام عليه السلام إلى هذه الجموع الغفيرة المحتشدة، ليوصل إليها كلمته، يقول الراوي: رأيت الإمام قد وقف بين الجموع ورفع صوته عالياً ليبلغ أسماع الحاضرين ولينتقل إلى آذان العالمين وهو ينادي:

«أيها الناس، إن رسول الله كان الإمام ثم كان علي بن أبي طالب، ثم

الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم...» فينادي ثلاث مرات لمن بين يديه، وعن يمينه وعن يساره ومن خلفه، اثني عشر صوتاً[1].

ورواية أخرى عن «أبي الصباح الكناني» أن الإمام الإمام الصادق عليه السلام يصف نفسه وأئمة الشيعة بأن لهم «الأنفال» و «صفو المال»..

عن أبي الصباح قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام : **«يا ابا الصباح، نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الأنفال ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون الذين قال الله في كتابه: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾»**[2].

و«صفو المال» هو من الأموال ذات القيمة الرفيعة في غنائم الحرب، وكان لا يقسم كما تقسم الغنائم بين المجاهدين، كي لا يستأثر به أحد دون آخر، ويكون كرامة كاذبة لأحد من الناس، بل إنه يبقى لدى الحاكم الإسلامي يتصرّف به لما يحقق مصلحة عامة المسلمين. وكان الحكام الظلمة يستأثرون بهذا المال ويجعلونه مختصاً بهم غصباً. والإمام يصرّح بأن «صفو المال» يجب أن يكون لهم، وهكذا الأنفال وهذا يعني أنه يعلن نفسه بصراحة حاكماً شرعياً للمسلمين مسؤولاً عن استثمار هذه الأموال وفق ما يراه تحقيقاً لمصلحة الأمة.

وفي حديث آخر يذكر الإمام الصادق عليه السلام أسماء أسلافه من الأئمة عليهم السلام واحداً واحداً، ويشهد بإمامتهم وبوجوب طاعتهم، وحين يصل إلى نفسه يسكت، والمخاطبون يعلمون جيداً أن ميراث العلم والحكم بعد الإمام الباقر عليه السلام وصل إلى الإمام الصادق. وبذلك يعلن الإمام عليه السلام حقه في قيادة الأمة بأسلوب يجعله مرتبطاً بجدّه علي بن أبي طالب عليه السلام[3].

---

(١) البحار، ٤٧ :٥٨ ح١٠٧.

(٢) البحار، ٢٣ ,١٩٩، ح٣٢. كذلك راجع الرواية ٢٠ من نفس الباب.

(٣ الكافي١ : ١٨٦.

وفي أبواب كتاب الحجة من «الكافي» وكذلك في الجزء ٤٧ من «بحار الأنوار» أحاديث كثيرة من هذا القبيل، تتحدث بصراحة أو بكناية عن ادّعاء الإمامة والدعوة إليها.

ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية أمامنا شواهد عن شبكة منظمة لدعوة الإمام عليه السلام في جميع أرجاء العالم الاسلامي، والوثائق الكثيرة المتوفرة في هذا المجال تجعل وجود هذه الشبكة أمراً حتمياً لا مراء فيه. وهذه الشواهد تبلغ من الكثرة والوثوق بحيث يمكن أن نستدل بها على موضوعنا استدلالاً قاطعاً، ولو لم يتوفر حديث صريح واحد في هذا المجال.

نحن في هذا المجال أمام ظواهر تاريخية ثابتة:

١ ـ ثمة ارتباط منظم فكري ومالي بين الأئمة عليهم السلام وأتباعهم، وكانت الأموال تُحمل من أطراف العالم إلى المدينة كذلك والأسئلة الدينية تتقاطر عليها.

٢ ـ اتساع الرقعة الموالية لآل البيت عليهم السلام خاصة في البقاع الحساسة من العالم الاسلامي.

٣ ـ تجمّع عدد غفير من المحدثين والرواة الخراسانيين والسيستانيين والكوفيين والبصريين واليمانيين والمصريين حول الإمام عليه السلام.

فهل إن هذه الظواهر المنسجمة المتناسبة مع بعضها قد حدثت بالصدفة؟

ولا بد أن نضيف أن هذه الظواهر حدثت في ظل سيطرة سياسية كانت جادّةً كل الجدّ في الغاء حتى اسم علي وآل علي عليهم السلام، بل وسبّ علي على المنابر، وتسليط انواع البطش والارهاب على أتباعهم. فكيف أمكن في مثل هذا الجوّ خلق قاعدة شعبية عريضة موالية لآل البيت تطوي آلاف الأميال للوصول إلى الحجاز والمدينة لتتلمذ على أئمة أهل البيت عليهم السلام وتأخذ عنهم فكر الإسلام في الحياة الفردية والاجتماعية، وتتحدث معهم في موارد كثيرة وعن مسائل الثورة على الوضع الفاسد، أو بعبارة الروايات،

تتحدث معهم عن مسائل القيام والخروج؟!!

فلو كان دعاة أهل البيت يقتصرون في حديثهم على علم الأئمة عليهم السلام وزهدهم، فلماذا يدور الحديث في وسط هؤلاء الأتباع دائماً عن الثورة المسلحة؟

ألا يدلّ كل هذا على وجود شبكة منظمة للدعوة إلى إمامة أهل البيت عليهم السلام بالمعنى الكامل للإمامة، أي الفكرية والسياسية؟

وهنا يطرح سؤال عن سبب سكوت التاريخ عن وجود مثل هذه الشبكة المنظمة في دعوة أهل البيت عليهم السلام، لماذا لم يذكر التاريخ صراحة شيئاً عنها؟

والجواب ما أشرنا إليه سابقا، يكمن في التزام أصحاب الأئمة بالمبدأ الحركي الحكيم المسمّى بالتقية، الذي يحول دون نفوذ أي عنصر أجنبي في تنظيم الإمام. كما يكمن أيضاً في عدم استطاعة الحركة الجهادية الشيعية من تحقيق أهدافها ومن استلام زمام الحكم.

لو أن بني العباس لم يستولوا على السلطة لبقيت دون شك كل نشاطاتهم السرية وذكريات دعوتهم، مرّها وحلوها، حبيسة في الصدور، دون أن يعلم بها أحد ودون أن يسجلها التاريخ.

ومع ذلك، ليست قليلة هي الروايات التي تصرّح إلى حدّ ما بوجود دعوة واسعة لإمامة أهل البيت عليهم السلام. ونكتفي برواية تقول:

قدم رجل من أهل الكوفة الى خراسان، فدعا الناس إلى ولاية جعفر بن محمد عليه السلام، ففرقة أطاعت وأجابت، وفرقة جحدت وأنكرت، وفرقة ورعت ووقفت.. ثم تقول الرواية: فخرج من كل فرقة رجل فدخلوا على أبي عبد الله عليه السلام فكان المتكلم منهم، الذي ورع ووقف. فقال: أصلحك الله، قدم علينا رجل من أهل الكوفة فدعا الناس إلى طاعتك وولايتك، فأجاب قوم وأنكر قوم وورع قوم ووقفوا. قال الإمام عليه السلام:

فمن أي الثلاث انت؟ قال: من الفرقة التي ورعت ووقفت. قال:

فأين كان ورعك ليلة كذا وكذا (وذكّره بسقوطه في موقف شهواني)، فارتاب الرجل[١].

الداعية كما ترى من أهل الكوفة، ومنطقة الدعوة خراسان، واسم الرجل مكتوم، ودعوته إلى إمامة جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وولايته وطاعته.

ثمة وثائق أخرى تبين محتوى دعوة أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم إلى الإمامة، تعرضها المناقشات والمجادلات بينهم وبين خصومهم السياسيين (الأمويين والعباسيين). هذه المنازعات كانت تدور أحياناً بلغة الاستدلال الكلامي والديني، وأحياناً بلغة الأدب الرفيع المتمثل بالشعر. وكان كل الاحتجاج يقوم على أساس إثبات حق الإمامة السياسية والحكم لأئمة أهل البيت عليهم السلام، ومقارعة المتربّعين ظلماً وغصباً على كرسي حكومة المسلمين. ان عصر الإمام الصادق عليه السلام . لمعاصرته حركة بني العباس وانتصار هذه الحركة . كان مفعماً بهذا اللون من الحِجاج.

كان شعراء بني العباس يحاولون اثبات حق الحكم لبني العباس استناداً إلى الأدلة نفسها التي يقدمها عادة الطامعون إلى السلطة والمتشبثون بكرسي الحكم. ويقف شعراء الشيعة مقارعين لحججهم مستدلّين على زيف الحكم العباسي من منطق إسلامي، يقوم على أساس رفض الظلم والإجرام والخيانة بحق الأمة الإسلامية.

وللحِجاج الشعري بين العباسيين والعلويين أهمية في هذا المجال، لما كان ينهض به الشعر آنئذ من دور كبير في التعبير عن العواطف والأفكار، ولما كان يؤديه في القاعدة الشعبية من تأثير. يذكر صاحب كتاب «العباسيون الأوائل» دور الأدب في القرنين الأول والثاني فيقول:

« .. كان الأدب يؤثر في النفوس ويكسب عواطف الناس وميولهم إلى هذه

(١) البحار، ٤٧ : ٧٢ عن بصائر الدرجات ٥ : ٦٦.

الفئة أو تلك، وكان الشعراء والخطباء بمثابة جريدة العصر، يعبّر كل منهم عن رأي سياسي ويدافع عن حزبٍ معين، مبرزاً الدليل تلو الدليل على صحة دعواه، مفنّداً آراء الخصوم بكلام مؤثر وأسلوب بليغ»(١).

شعراء البلاط العباسي كانوا يجتهدون في إثبات حق العباسيين في الخلافة، باعتبار ارتباطهم بالنبي عن طريق العمومة، مستدلين على ذلك بأن الإرث لا ينتقل إلى أبناء البنت مع وجود الأعمام. فالخلافة بعد النبي من حقّ العباس عم النبي ومن بعده أبناؤه من بني العباس:

قال مروان بن أبي حفصة:

أنّى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام

وقال أبان بن عبد الحميد اللاحقي:

فأبناء عباس همُ يرثونه ... كما العمُ لابنِ العم في الإرث قد حجب

منطلقين من عاطفة الشعور بالظلم للرد على هذه الأدلّة، بالمنطق نفسه، وأحياناً بمنطق آخر للاستدلال على حق أئمة أهل البيت في الإمامة. من ذلك استدلالهم بحديث غدير خم كقول السيد الحميري:

من كنت مولاه فهذا له ... مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا

ويردّ محمد بن يحيى بن أبي مرّة التغلبي على استدلال الشاعر العباسي بشأن وراثة الأعمام فيقول:

لِمَ لا يكون وإن ذاك الكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام

للبنت نصف كامل من ماله ... والعم متروك بغير سهام

ما للطليق وللتراث وإنما ... صلّى الطليق مخافة الصمصام

ويرى دعبل أن كل ما حلّ بأهل البيت عليهم السلام من مصائب إنما هو لأنهم ورثوا النبي، فتكالب على هذا الإرث الطامعون، وأضروا بمن له الحق في الإمامة:

---

(١) د. فاروق عمر، العباسيون الأوائل: ١٠٤.

أضرّ بهم إرث النبي فأصبحوا — تساهم فيهم خيفة ومنون
دعتهم ذئاب من أمية وانتحت — عليهم دراكاً أزمة وسنون
وعاثت بنو العباس في الدين عيثة — تحكّم فيها صالم وخؤون
وسَمّوا رشيداً ليس فيهم لرشده — وها ذاك مأمون وذاك أمين
فما قبلت بالرشد منهم رعاية — ولا للولي بالأمانة دين

وليس من العسير على الباحث في العصر العباسي الأول أن يجد مئات النماذج من المحاورات والمناظرات السياسية بلغة الشعر في هذا المجال. وكان شعراء الشيعة وخصومهم يقيمون الحجج على دعواهم. وليس من المهم أن نعرف في هذه المواجهة مقدار صحة هذه الحجج واستقامتها، ولكن من المهم أن نعرف المحور الذي يدور حوله النزاع، والحق الذي يدعيه الجانبان.

هناك حق يدعيه كل جانب، وهذا الحق هو وراثة رسول الله ﷺ في الحكم وفي قيادة المسلمين.

ليس النزاع بين الجانبين العلوي والعباسي في وراثة الخصال الاخلاقية والمعنوية والفكرية للنبي ﷺ. ليس الخلاف في أحقية هذا أو ذاك في وراثة هذه الخصال. لأن هذه الخصال لا تشكّل حقاً يتنازع عليه فريقان. النزاع حول «حق» يدّعيه الجانبان. وقد رأينا أن الشعراء في زمن الإمام الصادق عليه السلام يدافعون عن حق الإمام في قيادة الأمة المسلمة وفي حكم المجتمع الاسلامي، ويخوضون حرباً ضدّ من ليست لهم صلاحية حكومة المسلمين، ولذلك شواهد كثيرة في شعر القرن الثاني الهجري.

وقبل أن نختتم هذا القسم من المناسب أن نشير إلى لغة حِجاج أخرى، هي لغة الرسائل. هذه الرسائل الاحتجاجية كانت تتضمن من جهة أهداف الفرقاء بشكل واضح دون لبس، وكانت تجد لها من جهة أخرى صدىً شعبياً بعد انتشار مضمونها، وتأثيراً قوياً على الأنصار والخصوم. نذكر من ذلك رسالة محمد بن عبد الله بن الحسن ذي النفس الزكية إلى المنصور العباسي. هذا العلويّ الثائر يذكر بصراحة ووضوح أنه يطلب نزع الخلافة

من خصومه لتكون في أبناء علي عليه السلام، يقول:

«وإن أبانا علياً كان الوصيَ وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟!»(١).

ويبدو أن هذا الاستدلال أورده العلوي رداً على استدلال العباسيين في وراثتهم الخلافة، لأن بني العباس لم تكن لهم حجة سوى هذا الارث المزعوم، فأراد أن يسدّ عليهم الطريق ويردّ عليهم بنفس منطقهم. ويلاحظ في العبارة أن ذا النفس الزكية يركّز على إمامة علي عليه السلام انطلاقاً من فهمه لمعنى الامامة، ثم يركّز على طبيعة دعوة البيت العلوي التي يمثلها هذا الثائر.

٢ ـ بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

هذا النشاط يمكن ملاحظته أيضاً في حياة الإمام الصادق عليه السلام بشكل متميّز عما نراه في حياة بقية أئمة آل البيت عليهم السلام، حتى سمّي فقه الشيعة باسم «الفقه الجعفري». حتى الذين يغضّون الطرف عن النشاط السياسي للامام الصادق عليه السلام يجمعون على أن الإمام كان يدير أوسع، أو واحدة من أوسع الحوزات الفقهية في زمانه. والذي بقي مستوراً عن أعين أغلب الباحثين في حياة الإمام، هو المفهوم السياسي ومفهوم المواجهة لهذا اللون من نشاطات الامام، وهذا ما سنتعرض له الآن.

لا بدّ أن نذكر أولاً، أن منصب الخلافة في الاسلام له خصائص متميزة تجعل الحاكم متميّزاً عن الحكام في أنظمة الحكم الأخرى، فالخلافة ليست جهازاً سياسياً فحسب، بل هي جهاز سياسي ـ ديني. وإطلاق لقب الخليفة على الحاكم الاسلامي يؤيد هذه الحقيقة، فهو خليفة رسول الله(ص) في كل ما كان يمارسه الرسول من مهام دينية ومهام قيادية سياسية في

(١) تاريخ الطبري ٦: ١٩٥.

المجتمع.

والخليفة في الاسلام يتحمل المسؤوليات السياسية والمسؤوليات الدينية معاً. هذه الحقيقة الثابتة دفعت الخلفاء الذين جاءوا بعد الخلفاء الأولين والذين كانوا ذوي حظ قليل في علوم الدين، أو لم يكن لهم من حظ أصلاً، دفعتهم إلى سدّ هذا النقص عن طريق رجال دين مسخّرين لهم. فاستخدموا فقهاء ومفسّرين ومحدّثين في بلاطهم، ليكون جهازهم الحاكم جامعاً أيضاً للجانبين الديني والسياسي.

والفائدة الأخرى من وجود وعّاظ السلاطين في الجهاز الحاكم، هي إن الحاكم الظالم المستبد كان قادراً متى ما أراد أن يغيّر ويبدّل أحكام الدين وفقاً للمصالح. وكان هؤلاء المأجورون يقومون بهذه العملية إرضاء لأولياء نعمتهم، تحت غطاء من الاستنباط والاجتهاد ينطلي على عامة الناس.

الكتّاب والمؤرخون المتقدمون ذكروا لنا نماذج فظيعة من اختلاق الحديث ومن التفسير بالرأي كانت يد القوة السياسية فيها واضحة، وسنشير إلى جانب منها في أقسام حديثنا التالية. هذا العمل الذي اتخذ غالباً في البداية (حتى أواخر القرن الهجري الأول) شكل وضع رواية أو حديث، راح تدريجياً يأخذ طابع الفتوى. ولذلك نرى في أواخر عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس ظهور فقهاء كثيرين استفادوا من أساليب رجراجة في أصول الاستنباط، ليصدروا الأحكام وفق أذواقهم التي كانت في الواقع أذواق الجهاز الحاكم .

هذه العملية نفسها أُنجزت أيضاً في حقل تفسير القرآن. فالتفسير بالرأي اتجه غالباً إلى إعطاء مفاهيم عن الإسلام لا تقوم على أساس سوى ذوق المفسّر ورأيه المستمدّ من ذوق الجهاز الحاكم وإرادته.

من هنا انقسمت العلوم الاسلامية: الفقه والحديث والتفسير منذ أقدم العصور الاسلامية إلى تيارين عامين:

التيار الأول: تيار مرتبط بجهاز الحكومة الظالمة الغاصبة، ويتميز بتقديم

الحقيقة في موارد متعددة قرباناً على مذبح «المصالح» التي هي في الواقع مصالح الجهاز الحاكم، ويتميز أيضاً بتحريف أحكام الله لقاء دراهم معدودات.

والتيار الثاني: التيار الأصيل الأمين الذي لا يرى مصلحةً أرفع وأسمى من تبيين الأحكام الإلهية الصحيحة، وكان يصطدم ـ شاء أم أبى ـ في كل خطوة من خطواته بالجهاز الحاكم ووعاظ السلاطين، ولذلك اتجه منذ البدء اتجاها شعبياً في إطار من الحيطة والحذر.

انطلاقاً من هذا الفهم نعرف بوضوح أن اختلاف «الفقه الجعفري» مع الفقهاء الرسميين في زمن الامام الصادق لم يكن اختلافاً فكرياً عقائدياً فحسب، بل كان اختلافاً يستمد وجوده من محتواه الهجومي المعارض أيضاً.

أهم أبعاد هذا المحتوى إثبات خواء الجهاز الحاكم، وفراغه من كل مضمون ديني، وعجزه عن ادارة الشؤون الفكرية للأمة، وبعبارة أخرى، عدم صلاحيته للتصدي لمنصب «الخلافة». والبعد الآخر تشخيص موارد التحريف في الفقه الرسمي. هذه التحريفات القائمة على أساس فكر «مصلحي» في بيان الأحكام الفقهية ومداهنة الفقهاء للجهاز الحاكم. والامام الصادق عليه السلام بنشاطه العلمي وتصدّيه لبيان أحكام الفقه والمعارف الاسلامية، وتفسير القرآن بطريقة تختلف عن طريقة وعّاظ السلاطين قد اتخذ عملياً موقف المعارضة تجاه الجهاز الحاكم. الامام عليه السلام بنشاطه هذا قد يلغي كل الجهاز الديني والفقهي الرسمي الذي يشكّل أحد أضلاع حكومة الخلفاء، ويفرّغ الجهاز الحاكم من محتواه الديني.

ليس بأيدينا سند ثابت يبين التفات الجهاز الأموي إلى هذا المحتوى المعارض لما قام به الإمام الصادق عليه السلام من نشاط علمي فقهي. ولكن أغلب الظن أن الجهاز الحاكم العباسي ـ وخاصة في زمن المنصور الذي كان

يتمتع بحنكة وذكاء وتجربة اكتسبها من صراعه السياسي الطويل مع الحكم الأموي قبل وصوله إلى السلطة ـ كان يعي المسائل الدقيقة في نشاطات البيت العلوي. وكان الجهاز الحاكم العباسي يفهم الدور الفاعل الذي يستطيع أن يؤديه هذا النشاط العلمي بشكل غير مباشر.

والتهديدات والضغوط والمضايقات التي كانت تحيط بنشاطات الإمام الصادق عليه السلام التعليمية والفقهية من قبل المنصور المنقولة إلينا في روايات تاريخية كثيرة ناتجة من هذا الالتفات إلى حساسية المسألة. وهكذا اهتمام المنصور بجمع الفقهاء المشهورين في الحجاز والعراق في مقرّ حكومته ـ كما تدل على ذلك النصوص التاريخية العديدة ـ فإنه ناشئ عن هذا الالتفات أيضاً.

في حديث الامام عليه السلام وتعاليمه لأصحابه ومقرّبيه كان يستند إلى «خواء الخلفاء وجهلهم» ليستدّل على أنهم في نظر الاسلام لا يحق لهم أن يحكموا. ونحن نشهد هذه الصيغة من الهجوم على الجهاز الحاكم بوضوح وصراحة في دروسه الفقهية.

يروى عنه قوله عليه السلام: **«نحن قوم فرض الله طاعتنا وانتم تأتمون بمن لا يُعذر الناس بجهالته»**[١].

أي إن الناس انحرفوا بسبب جهل حكّامهم وولاة أمورهم، وسلكوا سبيلاً غير سبيل الله. وهؤلاء غير معذورين لدى الله. لأن إطاعة هؤلاء الحكام كانت عملاً انحرافياً، فلا يبرّر ما يستتبعها من وقوع في الانحرافات[٢].

في تعليمات الأئمة عليهم السلام قبل الإمام الصادق وبعده نرى أيضاً تركيزاً على ضرورة اقتران القيادة السياسية بالقيادة الفكرية والأيديولجية. ففي

---

(١) الكافي ١: ١٨٦، ح٣.

(١) القرآن الكريم يدين أيضاً بأساليب متعددة هذا اللون من الاتّباع المؤدي إلى الضلال. ويردّ كل عذر يتوسل به التابعون في انحرافهم. راجع سورة البقرة: ١٦٧، الشعراء: ٩١ ـ ١٠٢، سبأ: ٣١ ـ ٣٣. النساء ٩٧.

رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن جدّه الامام محمد الباقر عليه السلام قال: «**إنما مثل السلاح فينا مثل التابوت في بني اسرائيل، اينما دار التابوت دار الملك (تأمل بدقة المعنى الرمزي في التعبير) واينما دار السلاح فينا دار العلم.. وفي رواية أخرى: حيثما دار السلاح فينا فثمّ الأمر (الحكم)**»(١).

ويسأل الراوي الإمام: فيكون السلاح مزايلا (مفارقاً) للعلم؟

قال الامام عليه السلام : **لا**. أي إنّ قيادة المجتمع المسلم يجب أن تكون في من بيده السلاح والعلم معاً.

الامام إذن يرى أن علم الدين وفهم القرآن بشكل صحيح شرط من شروط الإمامة. ومن جهة أخرى فهو بنشاطه العلمي، وجمع عدد غفير من مشتاقي علوم الدين حوله، وتعليمه الدين بشكل يختلف تماماً عن الطريقة المعتادة لدى العلماء والمحدثين والمفسرين المرتبطين بجهاز الخلافة، يثبت عملياً أصالة المحتوى الديني لمدرسته، وزيف الظاهر الديني الذي يتقمّصه جهاز الخلافة ومن لفّ لفّه من علماء بلاطه. وعن هذا الطريق المهاجم المتواصل العميق الهادئ يضفي على جهاده بعداً جديداً.

وكما ذكرنا من قبل، فإن الحكّام العباسيين الأوائل الذين قضوا سنين طوالاً قبل تسلّمهم السلطة في نفس أجواء الجهاد العلوي وإلى جانب أنصار العلويين، كانوا على علم بكثير من الخطط والمنعطفات، وكانوا متفهّمين لدور الهجوم والمواجهة الذي يؤديه هذا النشاط في الفقه والحديث والتفسير أكثر من أسلافهم الأمويين. وقد يكون هذا السبب هو الذي دفع المنصور العباسي في مواجهاته مع الامام الصادق عليه السلام أن يمنع الامام زمناً من الجلوس في حلقات التدريس وعن تردّد الناس

---

(١) الكافي، ١: ٢٣٨.

عليه. حتى أن المفضل بن عمر يقول: «ان المنصور قد كان همّ بقتل ابي عبد الله عليه السلام غير مرّة، فكان إذا بعث إليه ودعاه ليقتله فإذا نظر إليه هابه ولم يقتله، غير أنه منع الناس عنه ومنعهُ من القعود للناس، واستقصى عليه أشد الاستقصاء، حتى أنه كان يقع لأحدهم مسألة في دينه في نكاح أو طلاق أو غير ذلك فلا يكون علم ذلك عندهم، ولا يصلون إليه فيعتزل الرجل وأهله، فشق ذلك على شيعته وصعب عليهم...»(١).

٣ ـ إقامة تنظيم سري إيديولوجي ـ سياسي

مرّ بنا أن الإمام الصادق عليه السلام قاد في أواخر العصر الأموي شبكة إعلامية واسعة استهدفت الدعوة إلى إمامة آل علي عليهم السلام وتبيين مسألة الإمامة بشكلها الصحيح. وهذه الشبكة نهضت بدور مثمر وملحوظ في أقاصي بقاع العالم الاسلامي، وخاصة في العراق وخراسان لنشر مفاهيم الإمامة.

ونشير هنا إلى جانب صغير من هذه المسألة. مسألة التنظيمات السرية في الحياة السياسية للامام الصادق عليه السلام وباقي الأئمة من أهم المسائل وأكثرها حساسية، وهي في الوقت نفسه من أغمض فصول حياتهم وأشدّها إبهاماً. وكما ذكرنا، لا يمكن أن نتوقع وجود وثائق صريحة في هذا المجال، حيث لا يمكن أن نتوقع من الإمام أو أحد أصحابه أن يعترف صراحة بوجود هذه التنظيمات ـ السياسية ـ الفكرية.

فهذا مما لا يمكن الكشف عنه. الشيء المعقول هو أن الإمام ينفي بشدّة وجود مثل هذا التنظيم السري، وهكذا أصحابه، ويعتبرون ذلك تهمة وسوء ظن فيما لو تعرّضوا لاستجواب جهاز السلطة. هذه هي خاصية العمل السري، والباحث في حياة الأئمة عليهم السلام أيضاً من حقّه أن

(١) المناقب، بان شهر آشوب: ٢٣٨ط: بيروت.

لا يقتنع بوجود مثل هذا التنظيم دون دليل مقنع. إذن فلا بدّ أن نبحث عن القرائن والشواهد والحوادث التي تبدو بسيطة لا تلفت نظر المطالع العادي، لنبحث عن دلالاتها في هذا المجال. بهذا اللون من التدقيق في حياة الأئمة عليهم السلام خلال قرنين ونصف القرن من حياتهم يستطيع الباحث أن يطمئن إلى وجود مثل هذه التنظيمات التي تعمل تحت قيادة الأئمة عليهم السلام.

ما المقصود بالتنظيم؟ ليس المقصود به طبعاً حزباً منظماً بالمفهوم المعروف اليوم، ولا يعني وجود كوادر منظمة ذات قيادات اقليمية مرتبطة ارتباطاً هرمياً، فلم يكن شيء من هذا موجوداً ولا يمكن أن يوجد. المقصود بالتنظيم وجود جماعة بشرية ذات هدف مشترك تقوم بنشاطات متنوعة تتجه نحو ذلك الهدف، وترتبط بمركز واحد وقلب نابض وواحد ودماغ مفكر واحد، وتسود بين أفرادها روابط عاطفية مشتركة.

هذه الجماعة كانت في زمن الإمام علي عليه السلام (أي خلال السنوات الخمس والعشرين بين وفاة الرسول الأكرم وبيعته للخلافة) وكان يجمعها الايمان بأحقية الإمام علي عليه السلام في الخلافة، وكانت تعلن وفاءها الفكري والسياسي للامام، غير أنها كانت تحذو حذو الإمام علي عليه السلام في عدم إثارة ما يزلزل المجتمع الاسلامي الوليد، كما كانت تنهض بما كان ينهض به الامام علي عليه السلام في تلك السنوات من مهام رسالية تستهدف صيانة الاسلام ونشره، ومحاولة الحدّ من الانحرافات واتخذت لولائها هذا اسم «شيعة علي»، ومن وجوههم المشهورة: سلمان وعمار وأبو ذر وأبي بن كعب والمقداد وحذيفة وغيرهم من الصحابة الأجلاء.

ولدينا شواهد تاريخية تثبت أن هؤلاء كانوا يشيعون بين الناس فكرهم بشأن إمامة علي عليه السلام بشكل حكيم. وعملهم هذا كان مقدمة لإلتفاف الناس حول الامام وإقامة الحكم العلوي.

بعد أن استلم الامام علي عليه السلام مقاليد الأمور سنة ٣٥هجرية،

كان حول الامام علي صنفان من الناس: صنف عرف الإمام ومكانته وفهم معنى الإمامة وآمن بها، وهم شيعته الذين تربّوا على يد الإمام بشكل مباشر أو غير مباشر. وعامة الناس الذين عاشوا أجواء تربية الإمام ونهجه ولكنهم لم يكونوا مرتبطين فكرياً وروحياً بالجماعة التي ربّاها الإمام تربية خاصة.

ولذلك نجد بين أتباع الإمام صنفين من الأفراد بينهما تفاوت كبير: صنف يضم عماراً ومالكاً الأشتر وحجر بن عدي وسهلَ بن حنيف وقيسَ بن سعد وأمثالهم، وصنف من مثل أبي موسى الأشعري وزياد بن أبيه ونظرائهم.

بعد حادثة صلح الإمام الحسن عليه السلام كانت الخطوة الهامة التي اتخذها الإمام نشر فكر مدرسة أهل البيت، ولمّ شتات الموالين لهذا الفكر، إذ أتيحت الفرصة لحركة أوسع بسبب اضطهاد السلطة الأموية. وهكذا كان دائماً، فالاضطهاد يؤدي إلى انسجام القوى المضطهدة وتلاحمها وتجذّرها بدل تبعثرها وتشتتها. واتجهت استراتيجية الإمام الحسين عليه السلام إلى تجميع القوى الأصيلة الموالية، وحفظها من بطش الجهاز الأموي، ونشر الفكر الاسلامي الأصيل في دائرة محدودة، ولكن بشكل عميق، وكسب الأفراد إلى صفوف الموالين، وانتظار الفرصة المؤاتية للثورة على النظام وتفجير أركانه، وإحلال الحكم العلوي مكانه.. وهذه الاستراتيجية في العمل هي التي جعلت الامام الحسن عليه السلام أمام خيار واحد وهو الصلح.

ومن هنا نرى أن جمعاً من الشيعة برئاسة المسيب بن نجية وسليمان بن صرد الخزاعي يقدمون على الامام الحسن عليه السلام بعد حادثة الصلح في المدينة، حيث اتخذها الامام قاعدة لعمله الفكري والسياسي بعد عودته من الكوفة، ويقترحون عليه إعادة قواهم وتنظيماتهم العسكرية والاستيلاء على الكوفة والاشتباك مع جيش الشام، والامام يستدعي هذين الاثنين من بين

الجمع، ويختلي بهما ويحدثهما بحديث لا نعرف فحواه، يخرجان بعده بقناعة تامة بعدم جدوى هذه الخطة. وحين يعود الاثنان إلى من جاء معهما يفهمانهم باقتضاب أن الثورة المسلحة مرفوضة، ولا بدّ من العودة إلى الكوفة لاستئناف نشاط جديد فيها(١).

هذه حادثة مهمة لها دلالات كبيرة حدت ببعض المؤرخين المعاصرين الى اعتبار ذلك المجلس الحجر الأساس في إقامة التنظيم الشيعي.

والواقع أن الخطوة الأولى لإقامة التنظيم الشيعي لو كانت حقاً قد اتخذت في ذلك اللقاء بين الإمام الحسن عليه السلام والرجلين القادمين من العراق، فإن مثل هذه الخطوة قد أوصى بها الإمام علي عليه السلام من قبل حين أوصى المقرّبين من أصحابه بقوله:

«لو قد فقدتموني لرايتم بعدي أشياء يتمنّى احدكم الموت مما يرى من الجور والعدوان والأَثَرَة والاستخفاف بحق الله والخوف على نفسه. فإذا كان ذلك:

- فاعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا...

- وعليكم بالصبر والصلاة.

- والتقية.

واعلموا أن الله عز وجل يبغض من عباده (التلوّن) لا تزولوا عن (الحق وأهله) فإن من استبدل بنا هلك، وفاتته الدنيا وخرج منها آثماً»(٢).

هذا النص الذي يرسم بوضوح الوضع المأساوي في العصر الأموي، ويوجه المؤمنين إلى التلاحم والتعاضد والتنسيق والانسجام يعتبر أروع وثيقة

(١) المعنى نفسه جاء في كتاب الشيخ راضي آل ياسين صلح الامام الحسن(ع): ٣١ ـ ٣٢: بيروت.

(٢) تحف العقول: ١١٥، ط٢.

من وثائق الجهاز التنظيمي في حركة آل البيت عليهم السلام . وهذا المشروع التنظيمي يتبلور في شكله العملي في اللقاء بين الإمام الحسن عليه السلام واثنين من الشيعة الخلّص. ومما لا شك فيه أن أتباع أهل البيت لم يكونوا جميعاً مطّلعين على هذا المشروع الدقيق. ولعل هذا يبرّر ما كان يصدر من بعض صحابة الإمام الحسن عليه السلام من اعتراض وانتقاد. وكان المعترضون يواجهون قول الامام الذي مضمونه: «...من يدري، لعله اختبار لكم ونفعٌ زائلٌ لأعدائكم...».

وفي هذه الإجابة إشارة خفية إلى سياسة الإمام وتدبيره[١].

خلال الأعوام العشرين من حكومة معاوية بكل ما أحاط فيها البيت العلوي من إعلام مكثّف مضاد، بلغ درجة لعن الامام أمير المؤمنين عليه السلام على منابر المسلمين، وبكل ما شهدتها من انسحاب الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام من ساحة النشاط العلني المشهود، لا نرى سبباً في انتشار فكر أهل البيت واتساع القاعدة الشيعية في الحجاز والعراق سوى وجود هذا التنظيم.

ولنلقِ نظرة على الساحة الفكرية في هذه المناطق بعد عشرين عاماً من صلح الامام الحسن عليه السلام .

في الكوفة نرى رجال الشيعة من أبرز الوجوه وأشهرها. وفي مكة والمدينة بل وفي المناطق النائية نرى أتباع أهل البيت مثل حلقات مترابطة يعرف بعضها ما يلمّ بالبعض الآخر.

حين يستشهد بعد أعوام أحد رجال الشيعة وهو «حجر بن عدي» ترتفع أصوات الاعتراض في مناطق عديدة من البلاد الاسلامية، على رغم الارهاب المفروض على كل مكان، ويبلغ الحزن والأسى بشخصية معروفة في

---

(١) هذا الوضع يمكن مقارنته وتشبيهه إلى حد ما بوضع المجتمعات المعاصرة التي تحكمها الأنظمة الحزبية.

خراسان أن يموت كمداً بعد إعلان الاعتراض الغاضب[1].

وبعد موت معاوية ترد على الامام الحسين عليه السلام آلاف الرسائل تدعوه أن يأتي إلى الكوفة لقيادة الثورة. وبعد استشهاد الامام يلتحق عشرات الآلاف بمجموعة «التوّابين»، أو ينخرطون في جيش المختار وإبراهيم بن مالك ضد الحكم الأموي.

ومن حق الباحث في التاريخ الاسلامي أن يسأل عن العوامل الكامنة وراء شيوع هذا الفكر والتحرّك الموالي لآل البيت عليهم السلام. هل يمكن أن يتم دون وجود نشاط مكثّف محسوب منظّم متحد في الخطة والهدف؟!

الجواب: لا طبعاً. فالإعلام الهائل، الذي وجهته السلطة الأموية عن طريق مئات القضاة والولاة والخطباء، لا يمكن إحباطه وإفشاله دون إعلام مضاد مخطط مرسوم، ينهض به تنظيم منسجم موحَّد غير مكشوف. وقبيل وفاة معاوية تزايد نشاط هذا الجهاز العلوي المنظّم وتصاعدت سرعة عمله، حتى أن والي المدينة يكتب إلى معاوية ما مضمونه: «أما بعد، فإن عمر بن عثمان (عين والي المدينة على الحسين عليه السلام) أخبرنا بأن رجالاً من العراق وبعض شخصيات الحجاز يترددون على الحسين بن علي، وتدور بينهم أحاديث حول رفع راية التمرّد والعصيان... فاكتبوا لنا ماذا ترون»[2].

بعد واقعة كربلاء وشهادة الامام الحسين عليه السلام تضاعف النشاط التنظيمي لشيعة العراق على أثر الصدمة النفسية التي أصيبوا بها في مقتل الامام الحسين عليه السلام، حيث بوغتوا بهذه الجريمة التي سلبتهم قدرة الالتحاق بركب الحسين وأهل بيته في كربلاء. وكان هذا التحرّك مؤطّراً بالألم والحسرة والأسف.

يقول الطبري: فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والإستعداد للقتال ودعاء الناس في السرّ من الشيعة وغيرها الى الطلب بدم الحسين، فكان يجيبهم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر، فلم يزالوا كذلك حتى مات يزيد

بن معاوية[1].

وحقاً ما تقوله مؤلّفة جهاد الشيعة إذ تعلّق على قول الطبري بالقول:

وظهرت جماعة الشيعة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام كجماعة منظمة، تربطها روابط سياسية وآراء دينية، لها اجتماعاتها وزعماؤها، ثم لها قواتها العسكرية، وكانت جماعة «التوّابين» أول مظهر لذلك كله[2].

ويبدو، من دراسة أحداث التاريخ ورأي المؤرخين في تلك البرهة الزمنية، أن الشيعة كانوا يتولّون مسؤولية القيادة والتخطيط، أما القاعدة العريضة الساخطة على بني أمية، فكانت أوسع من المجموعة الشيعية المنظمة، وكانت هذه القاعدة تنضمّ إلى كل حركة ذات صبغة شيعية.

من هنا فإن المتحركين ضدّ بني أمية، وإن رفعوا شعارات شيعية، لا ينبغي أن نتصورهم جميعاً بأنهم في عداد الشيعة، أي في عداد الجهاز التنظيمي لأئمة أهل البيت عليهم السلام .

انطلاقاً مما سبق، أودّ التأكيد على أن اسم الشيعة بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام أطلقت فقط على المجموعة التي كانت لها علاقة وثيقة بالامام الحق، تماماً كما كان الحال في زمن أمير المؤمنين عليه السلام .

هذه المجموعة هي التي عمدت بعد صلح الامام الحسن عليه السلام إلى تأسيس التنظيم الشيعي بأمر الإمام، وهي التي نشطت في كسب الأفراد إلى التنظيم ودفع أفراد أكثر، لم يرتفعوا في الفكر والنضج العملي الى مستوى الانخراط في التنظيم، نحو التيار العام للحركة الشيعية.

---

(١) مات الربيع بن زياد الحارثي غماً لمقتل حجر، وذكر ذلك ابن الأثير في الكامل ٣:١٩٥، وكان سبب موته أنه سخط قتل حجر بن عدي... وذكر ذلك في الاستيعاب. وأسد الغاب، والدرجات الرفيعة وغيرها. صلح الحسن عليه السلام ٣٣٨.

(٢) ثورة الحسين: ١٨، نقلاً عن أعيان الشيعة والأخبار الطوال.

والرواية التي أوردناها عن الإمام الصادق عليه السلام في بداية هذا الحديث، والتي تذكر أن عدد المؤمنين بعد حادثة عاشوراء لم يتجاوز الثلاثة أو الخمسة، إنما تقصد أفراد هذه المجموعة الخاصة.. أي هؤلاء الذين كان لهم الدور الرائد الواعي في مسيرة حركة التكامل الثورية العلوية.

وعلى أثر النشاط المتستر الهادئ الذي قام به الإمام السجاد عليه السلام توسعت قاعدة هذه المجموعة، وإلى هذا يشير الإمام الصادق عليه السلام في الرواية المذكورة: «ثم لحق الناس وكثروا». وسنرى أن عصر الإمام السجاد والامام الباقر والإمام الصادق عليه السلام شهد تحرّك هذا الجمع تحرّكاً أثار الرعب والفزع في قلوب الحكام الظالمين، ودفع هؤلاء الحكام الى ردود فعل قاسية.

وبعبارة موجزة، فإن اسم الشيعة في القرنين الأول والثاني الهجريين وفي زمن الأئمة عليهم السلام ما كان يُطلق على الذين يحبّون آل بيت النبي عليهم السلام أو المؤمنين بحقهم وبصدق دعوتهم فقط، من دون اشتراك في مسيرتهم الحركية. بل إن الشيعة كانوا يتميزون بشرط أساسي وحتمي، وهو عبارة عن الارتباط الفكري والعملي بالامام، والاشتراك في النشاط الفكري والسياسي، بل والعسكري الذي يقوده لإعادة الحق إلى نصابه، وإقامة النظام العلوي الاسلامي. هذا الارتباط هو نفسه الذي يطلق عليه في قاموس التشيع اسم «الولاية».

جماعة الشيعة كانت تطلق في الواقع على أعضاء حزب الامام.. هذا الحزب الذي كان يتحرّك بقيادة الامام عليه السلام، وكان يتخذ من الاستتار والتقية خندقاً له مثل كل الأحزاب والتنظيمات المضطهدة التي تعيش في جو الارهاب. هذه خلاصة النظرة الواقعية لحياة الأئمة عليهم السلام، وخاصةً الإمام الصادق عليه السلام. وكما ذكرنا من قبل لا يمكن أن يكون لمثل هذه

(١) الطبري ٧: ٤٦، نقلاً عن د. سميرة مختار الليثي، جهاد الشيعة:٢٨.
(٢) د. سميرة الليثي (جهاد الشيعة: ٢٧).

المسألة دلائل صريحة، إذ لا يمكن أن نتوقع من بيت سرّي أن يحمل لافتة تقول: «هذا بيت سرّي»! وكذلك لا يمكن أن نطمئن إلى النتيجة دون قرائن حاسمة.

من هنا ينبغي أن نتتبّع القرائن والشواهد والإشارات.

من العبارات العميقة التي تلفت نظر الباحث المدقق في الروايات المرتبطة بحياة الأئمة عليهم السلام، أو في كلام مؤلّفي القرون الاسلامية الأولى، عبارة «باب» و«وكيل» و«صاحب السر» وهي عبارات تطلق على بعض أصحاب الأئمة. فمثلاً، يقول ابن شهر آشوب المحدث الشيعي الشهير في سيرة الإمام السجاد عليه السلام: «وكان بابه يحيى بن أم الطويل» وفي سيرة الإمام الباقر عليه السلام يقول: «وكان بابه جابر بن يزيد الجعفي». وفي ترجمة الإمام الصادق عليه السلام يقول: «وكان بابه محمد بن سنان». وفي «رجال الكشي» ترد حول زرارة وبريد ومحمد بن مسلم وأبي بصير عبارة: «مستودع سرّي». وفي كتب الحديث تروى عن الامام الصادق عليه السلام عبارة «وكيل» بشأن المعلّى بن خنيس. وكل واحد من هذه التعبيرات، إن لم تكن صادرة عن الإمام، فإنها دون شك حصيلة دراسة موسعة في حياة الأئمة، نهض بها المؤلفون الشيعة القدامى. واختيار هذه التعبيرات العميقة على أي حال ينطلق من معالم بارزة في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام. ولو تأملنا في هذه التعبيرات لألفينا أن كل واحد منها يدل على وجود جهاز فعّال مستتر وراء النشاط الظاهري للأئمة عليهم السلام.

مستودع السر

إذا لم يكن لأحد «سرٌّ» فليس له مستودع سر. فما هو هذا السر في حياة الأئمة؟ ما هذا الذي لا يتحمله أصحاب الأئمة عامة، بل ثمة نفر معدود له لياقة وصلاحية تحمّله، وبذلك نال شَرفَ اسم «مستودع السر»؟!

ولقد راحت الذهنية المتأخرة البعيدة عن واقع الأحداث وتمحيصها تفسّر هذا السر بأنه« سر الإمامة». كما راحت تفسّر سرّ الإمامة بأنه الأسرار الغيبية والقدرة على الخوارق والمعاجز.

أنا أؤمن بقدرة هذه الصفوة المقدسة من أهل البيت، الذين اختارهم الله لمواصلة مهمة حمل الرسالة وتبليغها بعد رسول الله، أن يحملوا مثل هذه القدرة ومثل هذه العلوم، كما أؤمن بأن تحلّيهم بهذه القوى والعلوم لا يتنافى أصلاً مع نظرة الاسلام الى الانسان والنواميس الطبيعية وسنن الكون. ولكن هذه القوى والعلوم ليست هي «سر الامام». فمثل هذه القوى والعلوم أوضح دليل على الإمامة وعلى صدق دعوى الإمام. لماذا يكتم الامام هذه الامور ويوصي أصحابه بكتمانها في روايات كثيرة، تضافرت حتى أصبحت الكتب الحديثية الشيعية تتضمن باباً يحمل عنوان: «باب الكتمان»[1]؟ لا بدّ أن يكون هذا السرّ مما لو شاع لشكل خطراً كبيراً على الإمام وأصحابه، وهذا شيء غير الغيبيات والخوارق.

هل السرّ هو معارف أهل البيت؟ هل هو رؤية مدرسة أهل البيت للاسلام وفقهها وأحكامها؟ لا ننكر أن معارف مدرسة أهل البيت كانت تنشر في عصر الاضطهاد الأموي والعباسي وفق منهج الحكمة والتدبير،

(١) رجال الكشي: ٣٨٠، ط مصطفوي.

لكي لا يخوض فيها كلّ من هبّ ودبّ، ولكن هذه المعارف لا يمكن أن تكون هي سرّ الامام. فمع كل ما أحاط بهذه المعارف من اختصاص، كانت تدرس في مئات الحوزات الفقهية والحديثية في عدد من كبريات مدن الصقع الاسلامي آنذاك، كان الشيعة يتناقلون هذه المعارف ويشرحونها ويتداولونها. بعبارة أخرى كانت هذه المعارف خاصة لا سريّة.

واختصاصها يعني أن رواجها كان محدوداً بالدائرة الشيعية، لكنها كانت تصل إلى غير الشيعة أيضاً في ظروف خاصة. لم تكن أبداً محدودة بأفراد معدودين من أصحاب الأئمة وخافية على غيرهم.

الحق أن الأسرار هي ما يتعلق بالمعلومات المرتبطة بالجهاز التنظيمي للامام.. بالجهاز الذي يخوض معتركاً سياسياً باتجاه هدف ثوري.. بالتكتيك الذي ينتهجه الجهاز... بالعمليات التي ينفذها.. بأسماء ومهام أعضاء الجهاز.. بمصادر التمويل.. بالأخبار والتقارير المتعلّقة بالأحداث الهامة.. هذه وأمثالها من الأسرار التي لا يجوز أن يطّلع عليها سوى القائد والكوادر المسؤولة. ربما تحين الظروف المناسبة عاجلاً أم آجلاً لإعلان هذه الأسرار وكشفها، ولكن قبل أن تحين تلك الظروف لا يمكن أن يطلع على هذه الأسرار سوى من يرتبط عمله مباشرة بها، وهم «مستودع السر». وكل تسريب لهذه المعلومات إلى أوساط الشيعة فإنه يفتح ثغرة تسرّبها إلى الأعداء، وهو خطأ كبير لا يغتفر، خطأ قد يؤدّي إلى انهدام الجهود والأعمال والمجموعة المنتظمة. ومن هنا نفهم ما يعنيه الامام عليه السلام إذ يقول: «ليس الناصب لنا حرباً بأعظم مؤنة علينا من المذيع علينا سرّنا. فمن اذاع سرّنا إلى غير أهله لم يفارق الدنيا حتى يعضهُ السلاح»(١).

---

(١) رجال الكشي: ٣٨٠، ط مصطفوي.

الباب والوكيل

في الارتباطات السرية بين الامام عليه السلام والشيعة قد يتطلب الأمر إيصال بعض المعلومات إلى الشيعة عن طريق «واسطة»، وهذا تدبير معقول وطبيعي. العيون المتلصصة على كشف ارتباطات الامام عليه السلام تترصّد التقاءاته بأتباعه في موسم الحج في مكة والمدينة حين تؤمها القوافل من أقاصي العالم، وقد يؤدي رصد هذه اللقاءات الى اكتشاف خيوط الجهاز المركزي لتنظيم الامام، لذلك نرى أن الامام عليه السلام كان يُبعد عنه بعض الافراد بلهجة لينة أحياناً، ومعاتبة تارة أخرى. يقول لسفيان الثوري مثلاً: «أنت رجلٌ مطلوب وللسلطان علينا عيون فاخرج عنا غير مطرود»[1].

ويترحّم الامام عليه السلام على شخص صادفه في الطريق وأعرض بوجهه عنه، ويذم شخصاً آخر رآه في ظروف مشابهة فسلّم عليه باحترام واجلال[2].

مثل هذه الظروف تستلزم وجود فرد يكون واسطة بين الإمام عليه السلام وبين من يحتاج الى معلومات تصل اليه من الإمام، وهذا الواسطة هو «الباب»، ويجب أن يكون من أخلص أتباع الامام، وأقربهم إليه، وأغناهم بالمعلومات والخطط. يجب أن يكون مثل «نحلة» إذا عرفت الحشرات المضرّة ما تحملهُ من عسل قَطّعتها وأغارت على شهدها[3]. وليس صدفة أن نرى تعرّض هؤلاء «الأبواب» غالباً للمطاردة وأقسى ألوان البطش والتنكيل.

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٤ :٢٤٨.
(٢) الكافي ٢ : ٢١٩.
(٣) هذا التعبير مقتبس من أحد نصوص الامام عليه السلام .

إن يحيى بن أم الطويل «باب» الامام السجاد عليه السلام يُقتل بشكل شنيع[1]. وجابر بن يزيد الجعفي باب الامام الباقر عليه السلام يتظاهر بالجنون ويشيع عنه ذلك فينجّيه من القتل الذي صدر الأمر به من الخليفة قبل أيام من اشتهار جنونه. ومحمد بن سنان، باب الامام الصادق عليه السلام يتعرّض لطرد ظاهري من الامام رغم أن الامام أبدى رضاه عنه في مواضع أخرى وأثنى عليه، وما ذلك إلاّ لتعرّض محمد بن سنان لمثل هذه الأخطار. كما أن إعلان الإمام براءته من راوٍ معروف مشهور حظي بإعلان رضا الامام عليه السلام مراراً يعود على الأقوى إلى تكتيك تنظيمي.

مثل هذا المصير يواجهه «الوكيل» أيضاً. مسؤول جمع الأموال المرتبطة بالإمام وتوزيعها، يملك أيضاً كثيراً من الأسرار وأقلّها أسماء الدافعين والقابضين، وليست هذه المعلومات بالتي يستهين بها أعداء الإمام، وأفضل دليل على ذلك مصير المعلّى بن خنيس وكيل الامام الصادق عليه السلام في المدينة، وتعبيرات الامام القائمة على أساس التقية بشأن المفضّل بن عمر وكيل الامام في الكوفة.

هذه العناوين الثلاثة (الباب، الوكيل، صاحب السر) التي نجد مصاديقها في وجوه بارزة من رجال الشيعة تلقي ظلالاً على واقع الشيعة وارتباطهم بالامام والحركة التنظيمية الشيعية.

يمكننا بهذه النظرة أن نفهم الشيعة بأنهم مجموعة من العناصر المنسجمة الهادفة النشطة المتمركزة حول محور مقدس يشعّ بتعاليمه وأوامره على القاعدة، والقاعدة ترتبط به وتنقل إليه المعلومات وتضبط مشاعرها وتسيطر على عواطفها بتوصياته الحكيمة، وتلتزم التزاماً دينياً بأساليب العمل السّري، مثل حفظ الأسرار، وقلّة الكلام، والابتعاد عن الأضواء والتعاون الجماعي والزهد الثوري.

---

(١) قطعت رجله وهو حي ثم قتل. للتعرف على هذه الشخصية الكبيرة راجع: رجال الكشي وسائر كتب الرجال.

6
الامام الرضا عليه السلام وولاية العهد

بسم الله الرحمن الرحيم

علينا الاعتراف بأن حياة الأئمة عليهم السلام لم تُعرف وتفهم بالشكل المطلوب والكامل، حتى أن مقامهم وموقعهم الجهادي في الحياة قد بقي مخفياً حتى عن الشيعة أنفسهم. وعلى رغم وجود آلاف الكتب الكبيرة والصغيرة، قديماً وحديثاً تتناول سيرة وحياة الأئمة عليهم السلام، فإن قسماً كبيراً ومهماً من سيرة أولئك العظام ما زال محجوباً بأستار الغموض والإجمال، كما أن الحياة السياسية لأبرز وجوه آل بيت النبوة التي امتدت لقرنين ونصف وكانت تشكل أهم مراحل تاريخ الإسلام ابتليت بكثير من المحققين والكتّاب الذين كانوا ينطلقون في دراستهم من خلفيات مسبقة، أو من تقصير في التدقيق، أو أنهم أصلاً من ذوي الانحرافات، مع افتقارنا إلى التاريخ المدون والموثّق لحياة الأئمة المليئة بالأحداث والتطورات.

إن حياة الإمام الثامن علي الرضا عليه السلام السياسية والتي استمرت عشرين سنة تقريباً من هذه الحقبة (القرنين ونصف) كإمام هي جديرة بالتحقيق والدراسة المعمقة وذلك لأنها كانت من جملة المحطات الحساسة والبارزة لتلك الحقبة.

والآن عندما ندقق النظر لنعرف ما هو أهم شيء لم تتم دراسته بالشكل المطلوب والمناسب في حياة الأئمة عليهم السلام نجد أنه عنصر المواجهة السياسية القاسية والعنيفة، فمنذ بداية النصف الثاني من

القرن الأول الهجري وحيث تحولت الخلافة الإسلامية بشكل واضح وفاضح إلى سلطنة بكل معنى الكلمة في جميع الجوانب وتبدلت الحكومة (أمانة الله) إلى حكومة متسلطة ملكية كانت المواجهة السياسية، لأهل البيت عليهم السلام تشتد وتتطور بأسلوب يتناسب مع الأوضاع والظروف المستجدة.

وهذه المواجهة كان هدفها الأساسي تشكيل النظام الإسلامي وبناء الحكومة على أساس مبدأ الإمامة، ومن دون شك كان أيضاً تبيين وشرح الدين من منظار أهل بيت الوحي، ورفع الشبهات ومواجهة الانحرافات، ونشر المعارف والأحكام الإسلامية، من جملة الأهداف المهمة لجهاد أهل البيت عليهم السلام .

لكن بعد الاطلاع على حركة أهل البيت نرى قرائن لا تقبل الشك تدل على أن جهاد أهل البيت لم يكن محدوداً وناظراً فقط لتحقيق هذه الأمور. بل نرى أن الهدف الأسمى لذلك الجهاد لم يكن إلا تشكيل الحكومة العلوية وبناء النظام الإسلامي العادل. فكل المصاعب والآلام والمرارات والتضحيات في حياة الأئمة وأصحابهم كانت في سبيل هذا الهدف. والأئمة، بدءاً من زمان الإمام السجاد، أي بعد حادثة عاشوراء، وصولاً إلى آخرهم، كانوا ينهضون لأجل تهيئة الأرضية اللازمة لتصبح على المدى البعيد مستعدة لتحقيق هذا الهدف (الحكومة العلوية). فعلى مدى الفترة الممتدة من حادثة عاشوراء إلى استلام الإمام الثامن عليه السلام ولاية العهد (١٤٠ سنة) كانت نشاطات أئمة أهل البيت والأحداث المتعلقة بهم دائماً من أخطر ما تواجهه أنظمة الخلافة المتعاقبة من خطر يهدد كيانها، وفي هذه المدة (١٤٠ سنة) تهيأت عدة فرص للتعبير عن أن جهاد التشيع ونضاله والذي يجب أن يطلق عليها اسم الثورة العلوية، اقتربت من تحقيق انتصارات

كبرى. لكن في كل مرة كانت تظهر موانع وعوائق تقف في طريق تحقيق الانتصار النهائي (إقامة الحكومة العلوية)، بحيث أنه غالباً ما كانت تتلقى هذه الحركات ضربات قاسية ومميتة وذلك من خلال الحصار والهجوم على المحور الأساسي والأصلي للثورة والذي يمثل شخص الإمام المعصوم عليه السلام.

فالإمام المعصوم في كل زمان غالباً ما كان يحاصر ويزجّ به في السجن أو يقتل. وعندما يصل الدور إلى الإمام الذي يليه، كان يواجه جواً شديد القمع مليئاً بالضغوطات والصعوبات إلى حد أنه كان يحتاج إلى فترة طويلة لتهيئة الأرضية من جديد. والأئمة عليهم السلام في هذا الخضم من المصاعب كانوا بفطنتهم وشجاعتهم يعبرون بالتشيع من هذه المحطات الصعبة والخطرة بسرعة وثبات، وبذلك لم يتمكن الخلفاء الأمويون والعباسيون من أن يقضوا على فكر الإمامة وتأثيره وفاعليته من خلال القضاء على شخص الإمام. فبقي هذا الفكر وهذا الجهاد جرحاً عميقاً في خاصرة النظام، ومصدر تهديد يسلب من هؤلاء الخلفاء الراحة، ولما استشهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مسموماً بعد سنوات أمضاها في سجن هارون، ساد جو من التوتر والضغط في جميع أرجاء السلطنة العباسية، وفي هذا الجو الضاغط يذكر أحد أصحاب الإمام علي بن موسى عليه السلام قائلاً: «في الوقت الذي كانت الدماء تقطر من سيف هارون كانت براعة الإمام المعصوم حيث استطاع أن يحفظ ويصون شجرة التشيع من خطر الأحداث الجارفة، ويمنع تفرق أصحاب والده عليه السلام ويحافظ على حماستهم وروحيتهم»، وتمكن من خلال سلوك طريق التقية أن يحافظ على حياته التي كانت محوراً وروحاً لوحدة وتجمّع الشيعة وكذلك استمرت المواجهات الأساسية والصلبة من قبل خط الإمامة رغم

قـوة ونفوذ الخلفـاء العبـاسـيين في تلك المرحـلة التـي نعـم فـيـهـا النظام الحـاكـم بجـو مـن الاسـتـقـرار والثـبـات النسـبي. حـيث كـان الخليـفـة العـبـاسـي في تـلك الفـتـرة أقـوى وأقـدر من أسـلافـه. مـع أن التـاريخ لم يستطـع أن يحـدد لنا بشكل واضح حـدود ومـعـالم تلك الفـتـرة من العـشـر سنوات لحياة الإمام الرضا عليه السلام في زمان هارون وما بعده من الخمس سنوات التي وقعت فيها حروب ونزاعات داخلية بين خراسان وبغداد ضمن السلطنة العباسية.

لكن عند التـأمل والتدبر فـي تلك الفتـرة ندرك أن الإمام الثـامن عليه السلام قـام فـي تلـك الفـتـرة بنفـس المواجـهـة الناظرة إلى المدى البـعـيـد، والتي انتـهـجـهـا أهـل البـيـت في كل المراحل التي تلت حـادثة عـاشـوراء ومـضى للوصـول إلى الأهـداف نفسـهـا. ولما فـرغ المأمـون في سنـة ١٩٨هـ من حـربه ضـد أخـه الأمـين واسـتـولى عـلـى الخـلافـة مـن دون منـازع، كـان أول مـا قـام بـه وعـمـل عليـه هـو حـل مـشكـلة العلويـين وثـورات التـشيـع، ولقـد أخـذ بعـين الاعـتـبـار تجـارب أسـلافـه لتـحـقيق ذلك، وواقع هـذه الحـركـة، والتي كـانت تـدل علـى صـلابـة هـذه الثـورة يومـاً بعـد يوم، وعلى عـجـز وضعـف الأنظمة الحـاكمة عن اقتلاع جذورها أو حتى تحجيمها وإيقافها عن التكامل والنمو.

فـالمأمـون رأى أن قـوة نفـوذ هـارون وسـطوته التي وصلت إلى حـد أسـر الإمـام السـابـع وسـجـنه لتـلـك المـدة الطويلة ومن ثم قـتله بالسم، لم تُجدِ نفعـاً ولم تمنـع التحـركات السياسـية والعسكرية والإعلامـية والفكرية لتيـار التشيـع. فكيـف بـه إذا أراد أن ينتهـج هـذه الطريقـة. وهـو لـم يكـن يتمتـع بما تمتـع بـه أبـوه. فهـو، إضـافـة إلى الحـروب الـداخليـة التي ابتلي بهـا بنـو العـبـاس وورث هو مـخلفـاتهـا وآثـارها، كـان يعـانـي من مـشـاكل كبـرى تهـدد السلطنـة العباسيـة. ومـن دون شك فقد كـان من اللازم عليه

أن ينظـر بجـدية إلى خطر ثورة العلويين، ولعل المأمون في تقـيـيمـه لخطر الشيـعـة عـلـى نظامـه كـان ينظـر ببصيـرة. لـذا فـهنـاك ظـن كـبيـر بأن الفتـرة الفاصلـة والتي تقـدر بخمسـة عشـر سنـة أي مـن بـعـد شـهـادة الإمـام السـابـع حتـى ذلـك اليـوم الـذي جـعلـت فيـه ولاية العـهد للإمـام الثـامـن عليه السلام ، بالأخـص فـرصـة الخـمـس سنـوات التـي سـادت فـيـهـا الحـروب الداخليـة، كـان تيـار التشيـع أكثـر جـهـوزيـة واقـتـداراً لـرفـع رايـة الحكومـة العلوية. ولقـد تنبـه المأمـون إلى هذا الوضـع الخطـر وهبّ لمواجهـتـه مـن خـلال مـا كـان يراه مناسبـاً بعد تقييمه لتجارب المواجهات السـابقـة. فـقـام بدعـوة الإمـام الرضـا عليه السلام إلى مـدينـة خـراسـان وعرض عليه عرضاً ملزماً بتسلم ولاية العهد حيث لم يسبق في كل المراحل السـابقـة للإمـامـة أن حـدث مـثل هـذا الأمـر، وسنتـحـدث عنه بشـيء من الاختصـار. حيث أن ولاية العـهد التي سُلمت للإمـام الثـامن علي بن موسى الرضا عليه السلام والتي تعد تجربة تاريخية عظيمة كانت في حقيقة الأمـر حـرب سيـاسيـة خفيـة بحيـث كـان الانتـصـار أو الهـزيمـة فيـهـا يمكن أن يحـدد مصيـر التشيع. والطرف المقابل في هذه الحـرب كان المأمـون الذي تسلّح بكل إمكاناته وقدراته.

فالمأمون بحنكتـه وتدبيـره ودرايتـه للأمـور التـي لـم يـسبقـه بهـا أحـد من أقـرانـه فكـر بأنـه لـو انتـصـر في هـذه الحـرب وتمكن من تحـقـيق مـخطـطـه إلـى النهـايـة، لكـان من المؤكـد حـقق الهـدف الذي سـعـى وجـهـد الخلفـاء الأمـويـون والعـبـاسـيـون لتـحـقـيقـه مـن بعـد شـهـادة علي بن أبي طالب عليه السلام ولم يتـمكنوا من ذلك. أي أنه كـان اسـتطاع أن يقـتلع شـجـرة التـشـيع من جـذورهـا. فـهـذا هـو الهدف، ولـكـان اسـتطـاع أن يقـلع تلـك الشـوكـة التـي كـانت دائمـاً في عـين الملـوك الظالمين والطواغيت إلى الأبد. لكن الإمـام الـثـامـن علي بن مـوسى الرضـا عليه السلام وبالتـدبيـر الإلهي

استطاع أن يتغلب على المأمون الذي مُني بهزيمة نكراء. مع أنه هو الذي جهّز نفسه وأعدّ العدة لهذه الحرب السياسية. وهو لم يفشل في إضعاف التشيع أو القضاء عليه فحسب، بل أن السنة التي تسلم فيها الإمام ولاية العهد (٢٠١ هـ) كانت واحدة من أعظم البركات التاريخية على التشيع. حتى أنها نفخت روحاً جديدة في نضال وكفاح العلويين. وهذا كله كان من بركات التدبير الإلهي للإمام الثامن عليه السلام وأسلوبه الحكيم.

ولقد كان للمأمون عدة أهداف أساسية من وراء دعوة الإمام إلى خراسان، أولها وأهمها تحويل ساحة المواجهات الثورية العنيفة للشيعة إلى ساحة التحرك السياسي الهادىء والذي لا يشكل خطراً. لأنه وكما ذكرت، فالشيعة لم يكونوا يعرفون التعب أو الملل في المواجهة ولم تكن ثورتهم لتقف عند حد. هذه المواجهات كان لها خاصيتين، الأولى: المظلومية، والثانية: القداسة، حيث كانتا تمثلان عنصر قوة يعتمد عليه الشيعة لإيصال الفكر الشيعي - الذي هو نفس شرح وبيان الإسلام من منظار أئمة أهل البيت عليهم السلام - إلى عقل وقلب جمهورهم، بحيث أن كل شخص لديه أدنى استعداد كان إما أن يؤمن بهذا الفكر أو أنه يميل إليه. وبهذا الشكل صارت دائرة التشيع تزداد سعة وانتشاراً يوماً بعد يوم. ونفس المظلومية والقداسة اللتين كانتا الداعم لحركات النهوض والتحرر من ظلم الخلافة.

كان المأمون يريد أن يواجه هذا الاستتار الشيعي العميق والمؤثر دفعة واحدة، فأراد أن يحيّد الإمام من ساحة المواجهة الثورية وينقله إلى الميدان السياسي وأن يقضي بهذه الوسيلة على فعالية الثورة الشيعية والتي كانت تتكامل يوماً بعد يوم بفعل العمل السري والمركّز. وبهذه الطريقة يكون المأمون قد انتزع من الشيعة العلويين الخاصيتين المظلومية، والقداسة، اللتان

تشكلان عامل نفوذ قوي لهم في الساحة. وذلك لأن قائدهم وهو الشخص العالي المقام عندهم قد أصبح في صفوف جهاز الخلافة فهو ولي العهد للملك المطلق العنان في التصرف في أمور البلاد، إذن فهو لم يعد لا مظلوماً ولا مقدساً.

وهذا التكتيك الذي قام به المأمون كان يأمل بواسطته أن يحوّل الفكر الشيعي إلى فكر مشابه لبقية الأفكار والعقائد والتيارات التي لها مؤيدون في المجتمع. فيخفف من وهجه وإشراقه ويخرجه من كونه فكراً معارضاً للنظام الحاكم وذلك لأن غالباً ما يكون مرفوضاً من الجهاز الحاكم ومخالفاً له يكون مرغوباً فيه عند الناس المستضعفين ومورد اهتمامهم.

هذا هو الهدف الأول من وراء دعوة الإمام إلى خراسان ومن ثم تنصيبه لولاية العهد. أما الهدف الثاني فهو تخطئة الاعتقاد الشيعي القائل بأن الخلافة قد غُصبت من قبل الخلفاء الأمويين والعباسيين وإعطاء الشرعية لهذه الحكومات السابقة. فالمأمون كان يرمي بتعيين الإمام ولياً للعهد إلى أن يثبت وبالقوة لكل الشيعة أن ادعائهم بغصب الخلافة وعدم شرعية الخلفاء الحاكمين (هذا الادعاء الذي كان دائماً يعتبر من ضمن الأصول العقائدية للشيعة) بأنه كلام لا أساس له. وأنه قد نشأ نتيجة الضعف والإحساس بالاستحقار. فلو كانت الحكومات السابقة غير شرعية ومتسلطة فبالتالي خلافة المأمون الذي هو خليفة لأولئك السابقين غير شرعية وغاصبة أيضاً. فكيف يدخل علي بن موسى الرضا عليه السلام في صفوف هذا النظام الحاكم ويقبل بخلافة المأمون؟ فهذا يعني أنها قانونية وشرعية ويترتب على هذا أن تكون خلافة الحكام السابقين شرعية أيضاً وليست غاصبة. وهذا الأمر ينقض كل ادعاءات الشيعة، وبذلك لا يكون المأمون فقط

قد حصل على الاعتراف بشرعية حكومته وحكومات أسلافه. بل يكون قد قضى على أحد الأركان العقائدية للتشيع والذي يعتبر أساساً أن أصل الحكومات السابقة هو الظلم وغصب الخلافة. إضافة إلى نقض الفكرة السائدة والمعروفة عن زهد وعدم اهتمام الأئمة بزخارف الدنيا ومقاماتها، ويُظهر بأن الأئمة فقط في الظروف التي لا تصل فيها أيديهم إلى الدنيا ـ أي أنهم عندما يمنعون عنها ـ يلجأون إلى الزهد. بينما عندما تفتح أمامهم أبواب جنة الدنيا يسرعون نحوها. وحالهم في هذا حال الآخرين. فهم يتنعمون بالدنيا إن أقبلت عليهم.

والهدف الثالث للمأمون هو أن يجعل الإمام المعصوم الذي كان دوماً ركيزة المعارضة والمواجهة في جهازه الحاكم وكذلك بقية القادة والأبطال العلويين الذين يتبعون الإمام فيدخلون تحت سيطرة المأمون. وهذا النجاح لم يتمكن أحد على الإطلاق أن يحققه لا من العباسيين ولا من الأمويين.

والهدف الرابع هو أن يجعل الإمام الذي يمتلك العنصر الشعبي ويعد قبلة الآمال ومرجع الناس في كل أسئلتها من ضمن صفوف أجهزة الحكومة. وبذلك يفقد شيئاً فشيئاً الطابع الشعبي ويبني حاجزاً بينه وبين الناس حتى يضعف بالتالي الرابط العاطفي بينه وبين الطبقة الشعبية.

الهدف الخامس للمأمون كان أن يكسب سمعة معنوية وصيتاً بالوقار والتقوى. فمن الطبيعي عندها أن يمدح الجميع ذلك الحاكم الذي اختار لولاية عهده ابن بنت النبي ﷺ، وهو شخص مقدس وذو مقام معنوي. وفي المقابل يحرم أخوته وأبنائه من هذا المنصب. والمعروف دائماً أن التقرب من الصالحين والمتدينين من

قبل طلاب الدنيا يُذهب ماء وجه الصالحين ويزيد من ماء وجه أهل الدنيا.

الهدف السادس كان باعتقاد المأمون أن الإمام بتسلمه لولاية العهد سيتحول إلى حامي ومرشد للنظام. فمن البديهي بأن شخصاً كالإمام بما لديه من تقوى وعلم ومقام لا نظير لها فهو في أعين الجميع من أبناء النبي ﷺ، وإذا قام بدور شرح وتبرير ما يقوم به جهاز الحكومة، سوف يأمن النظام من أي صوت مخالف. وبذلك أيضاً لا يستطيع أحد أن ينكر شرعية تصرفات هذا النظام. فهذا الأمر كان عند المأمون حصانة ووقاية لحكمه. فمن خلال الإمام يستطيع أن يخفي كل أخطاء وعيوب نظامه وحكومته ولم يكن ليخطر ببال أحد سوى المأمون، هذا الدهاء السياسي والحنكة والمكر. حتى أن الأصدقاء والمقربين من المأمون لم يكن لديهم علم بأبعاد وجوانب هذه السياسة. ويظهر هذا الأمر من خلال بعض الوثائق التاريخية. حتى أن فضل بن سهل الوزير والقائد والذي هو من أقرب الأشخاص لجهاز الحكومة لم يكن يعلم حقيقة خلفية هذه السياسة. وذلك حتى لا تتعرض أهدافه في هذه الحركة الالتفافية إلى أي نكسة.

وحقاً يجب القول أن سياسة المأمون كانت تتمتع بتجربة وعمق لا نظير له، لكن الطرف الآخر الذي كان في ساحة الصراع مع المأمون هو الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام. وهو نفسه الذي كان يحول أعمال وخطط المأمون الذكية والممزوجة بالشيطنة إلى أعمال بدون فائدة ولا تأثير لها وإلى حركات صبيانية. بينما المأمون الذي بذل كل جهوده وتحمل المصاعب من أجل مشروعه هذا، لا أنه فقط لم يحقق أي شيء من الأهداف التي كان يسعى لها، بل أن سياسته التي اتبعها انقلبت عليه.

فالسهم الذي كان يريد أن يرمي به مقام ومكانة وطروحات الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أصاب المأمون بحيث أنه وبعد مضي فترة قصيرة أصبح مضطراً إلى أن يعتبر كل تدابيره وإجراءاته الماضية هباءً منثوراً كأنّ شيئاً لم يكن منها.

وفي نهاية المطاف عاد المأمون ليختار نفس الأسلوب الذي سلكه أسلافه من قبله وهو قتل الإمام. فالمأمون الذي قد سعى جاهداً لتكون صورته حسنة ومقدسة وليتصف بأنه خليفة طاهر عاقل، سقط في النهاية في الهوّة التي قد سقط فيها كل الخلفاء السابقين له. أي انجرّ إلى الفساد والفحشاء ووسمت حياته بالظلم والقهر. ويمكن مشاهدة نماذج من حياة المأمون خلال ١٥ عاماً بعد حادثة ولاية العهد تكشف ستار الخداع والتظاهر عند المأمون. فكان لديه قاضٍ للقضاة، فاسق وفاجر مثل يحيى بن الأكثم. وكان المأمون يحضر المغنيات أيضاً إلى قصره، وكان لديه مغنٍ خاص يدعى إبراهيم بن مهدي، وعاش مرفهاً مسرفاً حتى أن ستائر دار خلافته في بغداد كانت من الدرّ.

بعد هذا العرض لسياسة المأمون، نتعرض إلى السياسة والإجراءات التي قام بها الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لمواجهة هذا الواقع.. فعندما دعي الإمام لينتقل من المدينة إلى خراسان من قبل المأمون نشر في المدينة جواً يدل على انزعاجه وتضايقه من هذه الخطوة بحيث أن كل شخص كان حول الإمام تيقن أن المأمون يضمر سوءاً للإمام من خلال إبعاده عن موطنه. ولقد أعرب الإمام للجميع عن سوء ما يرمي إليه المأمون بكل الأساليب الممكنة، فقام بذلك عند توديع حرم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعند توديع عائلته وأثناء خروجه من المدينة، وبكلامه وسلوكه ودعائه وبكائه، كان واضحاً للجميع أن هذا السفر هو رحلته الأخيرة ونهاية

حياته عليه السلام . وبناءً على ما كان يتصوره المأمون في أن يُنظر إليه نظرة حسنة، بينما يُنظر إلى الإمام الذي قبل بطلب المأمون نظرة سيئة، نرى أن قلوب الجميع ونتيجة لرد فعل الإمام الذي قام به في المدينة زادت حقداً على المأمون من اللحظة الأولى لسفر الإمام. فإمامهم العزيز عليه السلام قد أبعده المأمون عنهم بهذا الشكل الظالم ووجهه إلى مقتله.. هذه الخطوة الأولى للإمام.

وعندما طرحت ولاية العهد على الإمام رفض الإمام هذا الطرح بشدة. ولقد انتشر في كل مكان رفض الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لولاية العهد من قبل الخلافة، كما أن العاملين في الحكومة الذين لم يكونوا على علم بدقائق سياسة وتدابير المأمون قاموا وعن غباء بنشر رفض الإمام عليه السلام في كل مكان. حتى أن الفضل بن سهل صرح في جمع من العاملين في الحكومة أنه لم يرَ على الإطلاق خلافة بهذا القدر من المذلة، فالمأمون الذي هو أمير المؤمنين يقدم الخلافة أو ولاية العهد لعلي بن موسى الرضا وهو يرفض ذلك. ولقد سعى الإمام عليه السلام في كل فرصة تتاح له أن يبين أنه مجبر على تسلم هذا المنصب (ولاية العهد) ودائماً كان يذكر أنه هُدد بالقتل حتى يقبل بولاية العهد. وكان من الطبيعي جداً أن يصير هذا الحديث الذي هو من أعجب الظواهر السياسية متناقلاً على الألسن، ومن مدينة إلى مدينة. فكل العالم الإسلامي في ذلك اليوم وفيما بعد فهم أن شخصاً مثل المأمون حارب أخاه الأمين حتى قتله لأجل أن يبعده عن ولاية العهد ووصل به الأمر من شدة غضبه على أخيه أن قام برفع رأسه على الرمح وطاف به من مدينة إلى مدينة. مثل هكذا شخص كان من الواضح أنه أجبر الإمام الذي لم يكن مبالياً بولاية العهد . على أن يقبل بها وإلا قتله. وعند المقارنة بين عمل المأمون والإمام

المعصوم نرى أن كل ما جهد من أجل تحقيقه المأمون ووفر في سبيله كل ما لديه كانت نتيجته عكسية بالكامل. هذه هي الخطوة الثانية للإمام.

أما النقطة الثالثة في سياسته عليه السلام والتي واجه بها سياسة المأمون، هي أنه مع كل الضغوطات والتهديدات التي مورست عليه، لم يقبل ولاية العهد إلا بشرط الموافقة على عدم تدخله في أي شأن من شؤون الحكومة من حرب وصلح وعزل ونصب وتدبير وإشراف على الأمور. والمأمون الذي كان يعتقد أن هذا الشرط ممكن قبوله وتحمله في بداية الأمر، حيث يستطيع فيما بعد أن يجر الإمام إلى ساحة أعمال ونشاطات الحكومة، وافق على قبول شرط الإمام عليه السلام الذي ينص على عدم التدخل بأي شيء مهما كان. ومن الواضح أن قبول المأمون بهذا الشرط جعل خطته كمن يكتب على وجه الماء. فأكثر أهدافه التي كان يرمي إلى تحقيقها من وراء هذه الخطوة (تسليم ولاية العهد للإمام) لم تتحقق من جراء موافقته على هذا الشرط. والإمام عليه السلام الذي كان يطلق عليه لقب ولي العهد ويتمتع بسبب موقعه من إمكانات جهاز الحكم كان دائماً يقدم نفسه على أنه مخالف وعلى خلاف معها. فهو لم يكن يأمر ولا ينهى، ولا يتصدى لأي مسؤولية ولا يقوم بأي عمل للسلطة، ولا يدافع عن الحكومة، ولا يقدم أي تبرير لأعمال النظام. لذا كان من الواضح أن هذا الشخص الذي يُعتبر عضواً في النظام الحاكم والذي أدخل إليه بالقوة وكان يتنحى عن كل المسؤوليات، لا يمكن أن يكون شخصاً محباً ومدافعاً عن هذا النظام. ولقد أدرك المأمون جيداً هذا الخلل والنقص. فحاول عدة مرات وباستخدام أكثر الحيل مكراً ليحمل الإمام على العمل على خلافاً لما اشترطه سابقاً. فيجر بذلك الإمام إلى التدخل في أعمال الحكومة

ويقضي أيضاً على سياسة الإمام المواجهة والرافضة. لكن الإمام كان في كل مرة يُحبط خطته بفطنته وبراعته. وكنموذج على هذا الأمر يذكر معمر بن خلاد نقلاً عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أن المأمون كان يقول للإمام أنه إذا أمكن أن تكتب شيئاً لأولئك الذين يسمعون كلامك ويطيعونك حتى يخففوا التوتر والأوضاع المضطربة في مناطق وجودهم، لكن الإمام عليه السلام رفض ذلك وذكّره بشرطه السابق القاضي بعدم تدخله مطلقاً في أي من الأمور.

نموذج آخر مهم جداً وملفت وهو حادثة صلاة العيد حيث أن المأمون وبحجة أن الناس يعرفون قدر الإمام وقلوبهم تهفو حباً له. طلب من الإمام أن يؤمّ الناس في صلاة العيد، رفض الإمام عليه السلام في البداية لكن بعد إصرار المأمون على طلبه وافق الإمام بشرط أن يخرج إلى الصلاة ويصلي بنفس طريقة النبي وعلي بن أبي طالب عليه السلام.

فلما استفاد الإمام من هذه المناسبة وانتهزها كفرصة جيدة لصالح مشروعه ندم المأمون الذي كان قد أصر على ذلك وأرجع الإمام من منتصف الطريق قبل أن يصلي، مضطراً بفعله هذا أن تتلقى سياسة نظامه المخادعة والمتملقة ضربة أخرى في صراعه مع الإمام عليه السلام.

النقطة الرابعة في سياسة الإمام عليه السلام أن استفادته الأساسية من مسألة ولاية العهد كانت أهم من كل ما ذكر، فبقبوله لولاية العهد استطاع أن ينهض بحركة لا نظير لها في تاريخ حياة الأئمة (بعد انتهاء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سنه ٤٠ هجرية حتى آخر عهود الخلافة الإسلامية)، ولقد تمثل ذلك بظهور ادعاء الإمامة الشيعية على مستوى كبير في عالم الإسلام وخرق ستار التقية الغليظ في ذاك الزمان، حيث تم إيصال نداء التشيع إلى كل المسلمين، فمنبر الخلافة

العظيم الذي سمح للإمام باعتلائه مكنه من أن يتحدث بما لم يكن يقال طوال فترة ١٥٠ سنة إلا إلى الخواص والأصحاب المقربين وذلك بالسر والتقية، فخطب بالصوت العالي ليصل ذلك لجميع الناس، فاستفاد من هذه الفرصة ومن هذه الوسيلة (منبر الخلافة) التي لم تكن متيسرة في ذلك الزمان إلا للخلفاء أنفسهم أو لمقربيهم من الدرجة الأولى. وكذلك أيضاً مناظرات الإمام التي جرت بينه وبين جمع من العلماء في محضر المأمون حيث بيّن أمتن الأدلة على مسألة الإمامة، وهناك أيضاً رسالة جوامع الشريعة التي كتبها الإمام للفضل بن سهل حيث ذكر فيها كل أمهات المطالب العقائدية والفقهية للتشيع، وأيضاً حديث الإمامة المعروف الذي قد ذكره الإمام في مرو لعبد العزيز بن مسلم، إضافة إلى كل ذلك القصائد الكثيرة التي نظمت في مدح الإمام بمناسبة تسليمه ولاية العهد وقسم منها مثل قصيدة دعبل وأبو نواس تعدّ من أهم القصائد المخلدة في الشعر العربي.

إن كل ما ذكرناه من الاستفادة الأساسية للإمام عليه السلام من مسألة قبوله بولاية العهد يدل على مدى النجاح العظيم الذي حققه الإمام في صراعه ضد سياسة المأمون. وفي خطبته التي ألقاها من على منبر الحكومة أورد فضائل أهل البيت الذين ظلوا يشتمون علناً على المنابر لمدة ٩٠ سنة. فلسنوات طويلة لم يكن شخص ليجرؤ على ذكر فضائلهم، فعاد في زمانه عليه السلام ذكر عظمة وفضائل أهل البيت في كل مكان، كما أن أصحابهم ازدادوا جرأة وإقداماً من هذه الحادثة (ولاية العهد وخطبة الإمام الجريئة) وتعرف الأشخاص الذين كانوا يجهلون مقام أهل البيت عليهم السلام عليهم وصاروا يحبونهم وأحسّ الأعداء الذين أخذوا على عاتقهم محاربة أهل البيت بالضعف والهزيمة. فالمحدثون الشيعة أصبحوا ينشرون معارفهم. التي لم يكونوا

ليجرؤوا قبلاً على ذكرها إلا في الخلوات . في حلقات دراسية كبيرة وفي المجامع العامة علناً.

النقطة الخامسة التي قام بها الإمام تظهر عندما رأى المأمون أنه من المفيد فصل الإمام عن الناس. فهذا الفصل والإبعاد هو في النهاية وسيلة لقطع العلاقة المعنوية والعاطفية بين الإمام والناس. وهذا ما يريده المأمون.. ولمواجهة هذه الخطوة لم يكن الإمام يترك أي فرصة تمكنه من الاتصال بالناس إلا ويستفيد منها خلال تحركه ومسيره. مع أن المأمون كان قد حدد الطريق التي سيسلكها الإمام من المدينة وصولاً إلى مرو بحيث لا يمر على المدن المعروفة بحبها وولاءها لأهل البيت مثل قم والكوفة، لكن الإمام استفاد من كل فرصة في مسيره لإيجاد المودة ورابطة الحب بينه وبين أهل هذه المدن، فأظهر في منطقة الأهواز آيات الإمامة، وفي البصرة التي لم يكن أهلها من محبي الإمام سابقاً جعلهم عليه السلام من محبيه ومريديه وفي نيشابور ذكر حديث السلسلة الذهبية ليبقى ذكرى خالدة، إضافة إلى ذلك الآيات والمعجزات التي أظهرها. وقد اغتنم الفرصة لهداية وإرشاد الناس في سفره الطويل هذا. وعندما وصل إلى مرو التي هي مركز إقامة الخلافة كان عليه السلام كلما سنحت له الفرصة وأفلت من رقابة الجهاز الحاكم يسارع للحضور في جمع الناس. والإمام عليه السلام فضلاً عن أنه لم يحضّ ثوار التشيع على الهدوء أو الصلح مع جهاز الحكومة بل أن القرائن الموجودة تدل على أن الوضع الجديد للإمام المعصوم كان عاملاً محفزاً ومشجعاً لأولئك الذين أصبحوا بفعل حماية الإمام ومؤازرته لهم محل احترام وتقدير ليس فقط عند عامة الناس بل حتى عند العاملين وولاة الحكومة في مختلف المدن بعد أن كانوا ولفترات طويلة من عمرهم يعيشون في الجبال الصعبة والمناطق

النائية البعيدة، فشخص مثل دعبل الخزاعي صاحب البيان الجريء لم يكن على الإطلاق يمدح أي خليفة أو وزير وأمير ولم يكن في خدمة الجهاز الحاكم، بل لم يسلم من هجائه ونقده أي شخص من حاشية الخلافة، وكان لأجل كل ذلك ملاحقاً دوماً من قبل الأجهزة الحكومية وظل لسنوات طوال مهاجراً ليس له موطن، فأصبح الآن يمكنه بوجود الإمام علي بن موسى الرضا أن يصل ويلتقي بمقتداه ومحبوبه بحرية، وأن يُوصل في فترة قصيرة شعره إلى كل أقطار العالم الإسلامي، ومن أشهر وأبهى قصائده تلك التي تلاها للإمام عليه السلام حيث اشتهر بها، والتي تبين ادعاء الثورة الحسينية على الأنظمة الأموية الحاكمة.

حتى أنه وفي طريق عودته من عند الإمام سمع تلك القصيدة نفسها يرددها قطاع الطرق. وهذا يدل على الانتشار السريع لشعره.

والآن نعود لنلقي نظرة عامة على ساحة الصراع الخفي الذي بدأ المأمون بالإعداد له، ودخل فيه الإمام علي بن موسى الرضا للدوافع التي قد أشرنا إليها، والآن لنرى كيف كان الوضع بعد مضي سنة على تسلم الإمام ولاية العهد.

المأمون، وفي رسالة أمر تسليم الإمام ولاية العهد، وبعدة كلمات ومحطات كان قد مدح الإمام بالفضل والتقوى والإشارة إلى مقامه الرفيع والأصيل. بحيث أصبح الإمام خلال سنة بعد أن كان قسم من الناس لا يعرفون سوى اسمه (حتى أن مجموعة من الناس كانت قد ترعرعت على بغضه) يُعرّف عند الناس بأنه شخصية تستحق التعظيم والإجلال واللياقة لاستلام الخلافة، حيث أنه أكبر من الخليفة المأمون سناً وأغزر علماً وتقوى وأقرب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأعظم وأفضل وبعد مضي سنة لم يكن الوضع على أن المأمون لم يستطع أن

يكسب ود ورضا الشيعة المعارضين بجلب الإمام إلى قربه فحسب، بل أن الإمام قد قام بدور أساسي في تقوية إيمان وعزيمة وروحية أولئك الشيعة الثائرين.

وعلى خلاف ما كان ينتظره المأمون، ففي المدينة ومكة وفي أهم الأقطار الإسلامية لم يقذف الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بتهمة الحرص على الدنيا وحب الجاه والمنصب ولم يخبُ نجمه الساطع. بل على العكس من ذلك تماماً حيث ازداد احترام وتقدير مرتبته المعنوية لدرجة فتح الباب أمام المادحين والشعراء بعد عشرات السنين ليذكروا فضل ومقام آبائه المعصومين المظلومين. وخلاصة ما نريد قوله أن المأمون في هذا الصراع فضلاً عن أنه لم يحصل على شيء فإنه فقد مكاسب كثيرة، وكان على طريق خسارة ما تبقى لديه.

بعد مضي سنة على تسلم الإمام ولاية العهد، وأمام هذا الواقع الذي أشرنا إليه، شعر المأمون بالهزيمة والخسارة. ولكي يعوض عن هذه الهزيمة ويجبر أخطاء سياسته وجد نفسه مضطراً - بعد أن أنفق كل ما لديه واستنفذ كل الوسائل في مواجهة أعداء حكومته الذين لا يقبلون الصلح. أي أئمة أهل البيت عليهم السلام - إلى أن يستخدم نفس الأسلوب الذي لجأ إليه دوماً أسلافه الظالمون والغادرون، وهو اغتيال الإمام المعصوم. لكن كان من الواضح عند المأمون أن قتل الإمام الذي يتمتع بهذه الموقعية العالية والمرتبة الرفيعة ليس بالأمر السهل. والقرائن التاريخية تدل على أن المأمون قام بعدة إجراءات وأعمال قبل أن يصمم على قتل الإمام لعله من خلالها يسهل أمر قتل الإمام ويحد من خطورته وحساسيته. ولأجل ذلك لجأ إلى نشر الأقوال والأحاديث الكاذبة عن لسان الإمام كواحدة من هذه التحضيرات. وهناك ظن كبير بأن نشر الشائعة التي تقول أن علي بن

موسى الرضا عليه السلام يعتبر كل الناس عبيداً له بهذا الشكل المفاجىء في مرو، لم يكن ممكناً، لولا قيام عمال المأمون بنشر هذه الافتراءات. وحينما نقل أبو الصلت هذا الخبر للإمام قال عليه السلام ما معناه: يا الله يا خالق السموات والأرض أنت الشاهد على أنه لا أنا ولا أحد من آبائي قد قلنا مثل هذا. وهذه واحدة من المظالم التي تأتي إلينا من هؤلاء القوم.

إضافة إلى هذا الإجراء كان تشكيل مجالس المناظرات مع أي شخص عنده أقل أمل في أن يتفوق على الإمام واحدة من هذه الإجراءات التي مارسها المأمون. ولما كان الإمام عليه السلام يتفوق ويغلب مناظريه من مختلف الأديان والمذاهب في كافة البحوث كان يذيع صيته بالعلم والحجة القاطعة في كل مكان، وفي مقابل ذلك كان المأمون يأتي بكل متكلم من أهل المجادلة إلى مجلس المناظرة مع الإمام لعل أحداً منهم يستطيع أن يغلب الإمام عليه السلام وكما تعلمون فإنه كلما كانت تكثر المناظرات وتطول كانت القدرة العلمية للإمام عليه السلام تزداد وضوحاً وجلاءاً. وفي النهاية يئس المأمون من تأثير هذه الوسيلة. وحاول أن يتآمر لقتل الإمام كما تذكر الروايات من خلال حاشيته وخدم الخليفة، وفي إحدى المرات وضع الإمام في سجن سرخس (منطقة شمال شرق إيران) لكن هذا لم يكن نتيجته إلا إيمان الجلاوزة والسجانين أنفسهم بالمقام المعنوي للإمام. وهنا لم يجد المأمون العاجز والغاضب أمامه في النهاية وسيلة إلا أن يسم الإمام وبنفسه من دون أن يكلف أي أحد وقام بذلك فعلاً.. ففي شهر صفر من سنة ٢٠٣هـ أي تقريباً بعد سنتين من خروج الإمام عليه السلام من المدينة إلى خراسان وبعد سنة أو أقل من تسلمه ولاية العهد قام المأمون بجريمته العظيمة التي لا تنسى وهي قتل الإمام عليه السلام.

إن ما ذكرناه من سيرة الأئمة هو مرور على إحدى المفاصل الأساسية للحياة السياسية للأئمة التي استمرت ٢٥٠ عاماً وآمل أن ينهض المحققون والعلماء والباحثون في تاريخ القرون الأولى للإسلام بتنقيح وعرض ذلك أكثر. ومن المفيد أن تخصص الجامعة الرضوية الإسلامية التي تتأسس اليوم ببركة الذكرى السنوية لولادة هذا الإمام العظيم علي بن موسى الرضا عليه السلام وتستضيء بأنوار فيوضات مرقده الطاهر والشريف، قسماً من جهودها وعملها في سبيل الإضاءة على هذا التاريخ المليء بالعبر والدروس، وأن توضّح وترسم صورة لجيل اليوم والغد في العالم الإسلامي عن هذا التاريخ السياسي لحياة الأئمة مع التركيز على عامل الجهاد والمواجهة فهو المحور الأساسي لهذا التاريخ.

إصدارات مركز بقية الله الأعظم للدراسات

مركز بقية الله الأعظم (ع)

في رحاب الإمام الخميني

📖 **وصايا عرفانية:** رسائل الامام الى ابنه السيد أحمد وزوجة ابنه وتحتوي امهات المطالب في السير والسلوك الى الله.

📖 **حديث الانطلاق:** جولة في سيرة حياة الامام الخميني (حميد الانصاري)

📖 **طائر العشق:** شذرات من معنويات الامام

📖 **ولاية الفقيه:** بحث استدلالي من كتاب البيع

📖 **الحكومة الاسلامية:** ولاية الفقيه (الإمام الخميني)

في رحاب الإمام الخامنئي

📖 **الإمامة والولاية:** قيادة المجتمع الإسلامي ومسؤولية المسلم

📖 **أنوار الولاية:** كلمات مضيئة من خطب وبيانات الإمام الخامنئي

📖 **شمس الولاية:** نبذة عن حياة القائد الخامنئي وشهادات العلماء بمرجعيته.

📖 **التبليغ في الإسلام:** حقيقة التبليغ ومواجهة الغزو الثقافي

📖 **الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت** (عليهم السلام)

📖 **المواعظ الحسنة:** في السلوك المعنوي

- العودة الى نهج البلاغة
- خواص وعوام أهل الحق والباطل
- أصول الفكر الإسلامي: روح التوحيد ونفي العبودية لغير الله
- بحث حول الصبر
- عطر الشهادة
- رحلة في أعماق الصلاة الإسلامية
- جيش الأسلام
- الجامعة في فكر الإمام الخامنئي

من سلسلة مختصر الروائع

- مختصر الاداب المعنوية للصلاة
- هل نرى الله؟
- هل يظلمنا الله؟
- كربلاء في رائعة الشهيد مطهري

من سلسلة التراث الشيعي

- الشيعة في الاسلام العلامة الطباطبائي
- أسرار العبادات: العارف سعيد القمي
- حقيقة الامامة في المدرسة العرفانية العارف الهمداني

من السلسلة الثقافية الميسرة

- 🕮 اقرأ حول الامام المهدي (عج)
- 🕮 القرآن يتحدث عن الامام المهدي (عج)
- 🕮 مسؤوليات المؤمن تجاه صاحب الزمان (عج)
- 🕮 ماذا نستفيد من الامام المهدي (عج) وهو غائب
- 🕮 الدعاء لإمام الزمان (عج)
- 🕮 قبس من أنوار المهدي (عج)

من سلسلة الثقافة الإسلامية للشباب

- 🕮 وصايا الامام للشباب
- 🕮 كيف تكون قائداً ناجحاً؟
- 🕮 طريقك الى الكمال
- 🕮 موانع الكمال
- 🕮 هذا قائدي فاعرفوه!
- 🕮 كيف تصبح محباً للمطالعة؟
- 🕮 الإمام الخميني: مسيرة الثورة والجهاد